جائزة على جائزتين

حامد الناظر

فَريجُ المُرَر

رواية

مدونة ابو عبدو

المركز الثقافي العربي

حامد النّاظر

فَريجُ المُرَر

حامد النّاظر

فَريجُ المُرَر

رواية

المركز الثقافي العربي

الكتاب

فَريجُ المُرَر

تأليف

حامد النّاظر

الطبعة

الأولى، 2014

عدد الصفحات: 304

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-736-0

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

نالت هذه الرواية
جائزة الشارقة للإبداع العربي لعام 2014
وجائزة فودافون قطر للرواية 2014.

الإهداء،،

إلى روح جدي الناظر حامد سعيد،،

وإلى عائلتَيَّ، الكبرى والصغرى،،

إلى الباحثين عن السلام والطمأنينة في هذا العالم الواسع..

أهدي باكورة إنتاجي..

منكم جميعاً أستمدّ ثقتي بنفسي، وقدرتي على الحب،

ورغبتي في الحياة..

بعضُ عُمْركَ ما لَمْ تعِشْهُ، وما لَمْ تَمُتْهُ، ،
وما لَمْ تَقُلْهُ، وما لا يُقالْ. .
وبعضُ حقائقِ عصرِكَ، أنكَ عَصرٌ من الكلماتِ، ،
وأنكَ مستغرِقٌ في الخيالْ. .

. . «محمد الفيتوري». .

الفصلُ الأول

الدُّخـول

«دبي مدينة لا تنتبه كثيراً إلى الأغراب، إلى أسمائهم، أنسابهم، بقدر ما ينتبهون هُم لحضورها، إذا لم تكن غريباً، وحيداً، فإنك قد لا تعنيها كثيراً»

- الرّاوي -

(1)

الزمن في هذا المكان كائنٌ غريب، يبدو كما لو أنه شيء طارئ، خيطٌ مشدود فوق هاويةٍ سحيقة، لن يلبث أن ينكمش على نفسه مثلما تنكمش أفعى إلى جُحرها فجأة، وتغيب إلى الأبد..

لا أحد -بعد سقوطه الحتمي في الهاوية- كان يحفل بوجوده، بانسيابه الأبدي [illegible]، وكأن المكان، يؤكد بطريقةٍ ما، غامضة، أنه ينتمي إلى زمنٍ خاصٍ لا يشبه ذلك الذي جاء منه معظم مرتاديه على اختلاف مشاربهم، ولا يماثل ذلك الذي في خيال أيّ منهم، وكأنما يتأرجح في فراغٍ شاهق، لا قرار له، لا سقف، ولا حواف، محصّنٌ بشكلٍ ما ضد هواجس الذاكرة، وضدّ الأحلام كذلك، لا يشده الماضي إليه بأي خيط، ولا يربطه الغد بأي وعد، اللحظة وحدها تتحكم في كل شيء بقوةٍ غامضة، [illegible]

من غير وعي، نشأت هذه القطيعة الغريبة بين المكان والزمان، ربما لم ينتبه إليها معظم مرتادي السوق، في غمرة احتفائهم بلحظاتٍ صاخبة قصيرة، وزهوهم المفرط بانتصاراتٍ صغيرة عابرة، وربما تافهة أيضاً، كالظفر بليلةٍ حميمة مع هذه النادلة أو تلك، أو اقتناص لحظة عطفٍ ضائعة، أو هدية رخيصةٍ من أحد الزبائن -بغض النظر

عن الطرائق لدى كل طرف- شكَّلت في مجملها يوميات السوق، لكن دون أن تمتدّ أيّ منها خارج حدود اللحظة، حدود الحاضر، كأن ذلك -إن حدث- سيخالف شروط المكان، وبالتالي تفقد الأشياء مبرر وجودها فيه على نحوٍ ما..

هل يمكن أن تكون اللحظة الصغيرة الضئيلة شيئاً ذا وزن؟ شيئاً مهماً إلى هذا الحد؟

قد يجيب المكان «نعم، اللحظة هنا كل شيء، كيانٌ حقيقي، له هوية، له شكل وملامح واضحة، بل وقادر على التأثير في مجريات الأمور بطريقةٍ غامضة، فالكل لا يريد الكل إلا من أجل هذه اللحظة، اللحظة التي لا قبلها ولا بعدها، ولولاها لما كُنتُ أنا أيضاً»..

هكذا رأيت سوق فريج مرر، مثل كوكبٍ غريب، يدور -متمرداً- في فلكٍ خاص خارج أسوار الزمن، منفصلاً عنه بطريقةٍ ما، يوفر لقاصديه عوالم متجددة كل يوم، ليس فيها من تفاصيل الزمن سوى ذلك الملمح المحايد، الذي يُغيّب لحظةً ما، ثم يأتي بأخرى بطريقةٍ آليةٍ مضبوطة..

إيلسا مثلاً، كانت تعتقد أن أفضل وسيلة للهروب من الماضي، هي التفكير فيه دائماً، كلما تذكرت فجائع سنواتها الخالية في إثيوبيا، كلما غرقت أكثر في أوحالها الآسنة، كانت تبحث عن ألمٍ جديد يدنيها من لحظةٍ أخرى مجهولة، لحظةٍ لا تعرف ملامحها على وجه الدقة، لكنها تعرف اللحظة التالية لها، والتي كانت تسميها «لحظة التطهر، الشفاء، الخلاص من كل عذابات الروح»! وكأنها تكفِّر عن ذنب عظيم، بهذه الطريقة الغريبة..

أحياناً، كانت تعبِّر عن خيباتها بلغةٍ بذيئة، لكن ليس دائماً، إنما في أوقاتٍ خاصة نادرة، حين كانت تلهثُ وراء ما تعتقد أنه ألم لذيذ، ثم تكتشف أنه لم يكن كذلك، لم يؤلمها بقدر ما تمنّت، ولم يطهّرها كما اعتادت، بل فاقم من إحساسها بالذنب أكثر، ثم تعود إلى وقارها اللئيم..

كانت تعتقد أنّ استدعاء الألم باستمرار، من شأنه أن يصيب الذاكرة بالخَدَر، ثم التعافي شيئاً فشيئاً، حتى تذوب أوجاع روحها المشقَّقة، المتعبة، وقد كانت تطمئن إلى هذه الطريقة كثيراً..

أما أستير فكانت تميل إلى أن تبقى محايدة تماماً إزاء الزمن، فالماضي -رغم جحوده- في ذهنها، هو اليوم، وهو الغد بصورةٍ من الصور، هو تلك الطاقة الخفية التي شحنت حركة التاريخ في الماضي، وهي ذاتها الآن التي تحرك الأحداث بهذا الاتجاه أو ذاك، وتحرك الأشخاص كذلك لتقبُّل بعض الأمور أو رفضها، لأن ذلك -كما فهِمَتْ- يتم بناءً على تجارب سابقة حدثت في الماضي، وليس بما يقتضيه الحدث من حياد، من حيث كونه ذا جدوى أم لا..

التاريخ في ذهن أستير شيء متصل، ويدور حول نفسه أيضاً، وهذه الدائرة إنما تنداح لتولّد دوائر أخرى أكبر، وتمثِّل كل دائرة منها حقبةً زمنية محددة، وإن عملية الانتقال من دائرة أصغر كانت تسميها الماضي، إلى أخرى أكبر قد تكون الحاضر أو المستقبل، إنما هو شعورٌ زائفٌ بالتخلص من الماضي، الإنسان إنما يغير موقعه في الزمن وحسب، ولا يغير التاريخ..

وعلى النقيض تماماً كان جمال، أو مجنون ليلى يهرب من ماضيه كما لو كان لا يخصّه، كان يشعر بالأمان داخل إطار تلك الصورة النمطية، المشوّهة، التي اختارها، ثم تقبّله فريج مرر على أساسها، لكنه لم يكن يتصور أن الذي يفصل بينه وبين ما كان يهرب منه، لم يكن سوى غشاءٍ واهن لن يصمد كثيراً أمام تقلبات الأيام، ومثله كان حمد المرّي، مجدي، بِيتي، وآخرون، وربما أنا!..

وحده كان مقهى «الزمن» وحكاياته المبعثرة، المليئة بالأسى والمفارقات، مؤامرةً خجولةً يائسة، تُذكِّر الزمن بوجوده الهش..

(2)

الباحةُ الواسعةُ أمام مطار الخرطوم كانت تضجُّ بالمسافرين والمودّعين هذا الصباح، سيارات، أبواق، حقائب وصناديق، بعضُها على الأرض وأخرى على عجلات يدفعها أصحابُها أو بعضُ العمال نحو بوابات الصالة، زغازيدُ وعناقٌ وقُبلٌ ودموع، وعيونٌ تمتلئ بملامح الآخر لأطول وقتٍ ممكن، إلى آخر لحظة، حالةٌ سودانيةٌ نموذجية لذلك القلق الأبديّ من السفر كما لو كان رحيلاً بغير رجعة..

أغلب المسافرين كان يبكي، لكن هذه الحالة تغيرت بمجرد دخول صالة المغادرة، فتذكّرت عبارةً كتبها صديقٌ لي على صفحته في فيسبوك «أروع مكان في السودان، صالة المغادرة»..

لم تكن هذه العبارة واضحة في ذهني كما هي عليه الآن، إذ تحول ذلك الحزن الذي رأيته مائجاً في الباحة خارج المطار إلى غبطةٍ مكبوتة، إلى فرحٍ طفولي ملأ الصالة ضجيجاً وحركة، مأساة أن يتحول ذلك الخوف من السفر إلى رغبة، إلى حلم!

كواحدٍ من أولئك الآلاف الذين يتسربون كل يوم، قررت أن أغادر، تاركاً كل شيء في مكانه، حتى الذكريات، جلستُ على

مقعدي في الطائرة التي أقلعت باتجاه دبي، إلى جوار طفليْن مشاغبين، كانا توأماً لطيفاً، بوجهين سمراوين ممتلئين وشعورٍ مجعّدة مثل حبات الفلفل الأسود..

سألني أحدهما إذا ما كنتُ أعرف أباهما في دبي، فأجبتُ بلا..

ثم سألاني إذا ما زرتُ مول الإمارات ورأيت التزلج على الجليد؟ أو القرية العالمية لأرى الرقصات البهلوانية؟ أو أماكن أخرى لا أذكر الآن، فأجبتُ عن كلّ ذلك بلا أيضاً، اندهشا..

ثم قال الآخر إنهما يدرسان في مدرسةٍ أجنبية اسمها «ويسْت مِنِسْتَر»، فقلتُ «وااااو»، سعدا لذلك..

حدثاني بحماس كيف هي جميلة وواسعة، وفيها ملاعب ومسرح وفصلٌ للموسيقى ومرسم، ثم حدَّثني كل منهما عن أصدقائه ومُدرّسيه..

أحدهما يتحدث بجسده كله، ينفخ أوداجه ويمطّ شفتيه، ويلوح بيديه، وقف بطوله على المقعد فجأة ليحاكي مُدرّسَهُ في الفصل، واضعاً يديه معقوفتين على جنبيه..

عندها انتبهتُ إلى أمّهما -تجلس خلفي- زجرَتْهما بألّا يضايقاني، ثم نادت على مضيفٍ وسيم كان يتجول بين المقاعد واقترحَتْ عليه أن تبدّل معي مقعدها لتنضمّ إلى ولديها، ففعل..

أحدهما، مدّ رأسه من فوق المقعد وأهداني مجلة أطفال وكأنما يعتذر، شكرته بغمزةٍ مرحة ضحك لها..

للحق كانت هديةً رائعة، فأنا منذ وعيت تستغرقني قصص

الأطفال بعوالمها البريئة الصافية، الخالية من التعقيد، من الظلال الرمادية، لتبقى الأشياء كما هي، بيضاء أو سوداء، فبدأتُ أتصفحها مستمتعاً كعادتي. .

قصة البطة المدلَّلة والدجاجة المسكينة والتي تنتهي بهروب الدجاجة إلى غير رجعة كانت من القصص القليلة التي استقرّت في ذهني، لكن ليس في طفولتي، بل بعد ذلك بكثير. .

في إطارٍ إلى يمين الصفحة البطة المتعجرفة مستلقية على كرسي مائل أمام بركة الماء، على عينيها نظارة شمسية داكنة، وعن يمينها طاولة وعصير مثلج وحولها عشرات الطيور، بينما على الإطار الأيسر تبينُ الدجاجة من الخلف وهي متجهة نحو باب المزرعة، بخاطرٍ كسير. .

«الدجاجة مهما علا شأنها لن تصبح بطةً يوماً»!

كانت مكتوبة في إطارٍ أسطواني أبيض يتدلى منه سهمٌ قصيرٌ إلى منقار البطة المدلَّلة. .

ذات يوم قالت لي سيدةٌ متعجرفة تلك العبارة، ما زلت أذكر نبرة صوتها على الهاتف كما لو كان لبطةٍ بالفعل. .

في الماضي كنتُ أغضب جداً عندما أتذكر ذلك، وتدهمني نوبة اكتئابٍ أحياناً، أما الآن صار ذلك كله ذكرى مرحة، ضحكتُ لها في نفسي، وفي وجه المضيفة الودودة التي لها شفتان حمراوان ناتئتان مثل منقار البطة، جاءت بطعام الغداء، لكنني اعتذرت منها بإشارةٍ من يدي، ابتسمتْ مجدداً وتخطتني. .

ثم جاءني ذلك المضيف الوسيم، فقدَّم لي قهوة. .

- هذه قهوة برازيلية من النوع الفاخر، أحتفظ بعبوةٍ منها في خزانتي الخاصة لعلّ طعمها يروق لك. .

فابتسمتُ، نقطة ضعفي في كل أجناس الطعام والشراب هذه التي تسمى قهوة، لكن كيف هجس له ذلك؟ ربما يدربونهم على فهم هذه الأشياء الغريبة، أو أنه قابل أحداً في مثل غرابتي من قبل، ولِمَ لا؟ مثله يلتقي في اليوم بالمئات من الناس، غريبي الألوان والطباع والوجهات. .

شربتها على مهل، ارتخت عضلات وجهي، ثم عدتُ إلى طفولتي بين ضفّتي المجلة الصغيرة المليئة بالحكايا والرسومات مثل حديقةٍ ملوّنة، حتى اقتربت بنا الطائرة من مدينة دبي. .

بَدَت لي من النافذة مثل قطعة إلكترونية، دقيقة المسارات والأجزاء، وُضعت بعنايةٍ في الحد الفاصل بين البحر والصحراء. .

اقتربنا من المطار، بانت معالم المدينة أكثر، اتسعت طرقاتها وتباعدت أبنيتها، جدرانها الزجاجية المصقولة ومع انعكاس أشعة الشمس كانت تومض بدلال، بينما كانت أبراجها الشاهقة تربض تحت الشمس مثل آلهةٍ مهيبةٍ عملاقة، لم يخالجني شكٌّ في أنها مدينة استثنائية. .

مبنى المطار من نافذة الطائرة مثل أنبوب رمادي عملاق، اقتربت منه الطائرة ببطء كما يقترب القارب من المرفأ، ودّعتُ صديقيّ الصغيرين بمرحٍ أيضاً، ضربنا كفوفنا ببعضها في الهواء، حملنا حقائبنا ثم اصطففنا في ممر الطائرة ودخلنا من إحدى الفوّهات الصغيرة الممتدة كسردابٍ بين باب الطائرة والمبنى فأسلمتْنا إلى صالةٍ عملاقة. .

القاعة شاهقة مكتظة بطوابير القادمين التي كلما نقص أولها استطال آخرها بمددٍ جديد، صنوفٌ من البشر، وجوهٌ رائقة بهيّة، وأخرى مرهَقة، متورمة، من طول الرحلات القادمة من كلّ فجاج الأرض، تقيّأتْها طائراتٌ عملاقة ثم حمَلَت غيرَها وطارت..

- أهلاً بالزّول..

قال موظف الجوازات، ثم ختم على جوازي وهو يبتسم، شكرته وخرجت برفقة صديقيّ الصغيرين وأمهما..

انتظرنا الأب في الصالة المكتظة بمئات المستقبلين، عرّفني التوأم اللطيف لأبيهما على أنني صديق، فضحك لذلك، ثم ألحّ عليّ بحميمية السودانيين أن أرافقهم إلى البيت أو يوصلني إلى حيث أريد، شكرته، بعد وعدٍ مغلّظٍ بزيارةٍ قريبة، والحقيقة لم تكن لي وجهةٌ محددة وخشيت الحرج..

غادروا ووقفتُ مدةً أتأمل الآلاف التي كانت تهدر خارجةً من المطار، أين سيبيتُ كل هؤلاء؟

خفّت إليهم السيارات والتاكسيات ثم امتصتهم الشوارع المزدحمة مع هبوط الليل وغرقِ المدينة في بحرٍ من أضواء النيون..

- وين روح سير؟

قال سائق التاكسي الباكستاني، تلفّتُ حولي..

- أريد فندقاً متواضعاً أنام فيه كذا ليلة..

انطلق في شوارع المدينة المصقولة لا يلوي على شيء، ثم وقف بي أمام أحد الفنادق الصغيرة في سوقٍ مزدحمٍ بالمارة والمحلات..

- أين هذا المكان؟

- هذا فريج المُرر، أُولْدْ دبي!

حملتُ حقيبتي الصغيرة على كتفي، وألقيتُ نظرةً على مجلة الأطفال بين يدي، حشرتها في جيب الحقيبة بعناية ثم دلفتُ إلى الفندق..

(3)

غفر الله لصديقي حسن، ها أنذا يكاد يقتلني الملل في طرقات دبي، أصلي الفريضة ثم أتسكع في شوارعها الرطبة حتى يُؤذّن للفريضة التالية، أو أعود إلى غرفتي بالفندق أقرأ أو أنام حتى يناديني المسجد مرةً أخرى، لم أجد مكاناً أعرفه هنا سوى المساجد، هي أيضاً ليست كالتي عندنا، تغلق أبوابها بعد كل صلاة إلى أن تحين الصلاة التالية، والمؤذنون والأئمة موظفون يقبضون رواتب..

ما أعجب هذه المدينة؟ يكاد الأسبوع الأول ينقضي، ولم يسلم عليّ أحدٌ في شوارعها أو يدعوَني إلى بيته أحد! الغريب في بلادنا غريب، تعرفه أول ما تقع عيناك عليه، يتلقفه الناس ويقسمون عليه، ليبيت هنا أو يُستطعم هناك، أما هنا فالكل غريب، والكل ضيف، والكل عابر سبيل، إنها حقاً مدينة الغرباء..

كانت إحدى خيارات عديدة لتكون المنفى، لكنها أصبحت الخيار الأوحد في نهاية المطاف، لا أعرف لماذا تحديداً، فمثلي لا تليق به مدنٌ كهذه ولا يليق بها، لكنها أقدار الله وصديقي حسن..

- دبي مدينة لكل الناس، الأبيض والأسود، العفيف والفاجر، حيواتٌ مختلفة تعيش في حياة واحدة، التقيّ والماجن يعملان في

مكانٍ واحدٍ، جنباً إلى جنب، ثم حين يجن الليل يذهب كلٌّ إلى محرابه ليصلي صلاته التي يعرف، ثم يطلع عليهما صباحٌ واحد، والله وحده العالِم بمن ضلّ ومن اتّقى..

- وما يفعل مثلي فيها؟

- افعل كما اعتدتَ أن تفعل يا صديقي، لن تطلب منك أن تكون شيئاً آخر، بل ستعرِّفك إلى نفسك أكثر، أنت بحاجة إلى هذا أكثر من أي شيء..

حسناً، صليت العشاء، ثم وجدت على باب المسجد سودانياً بشوشاً، يدير مسبحة طويلة بين يديه، هجس لي أنه زائرٌ مثلي، ففرحت للقائه، ثم تدحرجنا على رصيفٍ طويل، نتحدث..

- أنا أرتاح لهذه المدينة، شيء ما يملؤني بالاطمئنان، أبيع وأشتري دون أن أخشى أولاد الحرام..

- غريبة فعلاً هذه المدينة وأهلها، كيف لهم أن يطلقوا عنان الحياة لهذه الملايين من البشر، ثم لا يخشون منهم شططاً أو نزقاً؟

- النزق موجود في كل مكان، لكن كل شيء هنا تحت سمع وبصر سلطةٍ لا تراها، إنما تحسّها وتطمئن لها، هنا تحولت رؤية صانع المدينة إلى نظام حياة، فيه متسعٌ وفسحة لكل شيء!

فرك المسبحة بين يديه وقرّبها من أنفه، شمّها بنشوة ثم أدخلها في جيبه وأخرج علبة سجائر، عرض عليّ سيجارة من نوع **دنهيل** الفاخر فاعتذرت..

- شكراً، كنت مدخناً فيما مضى، لكنني الآن أحسّ بالراحة..

أشعل سيجارة وبدأ يدخنها بِنَهْم، صوت غريب يصدر من فمه

كأنما يمضغ الدخان، تأملته، طويل مربوع القامة، أعسر، تبرق أسنانه خلف سمرته الداكنة اللامعة، تكسوها لحية خشنة غير منتظمة، الابتسامة جزءٌ من ملامح وجهه الطويل، عيناه غائرتان وسط جبهةٍ بارزةٍ وعظمتي خدين ناتئتين وأنفٍ أفطس مليء بالشعر. .

– صدقت، الطقس رديء يخنق الأنفاس، ولولا أنني أدمنته ما ضايقتُك به الآن. .

– لا عليك، قل لي ماذا تعمل؟ هل أنت زائرٌ مثلي. .

– أنا اسمي عباس، زائرٌ دائمٌ لدبي، تستطيع أن تقول تاجر، آتي إلى هنا مرةً كل شهر، أشتري من هنا وأبيع هناك. .

يتحدث بصوتٍ عالٍ، يحرك يديه الطويلتين في الهواء ورأسه بحِدّة، يرسمُ انفعالات مختلفة على تقاطيع وجهه حين يتحدث، يتوقف عن السير أحياناً ليقول شيئاً ما بطريقةٍ تمثيلية أو ليلفت انتباهي أكثر، كان يتحدث كثيراً وأنا أستمع. .

علمت منه أنه نزيل دائم بالفندق ذاته الذي أقيم فيه، بل وتبقى غرفته خالية إلى حين عودته التالية، يعمل في التجارة، ولديه معارف جيدة بالبلد وصداقات ممتدة، بهرني بحديثه الكثير عن نفسه وعن علاقاته ونجاحاته، لكن لا بأس فهو الشخص الوحيد الذي رمته الأقدار في طريقي حتى الآن، وليس من الحكمة خسارته. .

خاطرتني القهوة فجأة، فسألته أن يأخذني إلى مقهىً أو مطعم قريب، فاستحسن الفكرة. .

– سآخذك إلى مقهىً لن تشرب قهوة بمثل مذاق قهوته يا. . .

– الطيب، اسمي الطيب. .

- تشرفنا يا الطيب، من هنا..

وانطلق أمامي متحمساً، عَبَرنا أزقةً ضيقةً متشعبة، ثم حين لاحظ ارتباكي وامتعاضي من زحمة الوجوه وضوضاء المكان، مال عليّ يؤلف بيني وبينه..

- هذا سوق فريج المُرر، صحيح أنه يقبع في قاع دبي، لكنه حميمٌ إلى النفس وأنا واثقٌ أنك ستحبه!

لم أبدُ متحمساً للفكرة، الواضح أنني في المكان الخطأ، لم ينتبه لذلك..

- أغلب سكان هذا السوق والعاملين في متاجره ومحلاته من الآسيويين والعرب والإيرانيين، إلا أن طابعه العام أفريقي صرف خاصةً في الليل، إنه المكان الوحيد في دبي الذي يفهم مزاجنا نحن السودانيين!

لم أفهم ما قصد بمزاجنا، لكن لا مفر من مجاراته ريثما تسعفني تأملاتي في المكان بشيء ما..

مقاهي أثيوبية وإرترية متراصّة على جوانب الأزقة والممرات، تنبعث من جوفها أدخنة الأرجيلة النفاذة مصحوبةً بموسيقى حبشية صاخبة، وزبائن بملامح أفريقية يتسكعون داخل وخارج المقاهي، فتيات بسراويل محزقة على الأرصفة وأبواب المقاهي، يستجدين المارة..

- إتفدّل..

- إتفدّل يا زول..

ماذا يجري؟

دخلنا زقاقاً أقل ضجيجاً، حتى وقفنا أمام إحدى المقاهي، على مدخله أربع أو خمس فتيات بسراويل قصيرة محزقة أيضاً، سلّم عليهنّ بأسمائهنّ، ثم جرّني من يدي مثل طفلٍ صغير ولم يمهلني لأتأمل أكثر، صعد بي سلماً ضيقاً، قائماً إلى طابقٍ علوي من المقهى ويكاد يكون مظلماً، وجدنا أحدهم صومالي الملامح ومعه فتاة في جلسةٍ حميمة، يدخنان أراجيل ويحتسيان قهوة في مجلس عربي صغير بالكاد يسَعُنا معهما، لم يكترثا كثيراً لضجيج عباس..

بعد قليل، جاءتنا نادلةٌ من أسفل المقهى، سلّمت على عباس وقبّلته على خديه وقبّلها هو أيضاً..

ماذا يجري؟

سلمتُ عليها بحذر، فلم تأبه كثيراً، لم تُطل النظر إلى وجهي، يدُها بضّة ناعمة، وملمسها حريري، شعرها الكستنائيّ اللامع يتدلى على كتفها الأيسر ويغطي جانباً من وجهها المليح، تتوسطه عينان فارغتا النظرات، لا تهتمان لشيء، وتحتهما أنفٌ فارسي مقوس وشفتان ممتلئتان، هيّأتْ لنا مجلساً ثم تركتنا لتعود بالقهوة، مشتْ يتقدمها صدرها، وتتبعها يداها، إلى جوار ردفين بارزين يحطّان ويرتفعان مع كل خطوة..

نقلتُ بصري منهما بصعوبة وبسطته على حوائط المقهى المزدانة بصور أباطرة أثيوبيا، جميعها مرسومة ومعلقة بعناية حسب ترتيبها الزمني، ثمة ضوء خافت لا يتناسب والموسيقى الصاخبة، دخان الأراجيل يعبُّ المقهى، وذلك الشاب لا يزال غارقاً في أحاديثه مع الفتاة..

جاءتنا بالقهوة، صينية كبيرة عليها كل آنيتها، «الجَبَنة» إبريق

فخاري أسود تقدم فيه القهوة، وحوله فناجين صغيرة بيضاء وسكرية وملاعق، مجمرٌ يفوح ببخور نفاذ، وطبق واسع من الفوشار المقرمش، وطريقة موغلة في التحضّر لتقديم القهوة، تمددتُ نصف راقدٍ على الوسائد الوثيرة وبدأت الأنخاب..

لقد صدق الرجل، لم أشرب في حياتي قهوة بهذا المذاق والدلال، مع دلالٍ آخر لهذه النادلة التي لم أرَ في حياتي جرأةً ورقّة كما كان لها، جسدٌ لَدِنٌ طيّع يضج بالإغواء، وهي تمدّ أرجلها تارةً وتضمهما إلى صدرها تارةً أخرى، تتكئ على يدها نصف راقدة فينفصل وسطها الرخو ليقسم جسدها إلى قسمين، يتحرك كل منهما بمعزلٍ عن الآخر، يختلط حديثها دائماً بضحكاتها العذبة فلا تحس مرارةً في لسانها أبداً، ذقت ذلك حين انتبهت إلى صمتي فجأة..

- تَشاوَشْ..

- ها؟

ضحكَتْ بصوتٍ أعلى..

- تكلم، سولف..

ثم تصاعدت الضحكة بوتيرةٍ رنانة، أقسم أنها تتحكم في نبرات ضحكتها، ترفعها، تخفضها بمهارةٍ عجيبة! هذا جنس آخر من النساء لم أعرفه بعد..

ماذا يجري؟

غاظني عباس، كان يتحدث معها في أمورٍ لا تشبهها البتة، أحوال السوق، أسعار الإيجارات، رسوم الخدمات، وعن أشخاصٍ أظنهم من مرتادي السوق، وللغرابة، كانت سعيدة!

تركتهما لأحاديثهما التي لم تكن تعنيني، واستلقيت على الوسائد وجهي إلى السقف، كنت الأقرب إلى الشاب والفتاة الجالسين إلى جوارنا، وكان حديثهما الهامس قريباً من أذني..

- مثلي لا يحلم، إنما يعيش فقط..

قالت الفتاة..

- ثلاثون درهماً فقط؟

- هذا هو الموجود!

- الموجود كثير، كثير جداً، لكنكِ عنيدة!

- أخبرتُكَ، هذا لن يحدث..

ثم سمعتُ خشخشةَ الملابس، ومناغاة غريبة في صوت الفتاة، أظن أنها اقتربت منه أو التصقت به أكثر، فقد بدأ صوته يتهدّج..

- أنت عنيدةٌ جداً، جداً.

- بل أنتَ من لا يريد..

- وهل تسمين ذلك زواجاً؟

ثم قالت بصوتٍ قاتل، ارتعشتُ له في مكاني..

- أرجوك، هذا لا يصحّ إلا كما قلتُ لك..

وانقطع صوته فجأة ولم يعد يخرجُ من حلقه، وأظنها وصلتْ إلى اللحظة التي تريد، اللحظة الباذخة التي يكون فيها الرجل سخياً إلى أقصى حدّ، من أجل أن يربح اللحظة التالية..

- حبيبي، غداً سأذهب إلى صالون التجميل لأصفف شعري، وأحتاج إلى خمسمائة درهم إذا كان هذا لا يضايقك..

سمعتُه يبتلع ريقه، ثم خشخشة أوراق نقود، ساد بعدها صمتٌ قصير حتى وقفتِ الفتاة، عدّلت من هيئتها ثم لملمت آنية القهوة، فقال بصوته المتهدج..

- كونجو بُنّا[1]..

- أمَسَغينالو[2]..

نزلت الفتاة إلى الأسفل ولم تعد بعدها، فلملَم الشاب شبقه المبعثر في المكان، وغادر أيضاً..

---

(1) كونجو بُنّا: قهوة طيبة.

(2) أمسغينالو: شكراً.

(4)

ماذا يجري؟

الليلة الفائتة نِمتُ نوماً هشاً، قلقاً، كانت تصطخب في ذهني أمور كثيرة اعتقدت لوقتٍ طويلٍ أنني نسيتها، لكن ولأن الأشياء تذكّر ببعضها، بتُّ أتقلب على فراشي مثل محمومٍ مجهد..

فتاة الأمس لم تبرح صورتها خيالي، ملامحها، ملمس يدها، عذوبة ضحكاتها، لم تغب عني طريقتها في الحديث، قهوتها، وأنفها الفارسي المقوس، يا إلهي من أنفها العجيب!

ماذا يجري؟

النوم عزّ، وأبت صورتها الدقيقة التي انطبعت في ذاكرتي منذ سويعاتٍ أن تتبدد، كانت تنبع في حلكة الليل مثل عِقدٍ مُذهّب، هل هي الحبشة التي كنا جزءاً منها في التاريخ البعيد؟ قلت لنفسي..

ولو أننا بقينا على ذلك الرباط، لربما تغيَّرت أشياء كثيرة، ولكنتُ الآن أشرَقُ بمثل هذه اللغة العذبة التي تخرج من آخر الحلق مثل رحيق العسل، الآن عرفتُ لماذا كان النيل عذباً دائماً، ولماذا تصل الحماقة بسكان واديه إلى حافة الحرب دائماً..

لكنّ المفارقة ذكّرتني بوجهٍ آخر من الماضي، بعينين واسعتين،

وحاجبين مقترنين مثل جناحي طائرٍ في الهواء، ولونٍ قمحيٍّ نَضِر، وبصوتٍ مبحوح وضحكةٍ كالصهيل، أين هو الآن يا تُرى؟ حاصرته بالحب وحاصرني بكل شيء، لكنّه كان مستحيلاً..

كنتُ وقتها حسن الظنّ بنفسي، مقبلاً -بُعيد تخرّجي- على الحياة باندفاع لم تلجمه إلا تلك السيدة المتعجرفة، تلك البطة، أمّها، حتى خرجتُ من تلك التجربة بمرارة في حلقي، لم يبدِّدها إلا طعم هذه الفتاة، ذات الأنف المقوس..

ماذا يجري؟

أذن الفجر «حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح» ففرحت، وكأنما خصّني بهذا النداء الرحيم، وبالوجوه التي لها من نور الفجر نصيب، لكنني التقيت وجه عباس أيضاً بين المصلين، وكانت المسبحة العجيبة لا تزال بين يديه، وفمه يتمتم بأورادٍ طويلةٍ هامسة منذ خروجنا من المسجد وحتى وصولنا إلى بهو الفندق لنشرب قهوتنا..

شَمّ المسبحة بنشوةٍ كعادته ثم أدخلها في جيب جلبابه الفضفاض، وتحسسها من فوق الجيب وكأنما يطمئن أنها استقرت في المكان الصحيح..

- ماذا يجري؟

- ستتعوّد على كل هذا مع مرور الوقت، الناس هنا غيرهم هناك..

كان هاتفه يرن كل بضع ثوانٍ، لكنه لم يكن يرد، ينظر إليه مطولاً قبل أن يغلق صوت الموسيقى..

- اليوم سآخذك معي في جولة..

- إذا كان ذلك المقهى، فأرجو أن تؤجل الأمر قليلاً، جرعةُ الأمس لا يزال طعمها في حلقي..

- لا لا، تلك المقاهي لا تروق لي في النهار، النهار في دبي للعمل فقط..

صمت قليلاً، ارتشف ما بقي في الفنجان دفعةً واحدة ثم أخرج علبة السجائر واستلّ منها بأصابع يده اليسرى سيجارة لم يشعلها..

- سأعرِّفك اليوم على بعض أسواق دبي، نأخذ جولة طويلة نتعرف على الأسعار والمنتجات الجديدة، فرصة لأن ترى البلد، ما رأيك؟

- جيد..

أشعل سيجارته عند باب الفندق وانطلقنا..

في الطريق سألني عن أحوالي، أسرتي وعملي وسبب وجودي في دبي، لم أشأ أن أقول له كل شيء، اكتفيتُ بأنني كنت أعمل في منظمةٍ حكوميةٍ وهمية، في وظيفةٍ صغيرة لا أعباء لها، تفضَّل عليّ بها أحد الأصدقاء، راتبُها يغطي بعض احتياجاتي الشخصية، ليست لدي أية أعباء إضافية، كالزوجة والأولاد وما إلى ذلك من أمور الدنيا المرهقة، أبي متوفي، أمي وأخواتي وبقية العائلة يعيشون في منطقة نائية على الحدود السودانية الإرترية ولدي أخ أصغر يعولهنّ، أقضي يومي في انتظار الذي يليه بكلّ اطمئنان، وإذا جاء فهو عتبةٌ لليوم التالي لا أكثر ولا أقل، استحيْتُ أن أقول له إنني عاطلٌ عن العمل منذ وقتٍ طويل!

- لم تأتِ إلى هنا بحثاً عن عملٍ إذن؟

- ربما، لكن إن وجدته سيكون حالي أفضل..

- يبدو عليك أنك طيبٌ مثل اسمك، للمرء من اسمه نصيب..

- العفو..

شدّ على معصمي بودٍّ..

-لا تقلق، دبي سوق كبير، والسوق كما نقول في السودان «قَدَح النبيّ» واليد التي تمتد إليه لا ترتدّ إلّا بلقمتها، انظر، كلّ هذه المحلات على جانبي الشارع تُسيل اللعاب، لو أنك تبيع تراباً هنا فستكسب من ورائه الملايين، انظر إلى هؤلاء البشر من كل جنسٍ ولون، يملأون جيوبهم في الصباح ثم يفرغونها هنا قبل مغيب الشمس راضين طائعين..

كان الصباح الرطبُ يتنفس بصعوبة من تزاحم الآلاف التي كانت تخرج من الأزقة والأنفاق والأبنية اللامعةِ والسيارات وتسدّ شعاب السوق الضيقة المنظمة، ثم تلتحم جميعها في مساراتٍ منتظمةٍ كإفاضة الحجيج، لكن سرعان ما تبتلعهم المحلات الفاغرة أفواهها مثل حيتانٍ ضخمة، لكلّ جنسٍ من أجناس التجارة سوق، ولكل سوقٍ روادها، بل المدينة كلها سوق كبير يمتص كل شيء في لمح البصر..

- كيف يتفاهم هؤلاء الناس؟

- بكل لغات الدنيا، لكن اللغة الغالبة خليط من كل ذلك، شيء من الإنجليزية وشيء من العربية وقليل من الأوردو ولغاتٍ أخرى..

الأبنية الزجاجية الشاهقة متراصّة بنظامٍ فريد على جوانب الطرقات وكأنها تصطف لتحية الأغراب الذين تضج بهم شوارعها،

كان عباس متحمساً وهو يقرِّبني من معالم المدينة التي لا تحتاج إلى دليل . .

اللافتات واللوحات كانت مغروسة في كل مكان وبكل اللغات، المدخل من هنا، والمخرج من هناك، هذا مخصص لهؤلاء وذاك مخصص لأولئك، اعبُر من هنا لو سمحت واحذَر الوقوف هناك، دوريات للشرطة وأخرى للبلدية وثالثة للمواقف، مدجّجة بكل ما تحتاجه من وسائل الاتصال والتحقق، تراقب كل شيء وتتأكد من كل شيء، كاميرات مثبتة وأخرى جائلة لا تفتر من التحديق والدوران، نظامٌ دقيق لم يترك شاردةً ولا واردةً إلا ونبّه إليها، البدويّ مثلي، تزعجه وحده هذه النظاموفوبيا، هذه الفوضى الصفرية، تخنقه. .

وصلنا إلى ما يشبه رأس جزيرة يحدّها من جهة اليمين بحرٌ ممتد كان الخليج العربي، ومن جهة اليسار خليج صغير بعرض نهرٍ تقريباً يشق المدينة إلى نصفين ويفصل بين ملمحين مختلفين لها، على الجانب المقابل تنتصب أبنية رمادية شاهقة، وعلى الجانب الذي نقف ما يشبه سوقاً أثريةً قديمةً، وتجول بين البرّيْن مراكب مختلفة الأحجام تنقل ناساً وبضائع، مال عليّ عباس ونحن نعود من طريقٍ يأخذنا إلى قلب السوق القديم. .

- هذه كلها دبي القديمة، دبي التاريخية، وتسمى هذه المنطقة التي نقف عليها «منطقة الرأس» وكل ما تراه خلفها يسمونه «ديرة» إلى حدود الشارقة تقريباً، أمّا كل ما يقع خلف هذا الخور يسمونه «بر دبي» وهو على أي حال دبي الجديدة. .

التفتُّ خلفي لأطبع المعالم التي رأيت في ذاكرتي جيداً،

لاحظت تحت الأبنية الشاهقة ما يشبه مبانٍ أثرية على الجانب الآخر، يحفّها سياج من الحصير والجريد وتقوم فوقها أبراجٌ صغيرة مليئة بالثقوب والأخشاب البارزة في جنباتها تشبه كثيراً أبراج الحمام في بلادنا . .

- تلك هي «الشِّنْدغة» حيث كان الشيخ سعيد آل مكتوم يعيش ويدير الإمارة قبل اكتشاف النفط، وهي الآن متحفٌ سنزوره إن شاء الله . .

كنا قد توسطنا سوقاً أثرياً مشيداً من الطوب والأخشاب، نظيفاً ومرتباً، عطستُ أول ما لامست أنفي رائحة التوابل النفاذة التي تملأ الهواء، ضحك عباس . .

- دخلنا «سوق مرشد» . .

متاجر متزاحمة على بعضها، عطور، أحذية، ملابس، إلكترونيات، سجاد، تموينات، توابل، وكل شيء، أخرج عباس من جيبه قائمة طويلة مررنا بها على معظم متاجر السوق، وكلما خرجنا من متجر دوَّن أرقاماً وشطب أخرى، وكان عباس معروفاً لكلّ تجار الجملة الذين ينتمون إلى مشارب مختلفة، يمازحونه أحياناً ويجادلونه في أحايين أخرى حول جودة الأصناف وأسعارها ومنشئها، زنابيل مملوءة بكل أنواع البهارات الهندية الحارة والقرفة الصينية المطوية في لفائف مثل رقائق الجلد كانت تضيّق الممشى النحيل بين المحلّات المتقابلة . .

لاحظت حرص عباس على تقريبي من المدينة أكثر، لكن لم تسعفنا الشمس للتحديق جيداً في وجهها .

(5)

في الأيام والأمسيات التالية، طُفنا تقريباً معظم أسواق دبي ومزاراتها، بعضُ الأسواق التي زرناها كان لغرض الشراء أو التعرف إلى الأسعار والأصناف الجديدة، أما أكثرها فكان لغرض التنزّه، الاقتراب أكثر من تفاصيل دبي..

ثلاثة أسابيع قضيتُها برفقة عباس صعوداً ونزولاً حتى نسيتُ لماذا أنا هنا؟ تحدثتُ معه كثيراً بشأن ذلك، لكنه في كلّ مرة كان يحاول أن يبعد فكرة الوظيفة عن ذهني بجملٍ مبتورة، قاطعة..

- سوق العمل هو النشاز الذي لم يستطع التناغم مع روح دبي، سوق جنسيات بامتياز، السودانيون لم تعد أوضاعهم كما كانت في السابق..

وفي النهاية..

- انسَ هذا الأمر..

ثم حين كنتُ ألحُّ عليه متعللاً بالوقت، كان يقول ما يشبه تداعيات فكرة لم تكتمل ليطرحها..

- لا تقلق بشأن هذا، اصبرْ..

ذات مساء، عدنا إلى الفندق من إحدى جولاتنا ففاجأني بأمرٍ آخر..

- يوجد في الغرفة سريرٌ آخر لا أحتاجه، كما أنني سأسافر آخر الأسبوع، وأجرة الغرفة مدفوعة أصلاً، لِمَ لا تقيم فيها؟

- هذا كثير..

لم يقل شيئاً، ذهب إلى استقبال الفندق وأنهى بنفسه كل شيء، حتى فاتورة غرفتي أضافها إلى غرفته، غرفتنا المشتركة منذ تلك الليلة..

أما أهم جولاتنا المسائية كانت بين مقاهي فريج المُرر، هذه وحدها كانت تستغرقني أكثر من أي شيء آخر، وكما في اليوم الأول كنتُ أضيف إلى قائمة الفتيات فتاةً أخرى، لا تقلّ صخباً، وجهي الغريب، الصامت كان لافتاً، رغم حرصي على مسافةٍ منهنّ منذ أول يوم، وإن ضاقت كثيراً هذا المساء..

الكلمة ذاتها سمعتها في كل المقاهي تقريباً حين ينتبِهْنَ إلى صمتي..

- تشاوش..

فأومئ كالأبله، ويضحك عباس، فتعيد ما قالته بالأمهرية، بألسنةٍ أخرى..

- توَنّس، سُولِف..

وأعود إلى صمتي وتأملي من جديد، من أي طينةٍ هؤلاء الفتيات؟ ولِمَ لا يُشبهن نساءنا؟ هل هذا الغنج مصطنعٌ فرضته ظروف السوق؟ أم أنهنّ معجوناتٌ به خلقة؟ للوهلةِ الأولى تشعرُ أنك أنيسٌ

ومستلطف، وفوق ذلك فحل الرجال، هل تراني أعيد اكتشاف النساء؟

بهرتني فتاة اليوم الأول، ذات الأنف المقوس ثم اكتشفت أن السوق كله على شاكلتها، التقيت بعشراتٍ من بعدها فخالجني شعورٌ بأنني ألتقيها كل يوم في صورٍ مختلفة!..

فتاة اليوم اسمها.... لا يهم، نسيته الآن، بل لم أركز فيه أصلاً بقدر تركيزي على أمورٍ أخرى، تركني عباس في المقهى ثم خرج في شأنٍ له، فاقتربَت مني أكثر..

- ييني كونجو..

عرفت لاحقاً أنها تعني، يا وسيمي، يا جميلي، أو شيئاً من ذلك، وتعجبت لطريقة التعبير التي تمعنُ في الاستحواذ..

جثت على ركبتيها، ثم انحنت أمامي لتضع فنجان القهوة، رأيت الشق الذي يفصل بين نهديها فطار عقلي، ثم تدلّى صدرها الممتلئ يزاحم بعضه على الفتحة الضيقة في أعلى كنزتها السوداء حتى كاد أن يفلت ليقع على حجري، تهيأت لأتلقفه بيديّ، وهي لا تبالي، كأنها تُمعن في ذلك، ارتعشتُ حين رأيته يهتز، كان يحدثني، وبدأت أصغي، بعينيّ وحواسي كلها، ثم قبل أن يُكمل، كانت قد رفعت عينيها في وجهي بنظرةٍ مركّزة لتسدد ضربتها القاضية، تسمّرتُ لبرهة وابتلعتُ ريقي بصعوبة، فابتسَمَت في وجهي وأيقنَتْ أنها نالت مني..

كنت جالساً على وسادة عريضة ومسنداً ظهري إلى الحائط، رافعاً ركبتيّ أمام صدري لأخفي خيبتي، وضعتْ القهوة أمامي ثم

اتكأَتْ بيدها على ركبتي ورمت ثقلها على الحائط إلى جواري والتصقت بي، وفجأة. .

سمعتُ شِعراً سودانياً قُحّاً يصدر من مكانٍ ما، الصوت باردٌ وعميق. .

ليه يا جميل مستعجل؟
صبرك عليّ شويّه،
دابو العسل راق لَيْ،
وأنا ضُقتَ (ذقت) منو شويه،
عسلك حلف من يومو،
يقطّر شويّه، شويّه. .

ضحكَتْ من أعماقها. .

- هذا أنت؟

لم أنتبه لدخوله، إلا وهو واقف أمامنا يقول شعراً بصوته الهادئ العميق، نحيلٌ جداً وطويل، هيكلٌ عظمي في كفنٍ من الجلد، بوجه أمرد لامع، وخدين كئيبين ممصوصين وأنف قائم طويل كماسورة بندقيةٍ مزدوجة، حواجب رفيعة، شارب حليق، وشعرٍ فضي ناعم مصفف إلى الوراء حتى أكتافه بزيتٍ لزج، بنطاله البيج لم يكن ملبوساً، بل كان مربوطاً تحت صدره بحزام بُني رفيع، وقد حشر فيه قميصاً أزرق واسعاً وربطة عنق حمراء قانية لم تتجاوز منتصف صدره، عريضة كلسان بقرة. .

عمره بين الثامنة والأربعين والخمسين تقريباً، هكذا قدّرت، كل

ما فيه كان ميتاً أو يكاد إلا عيناه الواسعتان، كانتا رائقتين، حيّتين إلى درجة مخيفة، نظراتهما واثقة، محيطة، حينما نظر في عينيّ - النظرة الوحيدة التي رمقني بها- خلتُ كأنه سينطق باسمي، وقد كانت تفاحة آدم تصعد وتهبط في حلقه بقلق، ضم دفتراً كان بين يديه إلى صدره..

- آآآآي أنا، أتاك الموت يا تارك الصلاة!

ضحكَتْ الفتاة مجدداً بينما كنتُ مرعوباً، لم يكترث، لم ينظر إليّ، تقدم خطوتين حذرتين..

- ثلاثة أشهر وأنا أبحث عنك حبيبتي، وأنت مختبئةٌ هنا في هذا المقهى، لماذا لم يخطر ببالي أنك هنا؟

ضحكَتْ من أنفها ضحكة قصيرة..

- وعدْتني بالزواج في المرة السابقة ولم تفِ بوعدك، هل تذكر؟

كان ينظر في عينيها بودٍّ، وخبا ذلك التربّص الذي كان يلمع في عينيه مع استرسالها في الحديث بغنجٍ أكثر..

- لم تعد تحبّني كما كنت، عرفتُ أنك تحب «حياة» وتريد الزواج منها..

قال بتوسل..

- من قال هذا؟ أنتِ حبيبتي!

- لم تعد تكتبُ فيّ شعراً..

جلس، فتح الدفتر الذي كان بين يديه بهدوء، قلّبَ صفحاته

واحدةً تلو الأخرى، قرأ لها عناوين لقصائد قال إنه كتبها من أجلها . .

دموع الفراق،

زمن البكاء،

الوردة الأنيقة،

بحر الأشواق،

نهر الفرح،

دكّان الحب!

تيقّنتُ الآن بأنه مجنون، فقلتُ لها أن تأتيه بشيء يشربه، طلب شاياً بالقرفة ثم اختار قصيدةً طويلة وقرأها عليّ ريثما تعود، استلطفته جداً . .

- هذه قصيدة جديدة كتبتها بالأمس، هل أعجبتك؟

- رائعة جداً، أنت فعلاً شاعر كبير . .

ارتاح كثيراً لهذا الإطراء وتمدد في جلسته جيّداً إلى أن جاءته بالشاي، فشرب كما يشرب الماء البارد ثم وضع الكوب الفارغ يتصاعد منه الدخان . .

- أنا والله خسارة في هذا السوق!

قال ذلك وهو يقلّبُ دفتره العجيب، ثم . . «شيييييط» قطع منه ورقةً طبّقها جيداً وسلّمها لي، وضعتُها في جيبي برفق وأنا أبتسم، تذكرتُ شيئاً، أخرجتُ من جيبي بعض النقود وحشرتها في جيبه، فرح ثم انتصب واقفاً . .

- اليوم تركتُها من أجلك يا دكتور، لكنّ حسابي معها لاحقاً. . لا أعرف من أين أتى بهذه الصفة؟

- شكراً لذوقك على أي حال. .

بدأت الفتاة ضحكةً لم تكتمل، خنقها دخان الأرجيلة فسعلتْ بعض الوقت حتى خرجت الكلمات من حلقِها متقطعة. .

- سأتصل بك في المساء. . . بعد العاشرة. . . . انتظرني، إشّي[1]؟

- إشّي، إشي ييني كونجو!

ثم همّ بالمغادرة، مشى خطوتين ثم التفتَ إليّ بحدّة. .

- احترس، هؤلاء الأحباش داء عضال، إذا نخروا عظامك فلن تشفى منهم. .

- إشّي. .

ضحكنا وغادر دون ضوضاء، كما جاء. .

قالت وهي تنظر أمامها دون هدف. .

- اسمه «مجنون ليلى». .

فخفق قلبي. .

(1) إشي: حسناً.

(6)

في الصباح وعلى الإفطار سألني عباس، ودون أن ينظر في وجهي..

- من هي ليلى؟

كدتُ أشرق بالماء والكأس على فمي، وكأنما ألقى فيها حجراً..

- لا أعرف، أين سمعت بها؟

- كنت تهذي بها أثناء نومك..

- أنا؟ وبم كنت أهذي أيضاً؟

- لا أذكر، كلام كثير وغير مترابط..

- لا أعرف، ربما خترفة نائم..

قلقتُ أكثر، ماذا سمع يا تُرى؟ لم يقل شيئاً..

فرغْنا من إفطارنا سريعاً، استلّ سيجارته من علبة دنهيل مليئة..

- هيا بنا، لدينا الكثير لنقوم به اليوم..

كنت شارداً طوال الجولة، لم أتمكن من طبع معالم الأمكنة والأسواق التي زرناها في ذاكرتي جيّداً كما هي عادتي دائماً، وهو

أيضاً لم يكن يتكلم، حتى حين طلب جواز سفري سلمته إياه دون إرادة، ثم أخذني إلى محل للتصوير فجلستُ أمام الكاميرا بوجهٍ لم يكن لي، طبع كثيراً من الأوراق وطلب توقيعي، فوقعتُ دون أن أقرأ حرفاً واحداً مما وقعت عليه، ثم جمع كل ذلك وذهبنا إلى مشفىً وصفه لنا موظف الطباعة، فأجريت فحوصاً عديدة، ثم سلمني الموظف ورقة صغيرة سلمتها بدوري لعباس، أخبرنا بعدها أنه سيتم الاتصال بنا حين تنتهي بعض الإجراءات ونتسلم جواز السفر وعليه الإقامة..

فعلت كل ذلك بإرادةٍ غائبة، دون أن أسأل لماذا؟ أو ما هذا؟ وكيف ذلك؟ مثل طفلٍ يأخذه أبوه ويقيّده في المدرسة، وكان عباس صامتاً أيضاً!

عدنا من جولتنا آخر النهار خائريْ القوى، جلسنا في اللوبي، طلبتُ جوافة بالحليب، وطلب عباس عصير مانجو مثلّج، ارتشف قليلاً منه ثم التفت إلي..

- تعرف؟ ولدتُ في هذه الحياة وحيداً دون إخوة، دون أقارب، في قرية صغيرة داخل مشروع الجزيرة الزراعي، ماتت أمي وبعدها أبي، ترك لي منزلاً وثلاثين فداناً من الأرض، وخمس بقرات، وسيارة نصف نقل، وصديق..

هذا الأخير كان أفضل من كل ما تركه أبي، عوّضني عن يُتمي وعن حرماني من دفء العائلة، وكذلك عن جهلي بتصريف أمور الزراعة والبيع والشراء لحين بلوغي مبلغ الرجال، تنفيذاً لوصية أبي، إذ لم يكن لدي أهل أو أقارب..

ما أذكره من أبي أنه أخبرني مرة أن أباه -الذي هو جدي- جيء به رقيقاً من قريةٍ نائية في دارفور على الحدود مع تشاد وهو طفل لا يذكر شيئاً من أهله أو ماضيه إلا أشياء متفرقة، باهتة، كبُر وهو يعمل في هذه الأرض التي ورثها أبي فيما بعد عن سيده وكان اسمه مبارك، وكانت جدتي أيضاً أمةً لديه، عاشا في خدمة هذا الرجل وتزوجا وأنجبا أبي وعمتي حليمة التي ماتت صبيةً بحمى ملاريا ذات خريف..

في سنةٍ ما، أعتق مبارك جدي وجدتي وخيّرهما بين البقاء أو الذهاب إلى أي مكانٍ يشاءان، لكنهما آثرا البقاء في الأرض التي لا يعرفان غيرها إلى أن توفيا، وبقي أبي في كنف سيده السابق وأبيه اللاحق مبارك الذي لم يكن له أبناء، أحب أبي مثل ابنه، ربّاه وزوّجه وجعله أميناً على كل شيء..

استخرج له أوراقاً رسمية وأضافه إلى اسمه حتى يستطيع أن يرثه، وهو ما حدث بالفعل، توفي مبارك وترك لأبي كل ما ورثته أنا بعد ذلك بما فيه اسم العائلة الذي أحمله إلى اليوم «عباس مبارك»..

جاء أقارب لمبارك بعد وفاته يطلبون نصيبهم في الميراث، لكن صديق أبي الذي ذكَرته لك هو مَن وقف لهم، ذكّرهم بكلّ ماضيهم السيئ مع مبارك، حين رفضوا تزويجه، وحين حاصره الدائنون وناصروهم، وحين ادّعوا عليه الاستيلاء على أرضهم بالباطل، وحين قاطعوه لمّا أعتق مواليه وعاملهم معاملة الأخ والابن، فاستحوا من أنفسهم ولم يعودوا مرةً أخرى..

للمصادفة العجيبة كان اسمه الطيب مثل اسمك تماماً، ضمّني

إلى عائلته، عشتُ بين أبنائه وبناته كواحدٍ منهم، وبلغتُ مبلغ الرجال وسلمني تركة أبي بأصولها وأرباحها كاملة، دون أن يقتطع منها مليماً واحداً صرفه على أكلي وشربي وملبسي وعلاجي وتعليمي طوال حياتي، ثم زوّجني من إحدى بناته دون أن أدفع مهراً أو أي شيء آخر، قال لي يوماً «أبوك كان صديقي، والصداقة عند الكرام أعظم من رابطة الدم». .

صمت قليلاً، شرب ما بقي في كوبه. .

- يشهد الله، لا أعرف عنك شيئاً، ولم أراك قبل الآن، لكن لأجل اسمك، اسمك وحده الذي يذكرني بذلك الرجل الطيب فعلت ما فعلت، ولك أن تكون الشخص الذي تريد، سأضع في عاتقك أمانة وأتمنى أن تكون على قدرها، وبيني وبينك رب العالمين. .

كان كلاماً ثقيلاً لم أسمعه من أحدٍ من قبل، ولم أكن أتوقع أن يُدخلني هذا الرجل في امتحانٍ كهذا، لكن لم يكن لدي مفرٌّ آخر من قبول حسن الظنّ المفرط هذا، أو العودة خائباً، فقبلت. .

- لن أكون إلا كما تحب، لن أزيد على ذلك، أما الأمور الأخرى ستأتي مع الوقت. .

تمنيتُ أن أقول شيئاً آخر، لكنني لم أقل، صعدنا إلى غرفتنا، وفي المصعد أخبرني بأنه سيرسل لي قائمة بالأصناف المطلوبة بين وقتٍ وآخر، أشتري وأشحن، ولي الثلث من الربح وله الثلثان. .

- لا أكترث كثيراً بهذه الأرقام، يهمني أن أكون عند حسن ظنك. .

في المساء، أخبرني أنه سيأخذني إلى مقهىً هادئٍ يمكنني إذا

أحببتُ أن أتردّد عليه، أخبرني أنه تديره أمهرية وقورة، ليس لها في كثيرٍ ممّا تعجّ به المقاهي الأخرى، ولا يرتاده إلا القليل من الناس بسبب ذلك، وهو كما قال لي أول مقهى عرفه في دبي، راقت لي الفكرة وبدّدت قلقي بشأن ما يحدث كل مرة..

دخلنا، واستقبلتنا صاحبة المقهى ببشاشةٍ زائدة، قال لي عباس..

- اسمها سارا..

أربعينية تقريباً، لا يزال في وجهها بقية من جمال، عينان واسعتان قليلاً، يحيط بهما جفنان مجعّدان، أنف دقيق قائم، وشفاه رقيقة مطبقة عليها طلاء شفاهٍ أحمر، نصفها العلوي نحيل يقوم فوق حوضٍ وأردافٍ ضخمة، تضع يديها معقوفتين فوق خصرها حين تقف..

كان خالياً تقريباً إلا من مواطنٍ إماراتي في نحو الخمسين أو يقلُّ قليلاً، عرفته من ثوبه وغترته الحمراء المعصوبة على رأسه الصغير، لا هو بالبدين ولا النحيف، وجهه أمرد، رسم الزمن خطين طويلين حول فمه الواسع، غليظ الشفاه، عريض الكفوف ومقوس الساقين ومفلطح القدمين..

المقهى واسعٌ وأنيق، صُممت جدرانه وأسقفه المستعارة على شكل كهف أو مغارة جبلية متعرجة الباطن، عُلقت عليها بعنايةٍ وذوق بعض الصور واللوحات التي تعكس شيئاً من مظاهر الحضارة الأثيوبية الحبشية الضاربة في القدم وكذلك تباين الوجوه والثقافات في ذلك البلد الأفريقي الذي لا يُعرف عنه إلا القليل، المتعلق بالحروب والجوع والفقر والإيدز، لكن تلك قصة أخرى..

ربما بمحض الصدفة، كان مقعدي بين لوحتين، خلفي وعلى الحائط الذي أتكئ عليه، صورة كبيرة للإمبراطور الأثيوبي الأشهر هيلاسيلاسي في بزّته العسكرية، وهو الذي يدين له الكثير من الأمهرا بعزٍّ أفَل، خاصة بعد استقلال إرتريا وزحف ثورات الأقليات والمهمشين في أثيوبيا ذاتها، وأمامي على الحائط المقابل لوحة زيتية مرسومة على رقٍّ من الجلد لامرأة من قومية التيقري المنتشرة في سهول إرتريا والسودان، ربما بدافع التذكير بأمجاد الحبشة الغابر، ترتدي ثوباً أحمر يلف جسمها بالكامل ولا يكاد يظهر من وجهها إلا القليل، على جبهتها خصلتان مجدولتان، وملفوفتان بدقة وعناية، تتدليان من تحت ثوبها أعلى الجبهة، ثم تفترقان إلى الأسفل يميناً ويساراً وتشكلان ما يشبه الرقم ثمانية على جبهتها، أعلاها عند منبت شعر الرأس وطرفاها يمرّان فوق الحاجب ثم يختفيان مرة أخرى تحت الثوب حيث يلتفان على الأذنين، معصماها مليئان بأساور عاجية ملونة، ويداها تمسكان بطبلٍ أفريقي أعرفه..

أما مقاعد المقهى الصغيرة وطاولاته المتناثرة فمن خشب الأبنوس الأفريقي، يتناغم لونها مع لون القهوة العجيب وإبريقها الطيني الذي يميل إلى السواد، ويملأ الفراغ من حولنا صوت موسيقى مزمور دافئة، فألفت روحي المكان، عندما خرجت نظرتُ إلى اللافتة المثبتة فوق الباب، كان مكتوباً عليها «مقهى الزمن»..

(7)

كاد الصيف أن ينقضي، وقد تركني عباس وصيّاً على غرفته وعمله وأحباشه وأشياء أخرى، شعرت بالوحشة، تذكّرتُ صديقي حسن الذي لم أكلمه منذ مجيئي، اتصلت به لأخبره بكل ما جرى خلال الأشهر الثلاثة الماضية، فرح كثيراً من أجلي، ونسي أن يعاتبني على انقطاعي الطويل وأنا الذي وعدته أن أوافيه بأخباري لحظةً بلحظة، ولم أفعل، حسن من النوع الذي لا يلوم أبداً، ما يشجعني على التقصير في حقه دائماً، وكان صوته يأتيني من لحظةٍ بعيدة. .

- انسَ ما تركت وراءك، من يدري لعلّ الأقدار وفّرتك لميلادٍ جديد. .

لا بأس، دبي مدينة لا تنتبه كثيراً إلى الأغراب، إلى أسمائهم، أنسابهم، بقدر ما ينتبهون هُم لحضورها، إذا لم تكن غريباً، وحيداً فإنك قد لا تعنيها كثيراً. .

في ذلك اليوم الصيفيّ القائظ، عدتُ آخر النهار من جولةٍ طويلةٍ شملت المدينة من كعوبها إلى مناكبها أتابع بعض شأنٍ تركه عباس، إلى أن انتهت بي في ميناء جبل علي، على الطرف الآخر من المدينة. .

عدتُ وقد دهمتني حمى غريبة، دقت عظامي، وألهبت أنفاسي حتى خلتُ أن في جوفي فرناً يقدح باللهب، لجأتُ إلى قعر حائطٍ قريب ألتقط أنفاسي، ملابسي مبتلةٌ بالعرق، وجسدي ثقيل، تحاملت على قدميّ ومشيتُ بمحاذاة الحائط متكئاً عليه تارةً وعلى قواي الخائرة تارةً أخرى ريثما يرحمني سائق تاكسي في هذا الطقس الرديء..

سائقو التاكسيات في دبي غير منسجمين بالمرة مع صورتها الجذابة التي بهرتني، أجدهم دائماً قليلي الذوق مع قاع المدينة ومرتاديه، يفرون منهم كما يفرّ الصحيح من المجذوم، يُنزل السائق زجاج النافذة قليلاً، مقدار شبرٍ أو أقل ليسألني، ثم يطلق العنان لدابته الناعمة لا يلوي على شيء، حتى وجدتُ أحدهم بعد عناء، لم أخبره بوجهتي قبل أن أجلس متوهّطاً على المقعد الخلفي، وقد نسي أيضاً أن يغلق أبواب سيارته كما كان يفعل غيره زهاء الساعتين، سار بي هذا المسكين الذي وقع في يدي، يتأفف من زحام السيارات..

- الطريق إلى ديرة مزدحم دائماً، كثير من الوقت قليل من المال، لو أنني الآن في مكانٍ آخر لكان حالي أفضل..

أغضبني..

- أنا أدفع لك أيضاً، مثلهم تماماً..

- المشوار إلى فريج المُرر يستغرق زهاء ساعتين، ثم الحصيلة لا تساوي كل هذا التعب..

- هل ينبغي عليّ تغيير وجهتي مثلاً؟

نظر إليّ في المرآة التي أمامه، ثم قال بلؤم وهو يهز رأسه:

- هذه ليست مشكلتي!

- الزحام ليس مشكلتي أيضاً، لستُ من يصنعه..

ضغط على دواسة البنزين حين تحولت شارة المرور إلى اللون الأخضر، وقاد سيارته بعصبية زائدة في وسط الزحام الخانق حتى أصبت بالدوار، رماني على باب الفندق كما لو أنه تخلص من عبءٍ وانطلق، أصدرت عجلات سيارته صفيراً حاداً وهي تسحق الإسفلت بغضب..

دخلت غرفتي منهكاً، مكدوداً، تناولتُ حبّتيْ **بنادول**، أطفأتُ كل شيء وارتميت على السرير..

لا أعرف كم لبثت، ساعة أو ساعتين أو أكثر، أفقت على طنينٍ يصم أذنيّ، ووجعٍ في عظامي وبردٍ يهزّ دخيلتي ودوارٍ في رأسي وكأن السرير يدور بي حولي، حتى غابت عني جغرافيا الغرفة، لم أعُد أعرف أيّ اتجاه فيها..

بدأت تدهمني إغماءةٌ أخرى مع عودة نوبة الحمى وصعودِها إلى رأسي، بين الغفوة والانتباه، كما لو كنتُ أحلم، عارياً في صحراء صفراء ممتدة، وهارباً من شيء بعيد، متتبعاً أثراً بين الرمال، يبين ويختفي، يصعد على تلة ويهبط من أخرى، الريح صاخبة، صفير يتصاعد، يخفت، أعاصير صغيرة تنبتُ فجأة ثم تختفي، نداء بعيد، ألتفت، لا شيء، جبال بعيدة تقترب، تطبق عليّ يميناً وشمالاً، تصبح الأرض وعرةً تحتي، ويصبح الطريق بين الجبال ضيّقاً نحيلاً كنفق، ثمة شجيرات في آخر الطريق، صوت طيور بعيدة، رقرقة ماء صافية في أذني، ثم هدير، ظمأ شديد في حلقي، ثم جلبة تقترب،

أصوات ناس كأنهم في سوق، شبح امرأة، رجل، سكين، دماء، تقترب الجلبة أكثر، تتصاعد، ألم في ذراعي، ظهري، صوتها، ضائعاً مبحوحاً، صراخ، صراخ، صراخ، وأفقتُ جالساً أصرخ، جفاف في حلقي، ثقل في رأسي، ضيق في صدري، ونار تشبّ في بدني وأنا ألهث..

لا تزال جغرافيا الغرفة تائهة في ذهني، عتمة، دوار، صداع، بالكاد أمسكت بأطراف السرير ثم انزلقت نحو الأرض، أتحسسُ بيدي الأشياء من حولي، زحفتُ على ركبتي اصطدم رأسي بشيء صلب، لمسته بيدي، الحائط، أسندتُ ظهري إليه، أخذت نفساً عميقاً ثم بدأت من جديد..

طاولة صغيرة، تحسستُ سطحها، كوب فارغ، دفتر صغير، قلم، وهاتف، فكرتُ في الاتصال بالاستقبال ثم غيرتُ رأيي، خمنتُ من مكاني موقع البراد، زحفتُ من جديد، باب، تمطيت قليلاً، أكرة بقبضة اليد، باب الحمام، درتُ نحو اليسار، ثمة أبواب متلاصقة، الخزانة، مررتُ عليها لمساً، ثم فراغ، باب آخر، أزيز خافت، البراد، وصلته بالفعل، فتحت الباب، فأضاء نوره الداخلي فضاء الغرفة، بدت لي كما لو كانت شيئاً معلقاً بين الأرض والسماء..

وقفت على ركبتي وتناولت قارورة ماء كبيرة، شربتُ، كع كع كع، نصفها انسكب على صدري، شعرتُ براحة، قارورة أخرى، وثالثة أفرغتهما على جسدي، شعرتُ ببرودةٍ تدبّ فيه، زحفتُ مرةً أخرى نحو السرير، صعدت، قشعريرة، رجفة، سحبتُ الغطاء، ثم نمت أو أغمي عليّ من جديد، لا أذكر الآن بالضبط..

الفصلُ الثاني

الفتاةُ الأرجوانيّة

«هذا السوق هو الجامعة التي نتخرج فيها،
وكل ما قبلها هو مجردُ مقدّمات!»

- إيلْسا -

(1)

لا أذكر الآن، يوم، يومان؟ ألمٌ في كل مكان، رأسي، صدري، ظهري، أطرافي، جوعٌ، فراغٌ في معدتي، قرقرة والتواءات في أمعائي، تعب يفتّ في جسدي كأن أحداً أخرجني من تحت أنقاض..

أسبوع آخر ريثما وقفتُ على رجليّ، بشهيةٍ فاترة وتوازنٍ مضطرب، قادني بصعوبة إلى مقهى الزمن..

والآن هذه الفتاة تبتسم في وجهي مثل الجيوكوندا، بشفاهٍ أرجوانيةٍ طازجة، وكأنها تحسّ بجوعي، بشحوبي..

كانت ترتدي كنزةً أرجوانية عارية الكتفين، مفتوحة الصدر تبرز شقّ نهديها مثل أخدودٍ عظيم، وبنطالاً محزقاً يلتصق بأوراكها وساقيها الطويلتين، الحذاء الأرجواني ذو الكعب العالي جعلها تبدو أطول مما ينبغي، أقرب إلى نخلةٍ منها إلى امرأة، يتهدل فوق رأسها البعيد شعرها المجعّد الملفوف مثل غيمةٍ داكنة، كانت تتدلى من معصمها الأيمن أسوارة عاجية أرجوانية أيضاً، وعلى كتفها حقيبة جلدية مطعّمة في وسطها بحباتٍ من الخرز ومحلاة في أطرافها بشريط باللون الرومانسي العجيب ذاته، لقد كانت أرجوانية في كل شيء..

لا تزال شهيةً، صاخبة، كما لفحني عطرها أول ما دَخَلَتْ، ولولا أننا وحدنا في المقهى لقلتُ إنها تبتسم لشخصٍ آخر..

كانت في الحقيقة المرة الثالثة التي أراها فيها، وفي المقهى نفسه، وفي المرتين الفائتتين - قبل أسبوع نوبة الحمى- كما الآن، تأتي بعد وصولي إلى المقهى بقليل وتجلس في المكان ذاته قبالتي وتبتسم، ثم يرنّ هاتفها وتغادر، وكانت صاحبة المقهى تناديها بـ «إيلسا»..

رنّ هاتفها الآن، نظرتْ إليه وأعادته إلى حقيبتها، ثم عادت إليّ بعينين غارقتين في التربص..

- ممكن تعزمني شيشة؟

- تفضلي..

جاءتها النادلة بأرجيلة وراحت تدخِّنها بمهل، ظللتُ لبرهةٍ أتأملها، جميلة دون أدنى شك، وجهها طويل ينتهي بحنكٍ مشقوق، خداها أسيلان ممتلئان وعيناها ناعستان يتدلّى سوادهما من تحت جفنيهما، الماكياج الأرجواني الذي تضعه على شفتيها وخديها شحن وجهها بحنينٍ طاغٍ، وشيء من الغرور..

قامت من مكانها فجأةً كما تقوم النوافير، ثم اقتربت بحذرٍ لتشاركني الطاولة، جلسَتْ على المقعد المقابل، يسبقها عطرُها وكأنما يستأذن لها..

وضعت رجلاً على أخرى، حتى كاد وركها أن ينفصل عن جسدها، ونظرت إليّ بثقة المنتصر..

- اسمي إيلسا..

- أهلاً وسهلاً، اسمي الطيب..

ابتسمتْ مجدداً، طلبتُ قهوةً أخرى أضيّفُها، جمعت النادلة أواني القهوة من أمامي وانصرفت لتأتي بأخرى، بينما عابثني فمها الأرجواني المضموم، قوامها المدفون في المقعد، ذلك الأخدود على صدرها..

- زائرٌ أم مقيم؟

- كنت زائراً وتبدّلت إلى مقيم منذ أشهرٍ قليلة..

- أين تعمل؟

- في التجارة..

ابتسمتْ..

- ألستَ طبيباً؟

ضحكتُ..

- من قال ذلك؟

- وكأني سمعت أحدهم يقول إنك دكتور، أو يناديك بذلك، لستُ متأكدة..

- صحيح أنني أضع نظارةً طبيةً كما يفعل أغلب الأطباء، لكن ليس كلُّ من ارتدى جُبّةً، قاضياً..

- لو أنك قلتَ إنك طبيب كنتُ سأصدقك على أي حال، في فريج المُرر، الانطباع الأول هو دائماً الصورة النهائية..

لم أقل شيئاً، ألمٌ مستحكمٌ في صدري كان يجعلني أتنفس بصعوبة، مع دوارٍ خفيف في رأسي، وخدر يدبّ في أطرافي، تمنيت لو كنت طبيباً بالفعل، لكنتُ وجدتُ حلاً..

أعطتني رقم هاتفها فسجلتُه، وطلبتْ مني أن أطلبها على هاتفها ففعلت، ثم جاءت القهوة وبدأت الأنخاب من جديد، لكنّ طعم الحمى في فمي لا يزال غالباً، بدل طعمها إلى شيء آخر، أقرب إلى دواءٍ مرٍّ منها إلى قهوة، وكنت أتجرّع فقط..

أخرجت من حقيبتها أسطوانة وطلبت من النادلة أن تشغلها على المسجلة، كانت لمطربٍ شاب ذي صوتٍ جميل، فعرفتني عليه..

- هذا تيدي آفرو، أحبه جداً..

- حمقاء!

قلتُ بصوتٍ خفيض، لكنها سمعتني، أزاحت خصلةً كانت تتدلى فوق حاجبها الأيمن، ضيّقت عينيها قليلاً..

- أنا؟

- نعم، وهل يحبك؟

صمتت قليلاً، ابتسمت، ثم ضحِكَت رافعةً رأسها إلى الوراء حتى بان سقفُ حلقِها القرمزي وانتظامُ أسنانها البيضاء الناصعة إلى آخر ضرسٍ فيها..

- أنت لا تخلو من المرح رغم صرامة وجهك..

كانت تودّ أن تجعل اللحظة حيّة، منسجمة قدر الإمكان مع صخب عطرها وحضورها الأرجواني المتوهّج، حاولتُ مجاراتها، لكنني لم أكن قادراً على ما هو أبعد من ذلك، صداع خفيف خلف عيني اليسرى بدأ كالوخز، ثم تصاعد، نظرتْ إليّ مجدداً، وتابعتْ بشيء من الجدة..

- تيدي آفرو مطربٌ محبوب، لأنه مثلنا، يحنّ -أبداً- إلى الماضي، ولو أنك تفهم ما يقول لأصبحت أحمق أيضاً!

ضحكتُ، فتابعت..

- لكنه سجينٌ الآن!

- والحنين إلى الماضي في بلادكم، تهمة؟

- وأكثر من ذلك، حلمٌ أيضاً!

أزلتُ النظارة عن وجهي برفق، ثم فركتُ عينيّ بأطراف أصابعي، ثم بباطن كفي، فراغ في جمجمتي يتردد فيه صوتُ الطبل بعنف، كانت أغنية ريقي إيقاعها ملتهبٌ يرزمُ في رأسي دُم دُم دُم، فهمتُ منها كلمة هيلاسيلاسي وهي تتكرر في نهاية كل مقطع، التفتُّ بصعوبة إلى صورته خلف رأسي، نظرتُ إليها بعينٍ واحدة..

- هل لا يزال في أثيوبيا من يذكر هذا الرجل بالخير بعد كل ما جرى؟

صمتتْ، تتأمل الصورة بعض الوقت..

- وماذا جرى؟ أيامه كانت رخيةً هانئة، لم ولن تعرف أثيوبيا، بل أفريقيا كلها، مثلها مجدداً..

لم أعلق، الفراغ في جمجمتي يتَّسع أكثر، وصوت الموسيقى الصاخب يتمدد فيه، يرزم بعنف، وضعتُ وجهي بين كفّي، خيوط متشابكة تسبح في ظلامٍ مطبق..

- هل تشكو من شيء؟

فتحت عيني بصعوبة، حتى أخذت صورتُها وقتاً ريثما تكتمل..

- لا شيء، صداع خفيف. .

فتحتْ حقيبتها، أخرجت بأطراف أصابعها حبتي بنادول، مدّت معهما قارورة الماء، مددتُ يدي لأدفع يدها معتذراً، لمستُها، شعرتُ بصعقة وكأنني وضعت يدي على قطعةٍ من الثلج. .

- سأكون بخير، شكراً لك. .

وضعتْ كفها البارد على جبهتي، فسرت فيّ رعشة، لو قُدر لأي شخص أن يدرك دبيب الروح في الجسد للمرة الأولى لعرف ما شعرتُ به. .

- كان زمن هيلاسيلاسي غيره الآن، قد لا تصدق أن بعض العرب كانوا يأتون إلى بلادنا، يعملون تجاراً وحمّالين!

- حمالين؟

- قالت لي جدتي مرة «كنا نذهب إلى السوق ونشتري أغراضنا ثم ننادي. . عرب. . عرب. . عرب. . فيتسابقون لحملها، بمآزرهم الملونة وعمائمهم الحمراء المعصوبة على رؤوسهم»!

ضحِكتُ لتلك المفارقة، من أنفي، دون أن أنظر إليها، فتابعتْ بمرح. .

- جدتي الآن في حدود التسعين تقريباً، ولو أنها تعلم الآن أنني أعملُ في بلدٍ عربي لضربَتْ كفاً بكف، ولربما جرّتني من شعري لتعيدني إلى تلك الحقبة، التي لا توجد إلا في ذاكرتها المجعّدة. .

ضحكنا مجدداً، ثم حدثتني بلهجة العارف عن بلدها حديثاً كثيراً، لم أكن في كامل انتباهي، مشوشاً فاقد التركيز، استبدّ بي

نعاسٌ مفاجئ ورغبة في الاسترخاء، فاستأذنتُ منها لأغادر، فخرجت في إثري..

- أين تقيم؟

فوصفتُ لها الفندق، فعرفته..

- يا للصدفة الرائعة، أنا أيضاً ذاهبة إلى هناك، هل تمانع إن رافقتك؟

- ...؟

- يوجد مقهى، في الطابق الأخير، تنتظرني صديقة هناك..

مشيتُ في حضورها الأرجواني، حتى عبرنا أزقة السوق كلها، وكان الناس ينظرون إليّ بحقدٍ، بإعجاب، باستهجان، لا أعرف، لكنني كنتُ خجلاً..

وصلنا الفندق، نزلْتُ قبلها من المصعد عندما رنّ جرسه عند الطابق الأول، فودّعتني بنظرة لا أعرف كيف أصفها!

كانت مشحونة باحتمالات عديدة، ثم تركَتْ عطرها في أنفي، ومضى بها المصعد..

(2)

جلستُ مقدار ما يكفي لوصولها كما كانت تفعل في كل مرة، لكنها لم تأتِ، صوتُ تيدي آفرو لا يزال يشتعل في المقهى كما لو كان ينبع من لحظةٍ بعيدة، أرجوانية اللون، صاخبة العطر، وغامضة..

بعد تلك الليلة التقينا مراتٍ عديدة في هذا المقهى، لكن دون أن تضيق المسافة كثيراً كما تمنّيت، كان حديثنا كله حول الحبشة، بعض ما كنت أراه وأسمعه في هذا السوق كنت أحدِّثها بشأنه، وكانت تعجبني طريقتها في تفسير الأمور، مختلفة جداً ومثيرة للتأمل، خاصة تلك المشاجرة التي قامت في المقهى فجأةً مثل إعصارٍ صغير، ثم انتهت..

ذلك الإماراتي الخمسيني الذي التقيته أول يوم، كان وحده في المكان، في ركنه القصي، يتحدث حديثاً هامساً مطولاً على هاتفه الجوال، لم ينتبه إلى دخولي حتى جاءته النادلة بصينية القهوة والأرجيلة المذهبة، فرفع رأسه وانتبه لوجودي، أنهى حديثه على الهاتف مباشرةً..

- أهلاً بالزول، والله حماتك تحبك..

رحَّب بي بشهامة البدوي، فشاركته قهوته، دائماً أجده وحيداً في هذا المقهى، نتبادل شذراً من الحديث دون أن يسأل أيّ منا الآخر عن اسمه أو عمله، لكنه -كما لاحظت- خفيف الظل، كثير المزاح خاصةً مع صاحبة المقهى البخيلة سارا، وكذلك حاله مع بعض رواده من الفتيات، مغرمٌ بكرة القدم ويشجع أهلي دبي بعصبيةٍ زائدة، ذات ليلة انهزم فريقه في مباراةٍ محلية فلم يدفع ثمن القهوة والأرجيلة إلا بعد أيامٍ طويلة..

- أنا اسمي حمد المُرّي..

- تشرفنا يا شيخ حمد، أنا الطيب..

- أنا أحب السودان والسودانيين، تعلقتُ بهم مذ كُنتُ طفلاً، بسبب مدرسٍ اسمه الماحي، لا أعرف الآن أين هو.. كان مدرساً فريداً حبَّبني باللغة الإنجليزية، كان يتحدث بها كأهلها، إن كان قد مات فليرحمه الله..

ثم حدثني كثيراً عن أطباء وقضاة ومهندسين وإعلاميين أسهموا في نهضة دبي وبعض الإمارات الأخرى..

حسبتُ كلّ ذلك من لطف الرجل حتى تألف الأرواح بعضها، لم أسترسل معه كثيراً في أسمائهم وصنائعهم، فالإمارات كسائر دول الخليج لا بدّ لها أن تستعين على وحشة الصحراء وقسوتها ببعض أهل الدراية والسبق في عمارة المدن وطرائق العيش، حتى وإن اختُزل تاريخهم وعطاؤهم -لاحقاً- في كلمة «وافد» التي لا قبلها ولا بعدها..

حديث المُري وغيره -وإن جاء في سياق المجاملة- قد يخفف

من وطأة ذلك التغريب التي تشملهم بها وسائل الإعلام الضخمة، ولو عاشوا بين أهلها عقوداً طويلة..

شربنا قهوتنا على مثل هذه الأحاديث، ثم أقسم عليّ أن أشاركه العشاء أيضاً، في مطعمٍ شعبي قريب فأذعنت، لكن ما أن فتحنا باب المقهى حتى فاجأنا عطرُها، تسمّر المرّي في مكانه مُطلقاً صفيراً خافتاً، بطريقة مازحة..

- إذن، أنت مدعوة إلى العشاء معنا الليلة ولن تقولي شيئاً..

قال ذلك، ثم أغلق باب المقهى خلفه، حاولَتْ أن تعتذر..

- شكراً، سأنتظر أحداً هنا وأخشى أن أتأخر..

أمسك بمعصمها وجرّها في الطريق إلى الخارج..

- مَنَّوْ كُوي ألّيش[1]؟ هذا هو الزول ذاهبٌ معنا الآن..

ضحكتْ خجلى..

- شيقِّر يِلّم[2]..

ضحكتُ أيضاً، سِرْنا في طريق ضيقة شبه مظلمة إلا من أضواء لافتاتٍ باهتة فوق بعض المحال المغلقة، كنت أسير بينهما هي على يساري وهو على يميني، كان يتحدث طول الوقت عن فريج المُرر بشجن، أسماء الطرقات التي تبدّلت، أصحاب البنايات الذين باعوا إرثهم، المحلات، الأراضي الفضاء القليلة التي تستخدم كمواقف للسيارات، بينما كنا صامتيْن، وكان بين وقتٍ وآخر يشيح ببصره إلى

(1) منو كوي أليش: من تنتظرين؟
(2) شيقر يلم: لا مشكلة.

الأعلى ليبلغ نهايات الأبنية التي تلاشت في العتمة، وكأنما يَزنُ بعينيه الفارق الذي أحدثته الهجراتُ من شرق وجنوب العالم في هذا الحيّ العتيق، وهو يئنّ تحت وطأة الزحام وتلاحم الأبنية وتعدد الألسن..

سألته عن أصل اسم هذا الحي، نظر إلى الأعلى مجدداً وأمسك بمعصمي حتى أسمعه بانتباهٍ كامل..

- باختصار «فريج المُرر» تعني حي قبائل المُرر، هنا ولدتُ أنا وهنا عشتُ أيام طفولتي الأولى وجزءاً من شبابي..

شحذ ذهني أكثر، حكايات الأنساب والقبائل والشعوب تستغرقني، والآن ربما تقرِّبني من صورة المكان أكثر، كما هي في ذهنه تماماً..

- ومن هم المُرر؟

تنهّد، وهو لا يزال معلقاً بتأمل المكان وساكنيه الجدد..

- المُرر أصل هذا الحي، والمُرر باختصار قبيلة عربية عريقة، لم يتّفق رواة الأنساب على نسبٍ موحّدٍ لها كشأن معظم القبائل العربية، لكن ما أطمئنُّ إليه هو أنها قبيلة أصيلة في هذا البلد، تدخل في حلف بني ياس الذي يحكم هذه الصحراء بعلائق الدم والنسب والمصاهرة، ونخوتهم هي أولاد مروان..

- أظن أني قرأت في كتب التاريخ والأنساب عن أكثر من مُرة في قبائل العرب، وعن أكثر من موطنٍ لها في هذه البوادي..

- صحيح، وربما أغلبها تشابه في الأسماء، لكن أغلب بني مرة هم من البدو سكان الصحراء، لكنّ المُرر معظمهم أهل بحر،

صيادون وغواصون، وركاب سفن، وهم منتشرون في بعض الإمارات مثل أبوظبي ودبي والشارقة، والمُرر الذين عاشوا في هذا الحي، تنقلوا في مناطق عديدة منها أبوظبي والفهيدي والليّة والشندغة والرفاعة، ولهم فيها صولات وجولات مع الغزاة والغارات والأوبئة، إلى أن استقروا في هذا المكان أيام المرحوم الشيخ سعيد بن مكتوم آل مكتوم الذي كان يأنس كثيراً لجوارهم..

ثم حين صرنا عند عتبات المطعم، ضحك من قلبه وقال بلسانه البدوي:

- الحين فرج المُرر صار وكأنه سوق «ميركاتو» اللي في أديس أبابا، تدري؟ أنا ابن الحي صرت اليوم غريباً فيه، والله، لولا إني أتكلم الأمهرية كان الحبشيات باعوني واشتروني فيه مثل التيس الفحل!

ضحكنا، وطوال العشاء وبعده، لم يتوقف المرّي عن الحديث، أدهشني بطلاقته العجيبة في اللغة الأمهرية حين كان يحدثها، وكذلك معرفته الواسعة بفنون الأحباش وقومياتهم وعاداتهم وطبائعهم أيضاً، لكنّ إيلسا لم تكن تتكلم إلا نادراً، نظراتها الودودة نحوي، كانت وحدها تقول الكثير..

(3)

كنتُ أظنها مثل كل الفتيات اللائي أراهنّ في هذا السوق كلّ يوم، ربما كان موقفاً متعالياً أكثر منه انطباعاً، أو فهماً لحقيقتها . .

إيلسا الوحيدة -حتى الآن- التي قالت لي «لِمَ أنت هنا؟» قد يبدو السؤالُ عادياً، لكن على بساطته الظاهرة تبدو إجابته معقدة، ومولِّدة للكثير من الأسئلة التي تزعجني، ربما شعرَتْ أنني في المكان الخطأ وفقاً لصورةٍ حسنة الظن رسمتها لي، لا أعرف! لكن تصرفاتها توحي بأنني مثيرٌ للفضول لسببٍ أو لآخر وأنني أخفي حكايةً ما خلف هذا القناع الصارم الذي كثيراً ما ذكرتني به، كانت تقترب أكثر في كل مرة، لكنه اقتراب حذر أثار فضولي نحوها أكثر مما هي مستثارة نحوي . .

إيلسا فتاة مختلفة؟ قد يبدو حكماً متسرعاً وسطحياً أيضاً، فأنا أجهل أشياء كثيرة عنها، مهمة وضرورية، ماذا تعمل؟ من أين تعيش؟ وكيف تتدبر أمورها في مدينة كهذه؟ لكن لم أكن أحب هذا النوع من الأسئلة، الأشخاص الذين ألتقيهم أُفضّل ألا تكتمل صورتهم أمامي دفعة واحدة، ينبغي أن تنمو مع الأيام والأحداث . .

تحدثنا طويلاً في الهاتف، في أمورٍ كثيرة كاشفة، هكذا

وصفَتْها، لم أطلب ذلك، لكن حدث أمرٌ غريبٌ في المقهى ذات مساء، جعلني أغادره منزعجاً على غير عادتي، فاتصلت بي منتصف الليل لتحدثني عن أحباشها، حديثاً لم يخطر على بالي، وكأنما تعتذر لهم. .

- لن تفهم هؤلاء الأحباش ما لم تكن منهم، أعجب ما فيهم أنهم زاهدون في إنسانيتهم من أجل شيء غامض لست متأكدةً من حقيقته!

- ما الذي يستحق أن يَبذل الإنسان من أجله أغلى ما يملك، إنسانيته؟

- يشغل الأمس جزءاً كبيراً من تفكيرهم، فإذا حدثوك عن أحلامهم، تأكد أنهم يتحدثون عن ماضيهم!

- . . .؟!

- الأحباش يبحثون عن لحظةٍ بعيدة في خيالهم، يستقصون كل شيء، الزمن والتاريخ والجغرافيا للإمساك بها، صدقني، لن تفهم معنى أن تمشي إلى الوراء بقصد أن تتقدم إلى الأمام، ما لم تكن حبشياً!

- كيف؟

صمتت قليلاً ثم تابعت. .

- ممكن، إذا فهمت أن الزهد في الأشياء يعني السعي لامتلاكها بالضرورة، نفكر هكذا أحياناً!

على الدوام كنت أعتبر الحبشة جزءاً من محيطٍ حيوي واسع، أنتمي إليه بالضرورة وأتحرك فيه، وإن لم تكن في متناول وعيي

بالقدر الكافي، قرأت عنها أيضاً وسمعتُ من آخرين، بل والتقيت في حياتي ببعض أهلها، لكن لم أسمع بهذا من قبل، ولم يخطر على بالي..

- هل تغيّر الغربة ضحاياها إلى هذا الحد؟

تنهدت طويلاً، ثم قالت جملةً تمنّت -لاحقاً- لو أنها لم تقلها..

- في هذه المدينة بالذات، إذا قالت لك الحبشية إنها لا تريد منك شيئاً فاعلم أنها تريد كل شيء!

بدت لي عباراتها غامضةً ومربكة أيضاً، هل تكشف لي -دون مقابل- بعض الأسرار المهمة لأفهم ما حولي؟ هل تعلّمني قواعد اللعبة في هذا السوق العجيب على طريقتها؟ أم ربما تريد أن تضع من الآن شروط العلاقة إذا أردتُ أن أكون طرفها الآخر؟ لكن حقاً تفكر إيلسا في ذلك؟

ثم استرجعتُ وحدي ما حدث تلك الليلة، ما جرى لم يفسِّر تماماً ما قالته على نحوٍ مقنع، لكنه قرَّبني أكثر من صورة المكان..

كنت ألاحظ -لأيامٍ متتالية- سودانياً في نحو الخامسة والأربعين أو يزيد بقليل، أسود فاحماً، أشْيَب أسْيَب، وفتاة أمهرية تصغره بعشرين عاماً على أقل تقدير، غضة يافعة، يطيلان الجلوس والحديث الخافت في ركنٍ قصيٍّ من أركان المقهى، المشهد يبدو مألوفاً ربما بالنسبة إلى مقاهي فريج المُرر وروادها، فقلت أسأل صاحبة المقهى، فبسّطت لي الأمر..

- اسمه ميرغني واسمها ميمي، وربما سيتزوجان!

ضحكتُ للمفارقة..

- لو أن الأقدار جمعته بأمها ذات يوم وأنجب منها، لأصبح/ أصبحت في سن هذه الفتاة اليوم..

ضحكت صاحبة المقهى أيضاً، وأغلب الظن كانت تضحك على تقديري السطحي للأمور، تردّدَتْ قليلاً ثم قالت:

- إنها «تغسله» يا سيدي، لا أكثر!

نظرت إليها بما يفيد الاستفهام، لكنها لم تقل شيئاً، ما فهمته من تعبيرات وجهها أن التعليم هنا ليس مجانياً، الأسواق وحدها لا تقدم شيئاً دون مقابل..

كانت جلستهما حميمةً إلى حدّ الالتصاق، وكان واضحاً من طريقته في الحديث وقوعَه في شرك لا فكاك منه، بينما كانت ثقتها في جمالها وأنوثتها تزداد كلما قال شيئاً، فتضع رجلاً على أخرى وتتمطى إلى الوراء ثم تضحك بغنجٍ مصطنع يُغرقه في الوحل أكثر..

صاحبة المقهى، تروح وتجيء بين الزبائن العديدين، دون أن تغفل عيناها عنهما، وعن لحظةٍ محددة تربصت بها طويلاً حتى حانت، تلك اللحظة الباذخة التي لا يتردد الرجل فيها عن بذل كل ما يملك من أجل أن يربح اللحظة التالية، عندها دفعت بفتاتين إليهما فانضمتا إلى الطاولة في هدوء..

- ممكن تعزمنا «شيشة»؟

فأومأ بالإيجاب دون أن ينصرف انتباهه عن صديقته، فأسرعتْ صاحبة المقهى بأرجيلتين وكوبَي عصير وإبريق قهوة!

جلستا قليلاً ثم غادرتا، وجاءت ثلاث أخريات ففعلن مثلهما

دون أن يصرف الرجل انتباهه عن ميمي أيضاً، ودون أن تكفّ صاحبة المقهى عن توريد ما طُلب وما لم يُطلب، حتى امتلأت الطاولة عن آخرها..

من أهم قواعد ارتياد هذه المقاهي، هو إجابة مثل هذا التطفل الغريب، أي فتاة في أي مقهى لا تتردد في سؤال الزبائن، حتى لو كانت نادلة أو صاحبة المقهى ذاته، فالقاعدة المتبعة أعلى فاتورة ممكنة من كل زبون! لذلك تجد حول كل رجلٍ زبون، عدداً من الفتيات، ربما يرى بعضهنّ لأول مرة!

المهم، بقيا وحدهما على الطاولة في نهاية الأمر، لكن طريقتهما في الحديث تغيرت، كان جاداً وغاضباً، وكان الضيق بائناً على وجهها، حتى علت أصواتهما فجأة..

- إذا كنت تعتقد أنني من ذلك النوع من الفتيات تكون مخطئاً!

- ولماذا أخذتِ إذن كل تلك الأشياء؟ العقد والمال والهاتف؟ هل تظنينني أحمق؟

- لم آخذ منك شيئاً رغماً عنك، أنت من جاء به..

وهبّت الفتاة واقفة تهمّ بالمغادرة، لكنه أمسك بحقيبتها بطريقة عصبية ليمنعها من أن تفعل..

- ولماذا تأخذين شيئاً دون مقابل؟

- لم أعِدْك بشيء، عرضتُ عليك الزواج وأنت من رفض، لا أنا!

- وتظنين أنني غبيٌ أيضاً؟ أعرف سلفاً أنك متزوجة في أثيوبيا ولديك ولدٌ أيضاً!

بدا عليها الارتباك، حاولت التخلص منه، لكنه هبّ واقفاً وعيناه تقدحان الشرر. .

- يجب أن تفهمي، لستُ بالغِر الذي تظنين، إما أن تعيدي ما أخذتِه، وإلا أخذته الآن عنوة. .

بدا الخوف على الفتاة، اضطربت نظراتها بين الموجودين في المقهى وكأنما تتوسل، ثم حين يئست من المحاولة أخرجت هاتفاً من حقيبتها من ذلك النوع الثمين، رمته في وجهه وحاولت أن تنصرف مرة أخرى، لحق بها عند الباب وأمسك بمعصمها بقوة حتى صرخت. .

- إمّا أن تعيدي كل ما أخذت، أو أرتكب الآن حماقة!

وفجأة اندفع نحوه شاب أثيوبي اسمه جيمي -سأتعرف إليه لاحقاً- ، قصيرٌ، نحيل، نافر العروق، محمرّ العينين، حليقٌ دائماً وقلقٌ، كثير التدخين، كان جالساً يرقب المشهد بتحفز، لكمه على وجهه حتى سقط، تعاركا وصرخَتْ فتيات المقهى، وخفّ إلى المكان جمعٌ من المتطفلين ورواد المقاهي القريبة، هربت الفتاة التي لم أرها بعد ذلك مطلقاً، وخرجتُ أنا دون أن أنتظر نهاية المشاجرة وحتى دون أن أستأذن إيلسا، بدا لي الأمر صادماً، فارق السن وغرابة الصفقة وأشياء أخرى جعلت منه نشازاً لم أستسغه في وقته، حتى فاجأتني في نهاية المحادثة. .

- لا تشغل بالك الآن بهذه الأمور، سوف تتعود عليها، وسأشرح لك كل شيء في وقته، المهم آخر خميسٍ في هذا الشهر هو عيد ميلادي، وها أنا أدعوك منذ الآن، هل أطمع في مشاركتك؟

- بالتأكيد. .

ثم استدركتُ سريعاً. .

- لكن، أي نوع من الهدايا تفضلين؟

- لا أريد هدية، نلتقي في المقهى، ثم ننطلق. .

ضحكتُ. .

- وفقاً للدستور الحبشي الذي سمعته للتو، لا تريدين معناها أنك تريدين؟

ضحكِتْ ضحكةً طويلةً عذبة، حلقت بي بعيداً حتى انتبهت إلى صوتها مجدداً. .

- لا ، صدقني، مشاركتك أعظم هدية يمكن أن تسعدني!

كانت الجملة الأخيرة رنانة إلى الحدّ الذي أبقاها في أذني حتى آخر الشهر، لتدفعني نحو مقهى الزمن، دفعاً. .

(4)

كنت قليل الانتباه لذلك الأثر الذي ترسمه المدن بهدوء في وجوه أهلها فتميّزهم، حتى الغرباء وعابري السبيل، يأخذون منه نصيباً دون أن ينتبهوا أحياناً، وهو على العموم يتعمق كلما طال بهم المقام، وإن شئت يتعتق حتى يصبح جزءاً من هويةٍ غير محسوسة تنمو مع الوقت، فتنشأ بين المدينة وساكنيها حالة من الانتماء ولو لم يكونوا من رحمها، لكن هل أصابتني العدوى؟

مالت عليّ إيلسا وهمست في أذني هذا المساء..

- أخيراً؟

- ...؟

- عيناك، رائقتان!

- صحيح؟ لم ألاحظ ذلك..

أشارت إليّ فخلعتُ النظارة، نظرتْ إليهما نظرةً ودودة..

- هما كذلك فعلاً، لكن هل خطر لك لماذا؟

- ...؟

- الوسادة الحميمة، ربما!

ظننتها تقصد شيئاً آخر، فسارعت إلى محاصرة خيالها قبل أن يجمح بعيداً..

- «وسادتي خالية» دائماً، اطمئني..

- لم أقصد ذلك، لكن أزعم أن الوسادة ليست متكئاً وحسب، بل صديقٌ خاص يمكن الوثوق به إلى حدٍّ لا يصدق!

- لم يخطر ببالي أبداً مثل هذا الكلام..

اعتدلت في جلستها، انتهزت غياب سارا داخل مطبخ المقهى، فصبّت لي من يدها فنجاناً من القهوة، وضعته أمامي ثم ركّزت في عينيّ جيداً..

- الوسادة مستودع الأسرار، ينتهي إليها الشخص بحصيلة يومه طائعاً، ويضع بين يديها خطوات غده دون أن يخشى شيئاً..

صمتت قليلاً، شاحت ببصرها نحو نقطةٍ ما في سقف المقهى ثم عادت إليّ..

- ألم تلاحظ مثلاً أن بعض الأشخاص يخاصمهم نومهم إذا بدَّلوا وسائدهم بأخرى؟ الوسادة ليست جزءاً من طقوس النوم وحسب، بل هي شيء مختلف لا أجد له الآن وصفاً مناسباً!

ضحكْتُ، فنظرَتْ إليّ نظرةً عميقة، جائعة، فيها مزيج من الحرمان والحيرة، قلتُ أكسر ذلك..

- وأنت؟ ماذا عن وسادتك؟

تنهّدت..

- أنا لا أنام على وسائد ولا أحلم أيضاً، أنام بعد طلوع الشمس مطبقةً كفيّ على بعضهما، تحت رأسي!

- . . . ؟

- وحين أصحو، أجدهما تحيطان برأسي كملزمة! صدِّقني، لا يأتيني النوم إلا بعد أن يملَّه من حولي، يسعدون بي حتى ينامون، ثم يكرهونني حين يستيقظون، لذلك أكره أن أنتظر هذه اللحظة!

- عن أي أناسٍ تتحدثين؟

- دعك من هذا الآن، سأخبرك بكل شيء في وقته. .

لم أفهم ما كانت تقصد بالضبط، لكن حالة الجوع الغريبة كانت تتسع في عينيها، حاولتُ أن أهرب منها، جُلت ببصري في أرجاء المقهى الخالي، أتأمل شيئاً مجهولاً بينما كان ذراعها الأيسر يتسلل بهدوء خلف ظهري حتى أحاطني، كانت يدها تعلو وتهبط فوق ظهري، كما لو كانت تغسله من داءٍ قديم، ومع كل مسحة كانت تسقط عنه سنة عجفاء سرقتها العزلة، مثل هذه الإحاطة كانت تضايقني كثيراً في الماضي، لكنني اليوم أحس لها طعماً مختلفاً، فلم أبدِ شيئاً. .

فكرت قبل فترة، أنْ أخوضَ نهر النساء هذا أيّاً كانت وجهته، ثم هجس لي أنها حماقة غير محسوبة، جالت بخاطري أفكار عديدة أكثر حماقة، لكنني قررت في النهاية أن أفعل، خطوة واحدة إلى الأمام لن تُحدث فروقاً كبيرة، لن تُحدث نكسة. .

هنا النساء شيء مختلف، لسن أخوات، ولسن أمهاتٍ أو زوجات، ولسن حبيبات أيضاً! كائنات محايدة، لا تضيف إليك أيّ عبءٍ من أي نوع، كما أنك في المقابل لستَ عبئاً أيضاً، مثل اللحظة العابرة التي لا تكلفها أو تكلفك سوى الانتباه العابر. .

هل كُنتُ غِراً؟

(5)

كان نهاراً لزجاً، كثيف الرطوبة، حاراً وقليل الهواء إلى درجة العدم، الخروج إليه من جوف المكتب أو السيارة أشبه بمحاولة انتحار محتملة النجاح..

لا بد أن لهذا الصيف سيرةً قديمةً سيئةً مع سكان هذا البلد الطيبين، قليلي العدد وسط ذلك العدم يوماً ما، فثارات الطبيعة مع الإنسان مؤلمة بالضرورة على مر التاريخ، وحماقاتهما المشتركة أعظم من أن تدرأ قبحَها أجهزةُ التكييف المنهكة هذه، ومصداتُ الرياح والأعاصير التي امتلأ بها كوكب الأرض في قبله الأربع!

ماذا لو تصالح هذان الخصمان اللدودان؟ ووضعت هذه الحرب الأزلية أوزارها قبل أن يفنى هذا الكوكب العتيق؟ أو تهلك أنفاسي بسبب هذه الرطوبة السميكة؟ هل من عاقلٍ يرفض صلحاً؟

- أكاد أختنق..

كنت أصرخ وأنا أبحث عن سيارة تاكسي فوق هذا البساط الإسفلتي الأسود الملتهب مثل ضمير الشيطان، وعباس على الجانب الآخر من الهاتف لا يريد أن يرحمني أيضاً، للتو أنهيت بعض

المعاملات في قرية الشحن بمطار دبي، ثم اتصلتُ به في السودان لأعتذر منه، أنني لن أستطيع إرسال بوليصة الشحن عبر البريد اليوم كما اتفقنا، بسبب رداءة الطقس وأشياء أخرى لا تقال، وهو يلحّ في إرسالها بأية طريقة. .

أخيراً، وقفت لي سيارة تاكسي باردة الجوف، والسائق أيضاً، ارتميت على مقعدها الخلفي. .

- فين روح، سير؟

أخبرته بوجهتي فانطلق، وعباس وافق هو الآخر على مضض، ثم أخبرني في نهاية المحادثة أنه يستعجلها، فهو ينوي القدوم إلى دبي بمجرد الانتهاء من استلام البضاعة التي أرسلتها، أخبرته أنني في انتظاره على أحرّ من الجمر، كما يليق بالأحباب أن يُنتظروا دائماً، وأغلقت الهاتف. .

قصدتُ محلاً شهيراً للملابس في الشارع الأشهر شارع الشيخ زايد، انتقيتُ طقماً بلونٍ عسليٍ فاتح من ماركة **ماسيمو دوتي**، مع قميص أزرق سماوي ماركة **بوس**، وحذاءٍ من ماركة **تودز** الإيطالية. .

عرّجتُ على محلٍ للحلاقة، وتهيأتُ لعيد ميلادها بميلادٍ جديد، واشتريتُ لها هدية صغيرة، تأنيتُ في انتقائها وتثمينها، لم أكن واثقاً تماماً أنني أفعل كل ذلك من أجلها، لكنني كنت في حاجةٍ أيضاً إلى فعل شيء صغيرٍ من أجلي. .

قد نبالغ أحياناً في الاحتفاء ببعض الناس على أساس أننا نظهر سعادتنا بأفراحهم الصغيرة، لكننا في الحقيقة إنما نمارس نوعاً من

التعويض من أجل أنفسنا بمثل هذا الالتفاف المفضوح. .

عدت إلى الفندق، نمت نومةً طويلة أراحتني من رهق أسبوعٍ كامل، استيقظت عند التاسعة مساءً وغادرتُ وسادتي وأنا أضحك، استرجعت ما قالته لي إيلسا بشأنها، أحسست لأول مرة أنني أقترب من حافة الجنون وأنا أمسح عليها برفق مثل قطةٍ مدللة وأكلمها. .

- سأحدثكِ في أمور كثيرة هذا المساء، أرجو أن تنتظريني مستيقظة!

ملأت جوفها بالهواء وتمددت كعاهرةٍ منهكة، ضحكتُ على نفسي، واتجهتُ نحو الحمام وقد اندفعت إلى حلقي أغنية سودانية عتيقة. .

«أقابلك وكلّي حِنية،
وأخاف من نظرتك ليّ،
وأخاف شوق العمر كلو،
يفاجأك يوم في عينيّ،
ورا البسمات كتمتَ دموع،
بكيت من غير تحس بيّ»

ثم وضعتُ على جسمي الطقم العسليّ الجديد ونظرتُ إلى نفسي في المرآة، كانت روحي جديدةً أيضاً، وممتلئة بروحٍ أخرى حتى ضاق عليها الطقم الغارق في العسل، والتفاؤل!

وصلتُ المقهى يسبقني توقعي، كمن يريد أن يسبح في الماء

لأول مرة، ولم يخب ظني وجدته مكتظاً بالفتيات يتحلّقن حول شابين صوماليين لطيفين، بعضهنّ أراه لأول مرة، والبعض الآخر وجوهه مألوفة جداً في هذا السوق، لكن إيلسا لم تكن من بينهنّ. .

شعرتُ بالخجل للوهلة الأولى، لكنه خجلٌ مشوبٌ بالارتياح، كونها غير موجودة فاقم من إحساسي بنفسي أكثر، بأنني أفعل هذا من أجلي لا من أجلها، لكنّ نظرات سارا التي شملتني من أعلى إلى أسفل وكذلك ابتسامتها الخبيثة، كادت أن تنسف ذلك الإحساس. .

رحبت بي كعادتها، ثم هيأَتْ لي مكاني المفضل بعد أن غمزت لفتاتين كانتا تشغلانه فانتقلتا بهدوء إلى طاولة أخرى، جاءتني بالقهوة، وجلست لتصبها بينما كانت عيناها مشغولتين بذينك الصوماليين، صبّت لي الفنجان الأول ثم انتقلت إليهما لتلبي بعض طلباتهما ثم عادت إلي مرةً أخرى تعتذر. .

- متأسفة، أنا دائماً وحدي . .

- لا بأس، لكن ألا تنوين فعلاً أن توظفي نادلات في هذا المقهى؟ الزبائن في ازدياد وقد ينصرفون عن المقهى. .

- لم أكن لأفعل ذلك، تعرف أن البنات مشاكلهنّ كثيرة وبعض الزبائن يفضلون هذا المقهى لهدوئه، لكن يبدو الآن ألّا مفرّ من ذلك. .

- ربما، لكن احرصي أن يكون العدد قليلاً حتى توازني بين الأمور. .

- على أي حال ستأتي نادلة جديدة قريباً، وأتمنى أن تكون عند حسن الظن..

لم تقل ذلك بسعادة، أو على الأقل بطريقة محايدة، لكن قالتها بامتعاض، هذه المرأة بخيلة إلى الحدّ الذي يجعلها تطفئ جميع أجهزة التكييف عند خلو المقهى رغم رداءة الطقس، وتحتفظ بقوارير المياه التي يتركها الزبائن عادة بعد أن يشربوا القليل منها، لتستخدمها عند الحاجة، بل وتتحدث من هواتف بعض الزبائن أحياناً! لكنها تبدو مضطرةً لذلك لسببٍ ما..

كان المقهى أشبه بساحة مهرجان، ضجيجٌ لا يهدأ من العطور والألوان والضحكات الرنانة، يوحي بأن الحياة مقبلة هذه الليلة، فجأة تدفق نهرٌ آخر من الفتيات، أربعٌ مثل المهر الجامحة تتقدمهنّ إيلسا في تنورةٍ سوداء، قصيرة، لامعة، وحذاء طويل إلى منتصف ساقيها البرونزيين الممتلئتين، أخفاهما مثل غمدٍ لئيم، بينما دفن صدرُها رأسَيه المدبّبين في كنزةٍ صفراء ضيقة، نصفها الأعلى مفتوح مثل كفين ضارعتين تحت وجهٍ ملائكي يمور صفاءً كصفحة الماء..

كانت باذخة البهاء والرقة حتى اضطرب كياني كله وأنا أصافحها، لكنها أمعنت في هزيمتي حين لم تكتفِ بالمصافحة، بل مطّت وجهها الملائكي الرقراق نحو جانب وجهي لتصافحني بقبلتين مثل النسمة الباردة، ضربتا صفحة وجهي، فانتعش..

جلسْنَ جميعاً حولي كما يتحلق مقرورون حول مدفأة، بينما انكمشتُ فجأةً على نفسي من هذا الطوفان الأنثوي الذي غمرني من كل الجهات فامتص ما بقي فيّ من دفء، لعلّ الساحل الآمن الذي

كنت أتحصن به قد ابتعد، ولا مناص الآن من نشر الأشرعة..

مالت إيلسا لتهمس في أذني..

- صرت الآن تشبه هذه المدينة أكثر!

غريبةٌ هذه البنت! من أين تأتي بمثل هذا الكلام..

- من أي ناحية؟

همّتْ بقول شيء، لكن هاتفها رنّ رنةً واحدة، فهبّت واقفةً جملة، فوقف المقهى كله كما لو كانوا حاشية، تحدثت بالأمهرية إلى صديقاتها، فهمتُ من طريقة كلامها وإشارات يديها، أن الوقت قد تأخر وينبغي التحرك..

خرج الجميع بمن فيهم الشابان الصوماليان الودودان، وبقيت جالساً وحدي، ظننت للوهلة الأولى أنني ربما أكون برفقتها إلى مكان الحفل، لكنها فاجأتني..

- أعتذر منك، ستمر عليّ أختي وزوجها الآن، لكن المكان قريب سأنتظرك كما اتفقنا في صالة فندق «ماي فير» حيث نقيم الحفل، إياك ألّا تأتي!

هززتُ رأسي، بما يعني الموافقة، وتحسّست -من فوق الجيب- المغلف الصغير الذي يحوي الهدية، رنّ هاتفها مجدداً، عدّلت من هيئتها وودعتني بإشارة من يدها ووجهها مدبرٌ عني، فلم أرد..

تابعتها حتى صعدت إلى السيارة البورش التي كانت تنتظرها بالخارج، لمحت فيها طيف رجلٍ أفريقي مع اشتعال نور السقف حين فتحت الباب لتصعد..

بقيت وحدي في المقهى، بين حيرتي وفضول سارا ، فلم أجد بداً من المغادرة، لكن ليس إلى مكان الحفل، بل إلى غرفتي في الفندق . .

(6)

- أنت طيّب إلى درجة السذاجة!

- ربما، لكنها كانت. . .

- كانت ماذا؟ أنت لم تفهم ما يجري حولك بعد. .

- كيف؟ لقد دعتني، وخصتني من دون الآخرين باحتفائها. .

- ألم أقل لك إنك طيب؟ لقد كانت تتسلى، ريثما يعود ذاك، صاحب السيارة البورش!

- هاتفي لم يفتر من الرنين منذ أن فارقتها، تلحّ في اتصالها عشرات المرات في اليوم الواحد، وأنا الذي لا يود أن يجيب. .

- لماذا تهرب من المقهى إذن؟ لماذا لا تود لقاءها؟

زفرتُ في وجهها، ثم أدرت رأسي إلى الجانب الآخر. .

- لا أحب الاعتذار بطبعي. .

- لذلك لم تعتذر عما فعلته مع ليلى؟

- ما الذي ذكّركِ بها الآن؟ دعينا في أمر إيلسا، أرجوك!

- لا فرق، أنت الذي لم يفهم هذا العالم بعد، الفرق في كل ما جرى أنك تعتقد «أن كل ما تحت الماء أسماك» وأنك صيادٌ ماهر!

- أوجعتِ رأسي ورقبتي بانتفاخكِ الزائفِ هذا . .

تعصّبْتُ، فألقيتُ بها نحو الحائط المقابل، حتى سقطت على وجهِ عباس الذي كان يشخر مثل البعير، فاستيقظ مرعوباً . .

- ماذا بك؟ هل يضايقك شيء؟

انتبهتُ فجأةً إلى ما فعلْت. .

- لا شيء، لكن أحسّ بألمٍ في رقبتي، وتلك الوسادة المنتفخة غير مريحة، بالمرة!

- يمكنك أن تأخذ وسادتي إن أحببت. .

- لا، شكراً سأنام دون وسادة. .

استيقظت على صوتِ عباس مجدداً وعلى صوت حمحمته ومسبحته التي تطقطقُ بين يديه، يوقظني لصلاة الفجر. .

- اذهب سألحق بك إلى المسجد. .

خرج وسمعت صوت إغلاق الباب، فعدتُ إلى فراشي مجدداً، ولم أستيقظ إلا عند الواحدة ظهراً. .

عشرات المكالمات المفقودة والرسائل على هاتفي، من عباس وإيلسا وسارا وأرقام أخرى لا أعرفها، ألقيته على السرير وقمتُ متحاملاً على أوجاع روحي وذهني المشوش قاصداً الحمام، اعترضَتْ طريقي وقد ازدادت انتفاخاً ولؤماً، فركلتها. .

كان عليّ أن أتعجل قليلاً فقد كتب إليّ عباس في رسالةٍ نصية أنه ينتظرني على الغداء في مطعمٍ عراقي شهير، يقدم صنفاً طيباً من السمك «المسكوف»، فقد كُنتُ جائعاً جداً، وخجلاً من نفسي

أيضاً، إذ لم أفارق غرفتي منذ أيام، ولم أضيّفه كما ينبغي منذ أن عاد، فنزلت مسرعاً قبل أن يضجر أيضاً..

لكنه في المطعم، فاجأني..

- أعتقد أنك فهمتَ طريقة العمل جيداً، وحققنا نجاحاً لا بأس به خلال الأشهر الماضية، لذلك أفكر في أن نوسع عملنا ونقنّنه أيضاً..

- لم أفهم..

- لدي ترخيص تجاري كما تعلم، يمكن توسيعه ليصبح شركة صغيرة، نستأجر لها مقراً دائماً ونشرع في تأسيسها على نحوٍ قانوني..

- هل أفهم أنك قررت الاستقرار هنا؟

- لا، أنا سأتفرغ لإبرام العقود، سواءٌ في السودان أو الصين أو كوريا، وأنت ستدير الأمور هنا على نحوٍ دائم، وسأمرّ عليك صاعداً أو نازلاً خلال هذه الجولات..

لم أناقشه كثيراً، اتفقنا على الخطوط العامة، وأجلنا الحديث حول التفاصيل، ثم قصدنا «مول الإمارات» نتنزّه قليلاً، ونتسوق..

في كل مرة أزور فيها هذا المول، تختلط علي اتجاهاتُه وبواباتُه ومحلاتُه، لم يحدث إطلاقاً أنْ ألِفتُ جغرافيته المعقدة على نحوٍ جيد، لم يحدث أنْ خرجتُ من الباب الذي دخلتُ منه، أو زرتُ محلاً ثم اهتديت إليه في المرة المقبلة! لكن أكثر ما كان يشدّني في هذا السوق أنه العالمُ مختصراً، كل وجوه الدنيا تراها فيه، وتسمع ألسنتها، وتلمس إنتاجها، وترى وجهها المتحضر، لقد جلبوا العالم إلى هنا، والعالم متاهة ولا شك..

دبي أوجدها الله مركز جذبٍ هائل يحج إليه الناس من كل مكان، أما أهلها، رغم بداوتهم الناعمة فيبدو أنهم معتادون على هذه القيامة الدائمة التي تحيط بهم، مطاراتها، قطاراتها، أسواقها، مزاراتها، وكل شيء فيها وكأنما أبدعه العالم بأسره ليلائم أذواقه واحتياجاته، إلا طقسها الصيفي المحيّر، حينئذٍ لا مفرّ من تأملها من خلف زجاج النوافذ، كما لو أن إسطنبول قد وقعت رهينةً في قبضة الصحراء..

كان عباس يبحث عن محلٍ متخصصٍ في عطور العود والصندل الفواحة، تلك التي يفضلها أهل الخليج، له ولمسبحته العجيبة التي يدللها دلالاً مفرطاً، لا أجد له أي علاقة بالتدين..

أحياناً -وللغرابة- أميّز بين ردهات هذا المول من رائحتها، إذ يمكنني أن أخمّن بعض المواقع، وخاصةً محال العطور والمطاعم بمجرد الوقوف على طرف الممر الذي يأخذ إليها، وكأنني أرى بأنفي!

فأخذته عبر ممرٍّ طويل، تصطف على أحد جوانبه محلات لبيع العطور، نتأملها من الخارج حتى نتأكد من أنها التي سنجد فيها حاجتنا، وهكذا من محل إلى آخر، ومن صنفٍ إلى صنف، حتى تفاجأنا بفتاةٍ أثيوبية، صغيرة الحجم، يبين من عودها أنها غضة، تقف على باب أحد المحلات تروّج لمنتجٍ لها، وتستجدي الزبائن العابرين كما لو كانت تتسول..

أحسست بوخزةٍ في صدري، فألَحَحْتُ على عباس أن ندخل وأن نشتري شيئاً، هو أيضاً لم يمانع، فوقفنا عندها نسألها، حدثتنا بعربية عرجاء، وبصوتٍ طفولي..

- لدينا هذا المنتج الجديد، مخلوط دهن العود المعتق، يبقى أثره لساعات، كما أنه معقول الثمن..

أخذت أطيل معها في الكلام، وأختلق الأسئلة وأقلب المنتج بين يدي، بينما في الحقيقة كنت أقلب وجهها بين عيني، وما تختزنه عاطفة مواليد برج الأسد من حنوٍ مفرط..

قامتها القصيرة المشرئبة، أجبرتها على فتح عينيها عن آخرهما إلى الأعلى، وجعلت نظراتها أكثر تطلعاً، يملؤها التوقع، فسالت على وجهها مسحةٌ من الحنين، هزتني، وملأتني فجأة بمشاعر أبوةٍ لم أعرفها من قبل..

ملامحها لا تعطيها أكثر من ثمانية عشرة عاماً في أحسن الأحوال، أمسكتها من يديها ودلفنا إلى الداخل، وهي تحاول - بلطف- الإفلات من قبضة هذا الأب الطارئ الذي غمرها بالإحراج أمام زملائها..

المهم اشترينا كل ما عرضته علينا، فشكرتنا بأغلظ ما عرفته اللغة الأمهرية من مفردات الامتنان..

- أمسغينالو، بيطام أمسغينالو..

فقدمتُ إليها بطاقة عناويني ومعها شيء من المال، فمدّت كلتا يديها مع بعضهما كما لو كانت تعطي لا تأخذ، فضممتهما بكلتا يدي، بحنوٍّ أبوي أكثر دفقاً..

شكرتنا مجدداً وسط ابتسامات زملائها ودهشتهم، وودعتنا إلى الباب، وقد تكدر ما بين عينيها بخليطٍ من الخجل والامتنان..

بينما لم تغب عني غلالة الحزن التي كادت أن تقتل وجهها البريء، بينما عاد الخبث إلى نبرة عباس..

- غداً أو بعد غد، ستتصل بك هذه الفتاة! أقسم لك..

- ليتها تفعل..

- أنت طيب يا صديقي، هؤلاء الأحباش بارعون في استدرار العواطف، ليأخذوا فقط، فاحذر..

شعرتُ به قاسياً أمام صورتها الطفلة التي لم تفارق ذهني..

- لن تعوزني مجاراتهم، طالما أنهم بشر..

الفصلُ الثالث

أَسْتيــر

«المستقبل هو الماضي، هو التاريخ، يتكررُ بأقنعةٍ مختلفة فيظنّ الناس أنهم قد تقدموا إلى الأمام»

- أسْتيــر -

(1)

ذهب عباس في شأنٍ له مع أحد أقاربه على وعْد أن نلتقي في العشاء، وعشاء السودانيين -في أغلبه- لا يلتئم إلا بعد التاسعة مساءً وقد يمتد إلى منتصف الليل، وكذلك غداؤهم يقترب من مغيب الشمس أحياناً، وإفطارهم قد يمتدّ إلى منتصف النهار، وهكذا، لا أعرف ما علاقة هذا بالطقس، بالجغرافيا، بالجينات!

على أي حال كنت أشعر بالشبع، بل بالتخمة لأننا تغدّينا قرب مغيب الشمس على طريقتنا تلك، فشعرتُ برغبةٍ في المشي، علها تخففُ ممّا يمور في تلافيف بطني، ومن شعوري بالوحشة أيضاً، فحين يغيب الوجه في الزحام تستغرقه الوجوه الأخرى، فينسى وحشته..

مئات الوجوه كانت تهدر فوق رصيفٍ طويل ممتد، ظللتُ أتأملها، وكذلك أضواء المحلات العديدة المصطفة إلى جانبها، وهي تنعكس -مع سبق التربص- على صفحات الوجوه بإغراءاتٍ عديدة لتُستدرج طائعةً، خطر لي أن الشراء ليس حالةً اختيارية، ربما شهوة لا يطفؤها الشراءُ نفسه، حدث معي شيء من ذلك حين مُررتُ بمحمصةٍ للبن..

لم أشترِ شيئاً، لكنني قررت الذهاب إلى مقهى، أي مقهى، هذه كانت الرغبة الأولى، لكن حين وقفت على أول الشارع الذي يقودني إلى مقهى الزمن، وجدتُ قدميّ تجراني نحوه جراً، ومقاومة ذلك في داخلي تضعف بالتدريج كلما اقتربت، إلى أن وصلته..

بمجرد أن وقفت على الباب، غمرتني رائحةُ بخورٍ جديد، دلفتُ إلى الداخل فإذا بكل شيء قد تغير، الطاولات مصفوفة بطريقةٍ مختلفة، أكثر نظافةً وترتيباً، وعلى كلٍّ منها حاملة وردٍ وطبق مكسرات ومحارم، الحوائط مزينة بلوحات جديدة وأنوار زينة، الأرضية نظيفة لامعة، والبخور النفاذ يفوح من مجامر في أركان المقهى، تسبح فيه موسيقى مزمور أمهرية دافئة..

انتبهت وسط الدخان الكثيف إلى فتاةٍ جديدة، وقفَتْ بمجرد دخولي إلى المقهى، وهي طريقة ممعنة في التقدير يمارسها الأمهرا مع ضيوفهم حين يقبلون، خاصة إذا كانوا أكبر سناً أو أرفع مقاماً، ولا بدّ أنها أحسنت الظنّ في هيئتي، فابتسمتُ لها مُمتناً..

ما أن جلستُ، حتى خفّت إليّ ووقفتْ بتهذيبٍ مفرط ريثما أطلب شيئاً، رفعتُ بصري إلى الأعلى لأقول ما ينبغي قوله فتلعثمت، ولم تخرج كلمة من حلقي، فالحديث إلى الملائكة أمرٌ لم أجربه بعد!

- من أين هبطت هذه؟

ضحكَتْ سارا، كانت سعيدةً ولا شك، مثل هذه الدهشة في عيون الزبائن قد تتحول إلى شيء آخر بعد حين، ثم لا ينقطع..

نظرتُ إلى الفتاة مرةً أخرى فابتسَمَتْ ابتسامة قصيرة دون أن

تبرز أسنانها، أذكر أنها كانت باردة، منسجمة تماماً مع هيئة وجهها الجامدة، رغم جماله المترف..

استغرقتني، تبدأ جبهتُها عريضةً عند حاجبيها، ثم تضيق كلما امتدت إلى الأعلى، أذناها مستديرتان، بارزتان إلى الأمام قليلاً كأذني فأر، منابت شعرها زحفت قليلاً على وجهها، وقامت هلالاً داكناً فوق أعلى الجبهة، ثم انسدل وجهها عريضاً حول عينيها وخديها، إلى أن تناهى مدبباً تحت شفتيها كما لو كان مصباحاً يتدلى من عتمةٍ سحيقة، تتكثف في تلافيف شعرها ذاك..

ثم بدا لي أن جسدها ذا اللون البرونزي المعتق، عبارةٌ عن نسخٍ مختلفة الأحجام من هيئة وجهها، صدرٌ عريض في الأعلى ينتهي نحيلاً عند خصرها، يدان ممتلئتان في أعلاهما ثم تتلاشيان عند أطراف الأصابع المعقودة أمام حِجرها، وكذلك أوراكها إلى أسفل القدمين الملتصقتين ببعضهما من فرط التهذيب، وهي لا تزال تنتظر، كما لو كُنتُ أرسمها..

- بُنّاً..

كل ما استطعت قوله وأنا أتأملها، نادلة؟ بدا لي كما لو أن هذا الوصف إهانة!

- إشي..

قالت، هزّت رأسها ثم اتجهت نحو مطبخ المقهى في خطواتٍ وئيدة، كأنها تؤكد ما دار بذهني، لم تغب عني تلك النظرة، واثقة، حادة، كما لو كانت تنبع من لحظةٍ بعيدة لا تنتمي إلى هذا المكان..

بعد قليل، جاءتني بالقهوة، وجلَسَتْ..

تلك الثقة التي كانت تملأ وجهها، ذلك البريق الذي كان يلمع في عينيها، بدأ يتقهقر شيئاً فشيئاً أمام نظراتي الجائعة، وسال مكانه أسىً عظيم كجراح معارك غابرة، كآثار هزائم قديمة طفحت بوجهها بغتة، نفضت شعرها إلى الوراء وابتسمتْ، ثم رمشت بأهدابها رمشاتٍ قصيرة متتابعة، وكأنما تنفضُه من غبارٍ عليل، ثم قالت..

- من السودان، صحيح؟

- نعم..

- ملامحُك ليست سودانية خالصة!

- ماذا يشوبها؟

- فيها طيف يروحُ ويجيء، إثيوبي، إرتري لست متأكدة..

- لا فروق كبيرة، كانت أرضاً واحدةً فيما مضى..

- لم أقصد هذا..!

حوّلتني بمهارةٍ إلى المقعد الآخر، إلى الفخ الذي نصبتُه لها، لتحاصرني بالأسئلة!

كان هذا يومَها الأول في المقهى، وكان أيضاً كل ما قالته في ذلك المساء الصيفي، وقد كان كافياً لأتعثر بها..

تلكّأتُ كثيراً، وضحيّتُ بعشاء عباس تلك الليلة، لقد كانت الفتاة جميلةً إلى حدٍّ بعيد ومثيرةً أيضاً، خشيتُ إذا تركتها ومضيت، أن يحدث أمرٌ ما، لي أو لها، أن تعود إلى السماء التي سقطت منها، أن أعود إلى القاع الذي هربتُ منه، كلّ شيء وارد في هذا السوق..

تأنّيْتُ كثيراً في احتساء قهوتي والاستمتاع بطقوسها المتعددة، فالقهوة الحبشية ليست مجرد قهوة، إنما احتفاء، تأتيك بكلّ أدواتها على طبقٍ واحد، الفناجين الصغيرة والسكرية والملاعق ومجمر البخور وصحن الفوشار و(الجَبَنَة) إناء القهوة الفخاري الأسود، ذو الجيد الطويل، وكأنها فاتنة سمراء تأتيك بكلّ متعلقاتها..

وطقوس الأحباش غريبة، تجلس النادلة إليك ثم تسقيكها بتؤدةٍ متعمَّدة، فنجاناً تلو آخر وكأنما تبلّل بها روحك، تصبغك بها، فتجري في دمك وتدمنها ثم لا تعد تفرِّق أيهما قد أدمنت؟

ينبغي في النهاية أن تقول شكراً، قلة الذوق ألّا تقولها بعد الفنجان الأخير، ذلك يعني أنها لم تُعَدّ كما ينبغي، بل وبعض الأمهريات المتعصبات يصنعْنَ لك قهوة أخرى وثالثة حتى تقولها..

فقلت شكراً، خرجت من حلقي، لكنها كانت واهنةً، ذابت في فمي أو على شفتي فلم تسمعها، أظنها سمعَتْ شيئاً آخر..

- أنت جميلة..!

- شكراً..

قالتها هي، ثم لملمت أدوات القهوة في سرعةٍ وحياء، وانصرفت إلى شأنٍ آخر مثلما تنصرف غيمة لا مبالية عن حقلٍ أجدب أعياه الانتظار..

قالت لي صاحبة المقهى..

- اسمها أستير، هي النادلة الجديدة التي حدَّثتك عنها..

- مُقلَّة جداً في الكلام!

- لم تعتَدْ على المكانِ بعد، اصبر عليها . .

علِقت بذهني أكثر، وخاصةً ابتسامتها الغامضة، التي تشبه حديث النفس، ونظرتها الحادة التي تستقر على الشيء، فتصيده . .

(2)

استطاع عباس أن يُنهي إجراءات تسجيل الشركة الجديدة، في غضون يومين اثنين لا أكثر..

- تمّ كلّ شيء في لمح البصر ودون تعقيد، هذه هي دبي التي لا تكف عن إدهاشي!

قال متحمساً، وهو يرتب بعض أغراضه استعداداً للسفر إلى الصين فجراً، فرغنا سريعاً من ذلك واتجهنا صوب المقهى، وجدناه مكتظاً على غير العادة!

- سبحان مغيّر الأحوال! ماذا جرى لهذا المقهى؟

قال عباس مندهشاً، لكنني لم أقل شيئاً، لحقت بنا سارا صاحبة المقهى..

- تعال يا دكتور، يا عباس يوجد مكانٌ شاغر..

ضحك عباس، ولم نجد بدّاً من الاستجابة..

كانت أستير تطوف على الزبائن مثل ممرضةٍ محترفة، دون أن تجلس في مكانٍ واحدٍ أكثر من بُرهةٍ قليلة، تتبعها النظرات قائمةً قاعدة، لكن حين وقفنا على الباب شملتنا بنظرةٍ خاطفة..

- تبارك الخالق!

قال عباس بصوته الضخم، فانتبه إلينا المقهى كله واستدار بنظراتٍ مرحة، انتبهتُ أيضاً إلى وجود إيلسا، لم تكن وحدها، ذلك الأفريقي صاحب السيارة البورش وآخر سوداني في طقمٍ كامل وحضورٍ لافت، وفتاة كانوا حولها، وزبائن آخرون لم أعرف منهم سوى حمد المرّي، كان جالساً في ركن المقهى أقصى يسار الباب، حيث استقرّت أستير في نهاية مطافها على الطاولات..

حيتني إيلسا بابتسامة باهتة فرددتُ بمثلها، وانتبه عباس لذلك وضحك، ثم قال بصوتٍ خفيض..

- إيلسا؟ «حضارات سادت ثم بادت»!

- هل تعرفها؟

نظر إليها من جديد، فخفضتْ بصرها إلى الهاتف بين يديها، لم يكن ارتباكها خافياً..

- لا يوجد في فريج المُرر مَن لا يعرف إيلسا!

- من هي؟ ماذا تعمل؟

قلتُ بلهفة لم أستطع مداراتها، فنظر إليّ بخبث..

- أراك مهتماً بها؟

- لا شيء، مجرد فضول..

- لا عليك، سأحدثك عنها لاحقاً، لكن لم أتوقع أنها تعرف هذا الرجل!

- أي رجل؟

- إبراهيمو، أو (مو) كما يعرفه الناس هنا..

استثار فضولي أكثر. .

- . . .؟

- هذا يا سيدي يلقَّب بالبروفسور، أخطر محتال تعرفه دبي في تاريخها!

- . . .؟

- هذا الرجل يملك الآن فندقين خمس نجوم في دبي، ومنجماً في ساحل العاج، وأعمال أخرى أقل وزناً، للأسف يستدرج بعض الباحثين عن الثراء السريع، يوهمهم أنه سيضاعف لهم ثرواتهم، ثم يلهثون وراء سراب!

كبير الرأس، صغير الكتفين، بكرش ضخم وصدر مترجرج، عيناه صغيرتان محمرّتان، فمه كفم ذئب، بشفاه وردية عريضة يلعقها بلسانه بين الحين والآخر حين يتكلم، كان يحرك يديه أثناء الحديث، فلاحظت أنهما طويلتان، بكفّين ضخمتين ممتلئتين، لون باطنهما يميل إلى الوردي أيضاً. .

- ترى ذلك الذي يجلس إلى جواره ذا الطقم الرمادي الأنيق؟ اسمه مجدي، ويلقب بالدكتور، هو الرجل الثاني في الترتيب وهو المنوط به مباشرةَ الحوار مع الضحايا على أنه موظف كبير بأحد البنوك، العملية طويلة ومعقدة وتحتاج إلى شرح، ليس هذا مكانه. .

كانت سارا قد باشرت تمرير أنخاب القهوة علينا، أخذ رشفةً من فنجانه ثم أشعل سيجارةً من نوع دنهيل الفاخر، نفث بعض دخانها في الهواء والتفت إليّ مجدداً. .

- رتبة الدكتور هي أهم حلقة في هذه العصابة، هي التي تقوم

بكل شيء، وهذا الـ«مجدي» يملك الأدوات التي تساعده على ذلك، من بطاقات العناوين الخاصة، إلى بطاقات العمل المزورة، أما دور البروفسور فينحصر في غسل ما يتمّ جمعه من مال، وتخليص شركائه إذا وقعوا في ورطة..

هززتُ رأسي، فتابع..

- لا تسمح لهنّ بعد الآن أن ينادينك بلقب دكتور، فهو شبهة!

ضحكنا جميعاً، ثم انتقلت العدوى إلى المقهى كله دونما سبب، وكان الجميع يضحك..

حمد المري، كان مستأثراً بأستير، وحدهما في ذلك الركن القصي، حسدته كثيراً، لا أعرف ماذا كان يقول لها، لكنها كانت تضحك بين الفينة والأخرى، ضحكةً عذبة، تحلق فوقنا مثل موسيقى الأفلام الخلفية، منبع هذه العدوى من هناك إذن، وجود أستير نفث روحاً جديدة في المقهى..

ثمة أغنية من تراث الأمهرا المعتق، أطلقها المغني الأثيوبي الأشهر «تيدي آفرو» في ثوبٍ جديد، عندما كانت أثيوبيا تحتفل بالألفية الجديدة وفق تقويمها الخاص الذي يتأخر عن التقويم الميلادي بسبع سنين، وتحوي السنة -التي تبدأ مع مطلع أيلول/سبتمبر من كل عام- ثلاثة عشر شهراً، حيث يحتفل الأثيوبيون بنزول المطر وانتعاش الطبيعة، ويجمعون زهور الـ«أدي» البرية الصفراء ويتفاءلون بها، حدثتني عن ذلك إيلسا من قبل..

- هذا عيد الأطفال، ويسمى بـ«انكوتاتش» وهو طقس خاص، يلبس فيه الأطفال الجديد بعد أن يجمعوا زهور الـ«أدي» الصفراء

ويطرقون أبواب البيوت وهم يرددون «انكوتاتيش» فيعطيهم الناس نقوداً وحلوى، وهو عيد الزهور عندنا..

فجأةً، صرخ حمد المري مع المسجلة التي كانت بالكاد تسمع مع ضجيج الزبائن، وبصوت خشن:

«أباباي يوهوش، بالين جاروتي..

وموبيترا، إنجي سبوري

بيتوس كوسرا»..

هذه الأغنية انتشرت مثل النار في الهشيم، تسمعها في مقاهيهم وبيوتهم وسياراتهم، حتى من غير الأحباش الذين يتوافدون على فريج المُرر كانت هذه الأغنية مثار احتفائهم..

المري لم يحفل كثيراً بضحكاتنا على نشازه الجريء، وقد عذرتُه، ففي حضرة هذه الأستير تصبح الحماقة ضرباً من الفعل العاقل، التفت إلينا وقال من ركنه البعيد:

- تبدو لي هذه الحبشة أحياناً مثل قاع المحيط، لا يصل إليها الضوء دائماً، هل كان هذا خياراً أم مصيراً!؟

اصطبغت صورتهم بالفقر والجوع والحروب وأشياء أخرى، كنت أرغب في أن أسترسل في هذا الأمر، لولا أن هاتف إيلسا رنّ فجأةً، ثم صرخت..

- ويي ويي ويي تفتيش، تفتيش!

ولم تبقَ فتاة في المقهى، أو المقاهي المجاورة..

(3)

كانت حملة تفتيشٍ دقيقة امتدت لأيام، حتى خلا سوق فريج المُرر من وجوهٍ كثيرةٍ مألوفة، بعضها كان وصمةً فتخلص منها، وأخرى كانت مِلحَ أيامه فافتقدها، مثل تي جي المهووسة التي تصرخ في منتصف السوق حين يأكل عليها زبونٌ ثمن قهوةٍ أو أرجيلة فتفضحه بين خلق الله، ومثل خميس السكّير الذي أحب كل فتيات الفريج، يترك حذاءه في مقهى وقميصه في مقهىً آخر وبنطاله في مقهىً ثالث وهو يَعد حبشيةً بالزواج كل يوم ثم يقسم بالطلاق على طريقته بأن يترك شيئاً من متعلقاته لتصدِّق عودته إليها والوفاء بما وعد، ومثل سابا التي بلغت من الكبر عتياً ولا تزال تصادق مراهقين تقذف بهم أقدارهم إلى قلب السوق..

بعض تلك الوجوه وغيرها تختفي زمناً من السوق ثم تعود إليه بعد انقشاع حملات التفتيش حتى أصبح ذلك جزءاً من طقوس المكان، لكن ما لفت انتباهي أنّ كل هذه الحملات لم تتعثر مرةً بمجنون ليلى، لا أعرف أين يسكن؟ ولا يبدو من هيئته أنه يعمل، أو أن لديه عائلةً يقيم على كفالتها، يعيش في هذا السوق كالمتسول، يتسكّع بين المقاهي، يتطفّل على زبائنها، ولا أظن أن مدينةً كدبي

تتذكّر ضائعين مثل مجنون ليلى، بعض فتيات المقاهي يتهامَسْن أحياناً بأنه يحمل جواز سفرٍ أميركياً لذلك تتجنّبه الشرطة، سمعتُ إحداهُنّ تقول مرة..

- ذات مساء أخذته دوريةٌ للشرطة إلى المخفر، لكنه عاد في الصباح، قالوا إن السفارة الأميركية لا تغفل عنه أبداً!

أغلب زبائن السوق ينفرون منه، لكنني ومنذ أن رأيته وأنا أحسّ تجاهه بعطفٍ غريب، وهو أيضاً، ما أن يراني في مكان إلّا ويخفّ إليّ، ثمة شيء غامض يجعلني أتقبّله كما هو، ويربطه بي أيضاً..

دخلتُ المقهى فلم أجد فيه سوى صاحبة المقهى وحمد المرّي! وصمتٍ كئيب..

- ماذا جرى؟

وبخبثٍ لم يغب عني قالت صاحبة المقهى..

- قُبض على أستير الليلة الماضية!

وقع الخبر على مسمعي كالفاجعة..

- وكيف حدث ذلك؟

- بالأمس، خرجت لتشتري بعض أغراضها من بقالة مجاورة فقُبض عليها أسفل البناية..

- وأين هي الآن؟

عندها أشار عليّ حمد المري من مكانه الأثير في ركن المقهى..

- في أغلب الأحوال يتم الاحتفاظ بهنّ في مركز شرطة نايف

القريب من هنا ليومين أو ثلاثة ريثما يتم ترحيلهنّ إلى سجن العوير ومن ثمّ إلى بلادهنّ، ولو أنك تعرف أحداً يعمل في الشرطة يمكنه أن يساعد في إخراجها قبل بدء التحقيقات، فقبل هذه المرحلة كل شيء ممكن..

خرجتُ من المقهى وأنا أنحتُ ذهني ليسعفني بأحدهم، حتى اهتديت إلى صديقٍ صومالي يعمل في شرطة التحريات، اسمه عثمان، اتصلتُ به على الفور وشرحتُ له الأمر، طلب مني أن أنتظره في المقهى ريثما يفرغ من شأنٍ له ونتحدث في الأمر..

عدتُ قلقاً كما لو أنهم قبضوا على شخصٍ يخصني، كانت صاحبة المقهى تنظر إليّ بإشفاقٍ سخيف، ضايقني فضولها فدعوتُ المري إلى طاولتي ليشرح لي ما يجري..

- أغلب هؤلاء الفتيات أوضاعهنّ القانونية ليست سليمة، يَدخُلنَ البلاد كخادماتٍ في البيوت بأجورٍ زهيدة، ثم يهربن بسبب سوء المعاملة أو قلة الأجر، أو بسبب ما يجدنه في هذا السوق من عطايا الزبائن وغيرها من الأسباب، المهم أنّ أفضلهنّ يعملن نادلات، وبعضهنّ بائعاتٍ للهوى، لذلك تلجأ الشرطة إلى مثل هذه الحملات بين وقتٍ وآخر..

- وكيف يمكن حلّ هذا الإشكال الآن؟

- أفضل الحلول أن يتم الاتصال بكفيلها السابق للحصول على تنازلٍ منه، ثم البحث عن كفيلٍ جديد!

- ألا يوجد حلّ أفضل من نظام الكفيل هذا؟

لم يُعلّق المرّي، جاء عثمان، ومعه معلوماتٌ فاجأتني..

- أولاً جوازها صومالي وليس أثيوبي، ثانياً اسمها في الجواز هو جميلة وليس أستير! كما أن كفيلها شخصية كبيرة، مسؤولة في الدولة ويصعب الوصول إليه..

دُهشتُ، ووضعَتْ سارا كفّها على فمها، أما المرّي فضحك..

- أنت لم تعرف هذا السوق بعد، على أي حال توكل على الله وابذل مسعاك، أما بشأن الكفيل فلا تقلق، أحد أقاربي يعمل في دائرته الضيقة ويمكنه أن يساعدنا، البنت مسكينة وتستحق..

أخرج المري هاتفه واتصل بقريبه، وعدنا الرجل بإنجاز الأمر على النحو الذي نريد، شكرناه كما ينبغي واتفقنا معه على تسوية الأمر في الغد..

ولم يكذب الرجل، ثاني يوم كان التنازل بين يدي، ذهبتُ مع عثمان إلى مركز الشرطة وقمنا بالإجراءات المطلوبة، دفعتُ عنها غراماتها المالية وأفرج عن أستير، أقصد جميلة، وأصبحت حرة..

لم أكن في حاجة إلى أن أدرك أن صاحبة المقهى جشعة، وأنها لن تفوت فرصةً ثمينة كهذه لتقبل بتصحيح أوضاع أستير كنادلةٍ لديها في المقهى، طلبتْ مني ضعف ما هو مطلوبٌ أصلاً لتمنحها إقامةً قانونية، فوافقتُ ريثما تجدُ بديلاً مناسباً..

صارت علاقتي طيبةً إذن مع صاحبة المقهى، وبدأت تتبسّط معي في الحديث عن أحوال السوق، وأخبار الفتيات، فقالت مازحة:

- بالمناسبة، لِمَ لَمْ تفعل ذلك مع إيلسا؟

- وما شأنها؟

- كان مقبوضاً عليها ضمن هذه المجموعة. .

لم أجبها بشيء، فرغَتْ من تحضير القهوة ثم همست لي:

- لا تقلق، «مو» لم يقصر البتة، ثم أنها لن تعنيك كثيراً، أنت لا تشبه هذا النوع من الفتيات!

صمتت قليلاً ثم أضافت. .

- أظنها تحتفل الآن مع صديقاتها بعيد ميلادها في فندق دبي بالم!

صرختُ دون وعي. .

- وكم عيد ميلادٍ لها؟ لقد احتفلت به قبل أسابيع قليلة، هل ولدت مرةً أخرى؟

عندها ضحك المرّي ضحكةً لم أفهم مغزاها، لكن صاحبة المقهى كانت تصرّ أن تذهب بالحوار إلى نهاياته. .

- نصحتها كثيراً، بأن الطريق الذي تمشي فيه لن يوصلها إلى هدفها. .

ثم نظَرَتْ إلى المرّي وهي تبتسم بخبث، لملمت آنية القهوة وانصرفت. .

(4)

في منعطفٍ ما من منعطفاتِ حياتي كنت مُعقداً من جنس النساء!

ربما كنت غريباً، وهذا هو الأرجح، لكنني كنت مطمئناً إلى ما كُنتُ عليه، وهو الوجه الأكثر غرابة..

بعد تلك الحادثة وحتى وقتٍ قريب، لم أكن ودوداً بما يكفي مع امرأةٍ لا تخصّني، كذلك أمي، أخواتي، ومن هنّ في محيط عائلتي كُنّ في نظري وجهاً آخر لمعنى عائلة، جزءاً من نظامها الذي أوجده الله لا أكثر ولا أقل، مثلما أن هناك شمساً وقمراً، أرضاً وسماءً، نجوماً وكواكب، دون أن يعني ذلك -في ذهني- أن ثمة ضرورة إلى أن يحيا هذا بوجود ذاك أو العكس، النساء ليلِذْننا فقط، وإن لم يكن، فهنّ مخلوقات فائضة عن الحاجة!

عشتُ سنواتٍ على هذه الحالة الغريبة، كنت أستشفي خلالها لدى طبيبٍ نفسي كهل إلى أن توفاه الله ولم أتردد على غيره بعد رحيله، نصحني -يرحمه الله- بأمورٍ كثيرة، عجيبة، فعلتُ بعضها وتجاهلتُ بعضها الآخر، شعرتُ بتحسنٍ كبير خاصةً في الأعوام الأخيرة، لكنني لستُ واثقاً إلى الآن ما إذا كنتُ قد تخلّصتُ من

تلك العقدة كلياً أم لا؟ أشياء عديدة في حياتي تعثرتُ بها، ثم احتجتُ إلى وقتٍ طويلٍ كي أشفى منها، لكن لم تكن كلها سيئةً بالطبع..

على أي حال لم أكن أتوقع أن ينتميني هذا المكان في ضوضائه وعوالمه بهذه السرعة، لكن قدرته على امتصاص الغرباء، وعدم الانتباه كثيراً إلى خصوصياتهم جعل مني ذلك الغريب الأليف الذي يعرفه الجميع، لكن يجهلون تماماً من هو..

والآن أنا وإيلسا وأستير على طاولةٍ واحدة..

لما يقربُ من ساعة كانتا تتحدّثان في أمرٍ لم أُحِط به على وجه الدقة، كان الحديث كله باللغة الأمهرية، لكن يبدو من ملامحهما أثناء الحديث أنه أمرٌ جدي حتى نسيتا وجودي في المكان، ولم أهتمْ أيضاً لأقول شيئاً أو أكون جزءاً من الحوار..

انتهى فجأة، وبقيَتْ بعده أستير صامتة، يدها اليسرى مشغولةٌ بتميمةٍ جلديةٍ قديمة معلقةٍ في جيدها لم أنتبه لها من قبل، ويدها اليمنى تصب القهوة في أناةٍ وشرود كما لو كانت تحدث نفسها، بينما كانت إيلسا تحاول معي شيئاً آخر..

- في الحياة أشياء كثيرة تبدو، قريبة، سهلة، لكن ما أن تقترب منها حتى تكتشف أنها مستحيلة، لأنها ببساطة لا تخصك، جميلة هي الأشياء التي لا تخصنا!

- ليس تماماً، الأمر لا يتعلق بالأشياء بقدر ما يتعلق بنا، علينا فقط ألّا نُفرِط في رغبة الامتلاك!

قلتُ، فنهضت فجأة، امتشقت حقيبتها وخرجت، فابتسَمَت

أستير، لملمت آنية القهوة بسرعة ودخلت إلى مطبخ المقهى، غابت قليلاً ثم عادت بقهوة جديدة ومجمر بخور وطبق فوشار، وأدارت أسطوانة موسيقى، كأنما تحتفل..

- هذه القهوة على حسابي، وددتُ لو أملك شيئاً آخر لأعبِّر لك عن امتناني..

- العفو، لم أفعل الشيء الكثير، فالناس بالناس..

كانت مبتهجة، وتغني مع الأسطوانة، وكان صوتها عذباً إلى حدٍّ مدهش..

- هل تغنين؟

- أحياناً، حين يصفو ذهني، الموسيقى شيء مهم في حياتنا، هو علاج أرواحنا من أدوائها العصية..

كانت أسطوانة المقهى تشتعل بموسيقى «دوراقي» الصاخبة، وهم كما قالت لي قومٌ من الأحباش تتميز موسيقاهم بالخفة وأرواحهم بالصفاء، يُطبِقون كفوفهم على بعضها ويمدونها أمام أجسادهم وهم يرقصون، بينما يضبطون إيقاع الرقص بأرجلهم وهي تتبادل ما يشبه القفز الخفيف إلى الأمام والخلف وهم منكفئون عليها بصدورهم، ثم حين يشتعل الحماس يدفعون بأجسادهم كلها إلى الوراء وأرجلهم إلى الأمام بينما تجذف أيديهم في الهواء كما لو أنها تسبح، تماماً مثلما يفعل من يقاوم السقوط إلى الوراء، لكنها رقصة جماعية رشيقة، ممعنة في الانسجام، وكغيرهم من الأحباش تتسم رقصاتهم عموماً بحوار الأجساد، والأجساد آفة الأحباش على مرّ التاريخ..

استوقفتني جملتها الأخيرة..

- لم أفهم؟

- الأجساد هي الجزء الظاهر من ذواتنا، لكنها تحمل خصائصها بمظاهر شتى، الأجساد تعبّر عن تلك الذوات بالرقص والعنف والزهو أحياناً!

صمتت قليلاً ثم أضافت..

- تاريخ الحبشة، وأعني الحبشة التاريخية، بما فيها أثيوبيا وإرتريا وجزء من السودان والصومال، ذلك التاريخ الممتد مليء بالمفارقات والصراعات التي لم تطفىء جذوتَها مياه الأرض وذهبها وزرعها وضرعها ونفطها..

- لكن النفط حديث؟

اعتدلت في جلستها..

- ومن قال إن التاريخ قديم؟ إنه يحدث في الغد أيضاً!

- ...؟

- المستقبل هو الماضي، هو التاريخ، يتكرر بأقنعةٍ مختلفة فيظنّ الناس أنهم قد تقدموا إلى الأمام، وفي الحقيقة كل الذي يتغير هو أرقام السنوات..

(5)

اعترفت لي إيلسا وهي على سريري..

- نحن في هذا السوق نصطاد أحلامنا، فرصة عمل جيدة، مصلحة، زواج، أو زبائن، هذا السوق هو الجامعة التي نتخرج فيها، وكل ما قبلها هو مجردُ مقدمات..

ثم قالت بتبجح، إنها واحدة من أجمل وأشهر بائعات الهوى في هذا السوق وأعلاهُن سعراً!

لا أعرف لِمَ قالت ذلك وبهذه الطريقة، لكن لم يكن يعجبني هذا النوع من النساء، البغاء في ذهني مهنة باردة، متفحشة ومثيرة للاشمئزاز أيضاً، الحياء يجعل لهذا الشيء مذاقاً خاصاً، كمن يتسلق قمة شاهقة، ثم يغرز رايته ويحتفل..

لم يخطر ببالي أن أقترب من إيلسا مطلقاً بسبب ذلك، وبسبب ما جرى منها وما عرفته عنها، ربما كانت تشعر خاصةً في الأيام الأخيرة، لكنها وقعت على سريري بمصادفةٍ يصعب تفاديها..

التقيتها كعادتي في المقهى، متأنقةً شهية، في انتظار زبون لن يأتي، لأنها لم تكن تردّ على هاتفها وهو يرنّ بإلحاح، وكانت تبكي بمرارةٍ..

- أناتيي[1]، أناتيي..

عرفتُ أن أمها ماتت في الصباح وأُبلغَتْ لتوها، ولم يكن حولها من أحد..

عرضتُ عليها أن أقوم بتوصيلها إلى حيث تقطن في منطقة «حمدان» القريبة فوافقت، لكن حين وصلنا ناصية الشارع، كانت حافلة للشرطة تقف أمام البيت وصديقاتها يصعدن إليها فرادى وجماعات..

حاولت أن تفلت مني لتلحق بهنّ فمنعتها، كانت يائسة ومستعدة لتفعل أي شيء كي تعود إلى أديس أبابا، أقنعتها بصعوبة ألا تفعل، ولم يكن من أخذها إلى شقتي أي مهرب، لقد كانت في حاجة إلى من تبكي على ذراعه تلك الليلة، وقد كنت أنا..

قضت معي أسبوعاً أو نحو ذلك، قرّبني منها أكثر، ذكية، مثقفة، لماحة وكان يمكن أن تكون شيئاً آخر غير الذي كانت لو أنها نشأت في بيئة طيبة خالية من زوج عمتها التافه كما كانت تصفه، كان من اليهود الفلاشا ميسوري الحال، وأمها أرثوذكسية متدينة وجميلة، لم تكن لتقبل به لولا أنه أغراها بالحب والمال بعد وفاة زوجها الذي هو والد إيلسا، لتكتشفت لاحقاً أنه بخيل ويضايق إيلسا الصغيرة..

لكن حين كبرت البنت وانتعش جسدها مثل نبتةٍ صبية، صار يتودَّد إليها ويغدق عليها الهدايا ويتحرش بها أيضاً في غياب أمها، حتى تمكَّن من اغتصابها عشرات المرات، كانت تخفي ذلك عن

---

(1) أناتيي: أمي

أمها خوفاً من الجوع وأشياء أخرى، حتى رأته ذات مرة وهو يقبلها عنوة، فانفصلت عنه بابنتها وعوزها ومرضها. .

وضعت كل ما كانت تدخر في صرة وسلّمتها لها لتختار حياتها، فقررت المجيء إلى دبي، إلى شقق المقيمين كخادمة، ثم هربت إلى سوق فريج المُرر، الجامعة التي تخرجت منها بائعةً للهوى، لتنام الآن على سريري لليالٍ دون أن تتقاضى ثمنها!

- لكن لماذا؟

- أمي كانت مريضةً بفشل الكُلى، وتحتاج إلى ما يقرب من مائتي دولار أسبوعياً، أي مهنةٍ مهما بلغ دخلها لن تغطي نفقات العلاج ومعيشتي هنا وأمورٍ أخرى. .

جلست في منتصف السرير ركبتاها إلى صدرها العاري تحت اللحاف، ثم تنهّدت. .

- فكّرت كثيراً، ما الفرق؟ هذا الأمر جرّبته كثيراً مع زوج أمي، ومع كفيلي هنا حين تخرج زوجته وابنتاه الصغيرتان، ولن يضيرني إذا فعلته طائعة، حياة أمي ترخص لها حياتي كلها وليس شرفي، المنتهك أصلاً!

اكتشفتُ أن لبائعات الهوى حياةً أخرى، مظلمة، موجعة، ازداد حقدي أكثر على «مو» وغيره من الزبائن الذين يطأون ضحايا مرغماتٍ كهؤلاء. .

شعرَتْ بالارتياح، بأنها أزاحت حملاً ثقيلاً إلى كاهلٍ آخر، ثم بدأت تحدثني عن مغامراتها في الغرف الحمراء، مع مختلف صنوف البشر، الكريم والبخيل والسادي وأنصاف الرجال الذين لا هِمّة

لهم، عن لياليها الكئيبة التي دائماً ما كانت تنتهي ببكاءٍ مريرٍ لم يكن يراه أو يهتم له إبراهيمو أو غيره في ظلمة الغرف حين تهمد بنهاية المعركة، لتنام بعد طلوع الفجر ورأسها بين يديها..

- هل تذكر حين حدثتك عن الوسادة؟

- ...

- الوسادة هي ضميري الذي لا أحب أن يصحو أبداً حتى لا أموت من الجوع!

تذكرتُ الهدية، أخرجتها من الخزانة وجئتها بها..

- هذه الساعة كانت هديتك في عيد ميلادك، الذي لم أتشرف بحضوره..

نظرَت إليها بحنوٍّ ولبستها على معصمها العاري..

- هل كان عيد ميلادك فعلاً؟

- نعم، ويومها أحسستُ أنك سمعت عني ما لا أحب، فلم آتي على سيرة ذلك، حتى عندما كنتُ ألح في الاتصال بك، كان من أجل ما قلته لك اليوم، لكنني الآن أحمد الله أنني لم أقله، لم تكن لتصدِّقني كما أنت الآن..

قررتُ ساعتها أن أفعل شيئاً لأساعدها، لكن لم تكن لدي فكرة محددة..

- هل تملكين شهادةً، أي شهادة؟

- الثانوية فقط، درست علم النفس الاجتماعي لعامين في جامعة أديس أبابا ثم تركتها بسبب ما أخبرتك عنه..

زفرتْ هواءً من صدرها..

- صدِّقني أنا أفكر أيضاً فيما تفكر فيه منذ وقتٍ طويل، لكن ظروف أمي كانت تحُول دون ذلك، وأظن أن وقته قد حان الآن، سأرتِّب بعض الأمور وأعلمك في الوقت المناسب..

كنتُ مديناً لها بالكثير من الأمور، علمتني الكثير من مفردات اللغة الأمهرية واستطعت من خلالها التعرُّف على أهم أسرار هذا السوق العجيب، وأسرار الحبشة، الأكثر غرابةً ودهشة..

كانت تستعد للذهاب حين طبعتني بقبلةٍ حارة، وهي بين ذراعي ثم فاجأتني بجملةٍ غريبة..

- فيك الكثير من النُّبل، لكنه ليس طبعك دائماً..!

- أحب الحياة، لا أكثر..

- مع الجميع؟

- لم أفهم..!

- ماذا بينك وبين أستير؟

- ...

أستير كانت شيئاً مختلفاً، من النوع الذي أحب اكتشافه، كان يقتلني فيها ذلك الغموض العجيب، قاسية وضعيفة في آن، شيءٌ ما في حياتها حين تتذكره تتحول إلى كتلة من اللهب فتشتعل، ثم كلمة أو لمسة حانية تنقلها إلى النقيض تماماً، بتسامحٍ مسيحي ودود، فتصفو وتفيض عذوبة..

لم أقل لها ذلك، خشيتُ أن يزلّ لساني بشيء لا تحب سماعه، ولم يكن ينقصها الذكاء لتفهم..

الفصلُ الرابع

مجنونُ ليلى

«يقولون إن الحكيَ يُريحُ من الألم أحياناً، لكن هذا ليس دائماً، الحكيُ أحياناً يجلب اللعنة!»

- مجنون ليلى -

(1)

أخذتني الطاولات المشغولة إلى حيث كان يجلس السوداني مجدي وذلك الفتى الأثيوبي الذي اشتبك مع ميرغني في هذا المقهى بسبب ميمي الصغيرة تلك الليلة، جلستُ مضطراً لأن مجدي أصرّ على ضيافتي، أثار الأمر استغرابي، فهي المرة الأولى التي تجمعني به على أي حال..

- اسمي مجدي وهذا صديقي جيمي..
- تشرفتُ بمعرفتكما..

كان مجدي في كامل أناقته كما هي العادة، دائماً ما أراه في طقمٍ كامل من الحذاء إلى ربطة العنق، طويلٌ وسيم، كثّ الحواجب، عيناه مائلتان ناعستان كورقتي بامبو، جاحظتان قليلاً، وفمه صغير بشفتين ممتلئتين، سوداوين من أثر التدخين..

بحث في جيوب بدلته برفق ثم أخرج علبة سجائر من نوع مارلبورو ومدّها نحوي فاعتذرتُ بلطف، أخذ جيمي واحدةً أشعلها بينما وضع مجدي سيجارته نيئةً بين إصبعيه..

- جيمي صديقي، يحمل شهادة سكرتاريا ولديه خبرةٌ لا بأس

بها في هذا المجال، لكنه عاطلٌ منذ فترة ويبحث عن عمل، هل لديكم مكان مناسبٌ له؟

فاجأني السؤال، وكأنه يعرف طبيعة عملي أو مكانه، لكنّ طريقة السودانيين عفويةٌ في هكذا أمور، فأخذتها على بساطتها..

- للأسف ليست لدي فكرة عن سوق العمل، يمكنه أن يضع إعلاناً في الصحف وسيجد من يحتاج إليه..

صمت قليلاً ريثما تجلس أستير بقهوتها، التفت إليّ وكأنما أراد أن يختصر أموراً كثيرة..

- عباس صديقٌ قديم أعرفه منذ سنواتٍ طويلة، لكنني لم أجلس معه منذ وقتٍ طويل! متى سيعود إلى دبي؟

- لا أعرف بالضبط، لكنه لن يغيب طويلاً..

أشعل سيجارته بعد رشفتين من القهوة ثم التفت إلى أستير..

- كونجو بُنّا..

ردَّت بصوتٍ خفيض..

- أمَسَغِّينالو..

ارتشفتُ فنجاني ولم أقل شيئاً، كانت أستير تتعمد ألا تلتقي نظراتنا، لكن مجدي خبيث بما يكفي..

- ألحّ عليها منذ فترة لتشاركني سهرةً في الديسكو، لكنها ترفض، وأريدك أن تتوسط في إقناعها لتفعل.

لم أعرف بم أجيب..

- هذا شأنٌ يخصها هي، ولن يحملها أحدٌ على ما تكره إذا كانت لا ترغب فعلاً!

ابتسم. .

- الآن أدعوكما معاً، ما رأيك؟

- عن نفسي، أعدك إن شاء الله حين يكون الوقتُ مناسباً. .

ضحك، لم أحتمل أكثر من ذلك، وهممتُ بالاعتذار ومغادرة المكان، لولا أنه فاجأنا بأمرٍ آخر. .

- بالمناسبة حدثتُ الفتيات في الأمر، وهنّ لا يمانعن ريثما تعود صاحبة المكان الشاغر، وقد دفعتُ لهنّ أجرة الشهور الثلاثة المتفق عليها. .

توترت قليلاً. .

- بالمناسبة، قالت لي إحداهنّ إنك. . . إنك. . . . كلمة أسمعها لأول مرة، ولا تود ذاكرتي أن تسعفني بها الآن. .

توتّرت أكثر حتى كاد إبريق القهوة أن يسقط من يدها، وتحفزت بروحها كلها ريثما تسعفه ذاكرته، أحسستُ أن القادم لن يكون جيّداً. .

- ماذا قالت؟

- دك. . لكّا. .

وصار يضرب براحة كفه على جبهته محاولاً أن يتذكر، وهي تحثه بنظراتها، حتى صرخ فجأة. .

- تذكرت، قالت لي إنك «ديكالا». .

صرخ جيمي. .

- لا، لا. .

دفعَتْ إبريق القهوة إلى وجهه مباشرةً، تنحّى جانباً في اللحظة الأخيرة، فانفجر الإبريق على الحائط خلفه وتناثرت بقع القهوة في المكان، وفي ملابسنا، ثم هبّتْ واقفةً فجأة وركلتْ الطاولة التي أمامها، تبعثرت آنية القهوة على الأرض، وهي تصرخ..

- هي تافهة وأنت أتفه منها، هيا اخرُج، اخرُج..

ذُعر الرجل وألجمتنا الدهشة، لكنه لم يقل أو يفعل شيئاً سوى أنه كان يردد..

- أنا آسف، آسف، لم أكن أعرف..

جرتْ مسرعةً نحو المطبخ، جاءته ببعض الأوراق النقدية ورمتها في وجهه..

- لا أريد حسنةً من أحد..

نظر إلى الأوراق النقدية وقد تبعثرت تحت قدميه، عدّل من هيئته وانصرف مذعوراً، خجلاً تتابعه نظرات زبائن المقهى، وهي تصرخ..

- لا تنصرف قبل أن تأخذها..

لكنه انصرف، نظرَتْ إلى جيمي نظرةً صارمة، فانكفأ ولملمها ولحق برفيقه..

عادت إلى مطبخ المقهى تنتحب، كل من كان في المقهى لم ينبس ببنت شفة، وهَمَد كل شيء في المكان، حتى المسجلة..

مرّت فترة من الصمت لم يقل فيها أحدٌ شيئاً لأحد، حتى دخل مجنون ليلى يدِبُّ دبّاً كما يدخلُ مُدرّسٌ إلى فصلٍ مشاغب، دفتره

البُنّيُّ الأثير تحت إبطه الأيسر وعصا خفيفة بيده اليمنى، أغلق الباب خلفه ووقف، مسح المكان بنظرةٍ شاملة. .

- من الذي دلَقَ هذه القهوة؟

- هذا يوم المجانين. .

قال أحدهم، ثم لملم أغراضه من فوق الطاولة وانصرف، وتبعه رفاقٌ له كانوا يتحلقون حول إبريق قهوة. .

لم يُعلق، تلفّت مرةً أخرى حتى رآني أنظّف بنطالي من بقعٍ صغيرةٍ من القهوة فابتسم، ثم اقترب وجلس. .

- دلقُ القهوة خير يا دكتور، لا تقلق. .

-خير إن شاء الله. .

قلتُ، وضع دفتره على الطاولة ثم فتحه كما يفعل العرّافون، كانت صفحةً منسقةً، مؤطرةً في أطرافها باللون الأحمر، بينما كُتب ما في داخلها باللون الأزرق، وخُطّط أسفل العناوين باللون الأخضر، قلّب صفحتيْن أُخرييْن كانتا على ذات النسق، ثم وضع عصاه الخفيفة بينهما وأغلق الدفتر. .

- هذه السوق مثل الجُبّ، إذا دخلتها فلن تجد من يُخرجك منها، وإذا خرجتَ منها لن تعود، ستدور عليك الأزمنة، وستمرُّ عليك آلاف القوافل، لكنها سائرة إلى مصائرها لا تلوي على شيء!

ضحكتُ ساخراً. .

- ولهذا لم تستطع أن تخرج؟

- ثمة قصائد لم تُكتب، ثمة لحظات لم تقتطف، ثمة وجوه ضائعة لم ألتقيها بعد، أنا الشاهدُ الوحيد الذي لن يروي شيئاً!

لم يكن ينظر إليّ البتة وهو يتكلم، لكن حين قال جملته الأخيرة، طالعني بعينيه الخضراوين الغريبتين والضوء يمورُ فيهما مثل وميضٍ بعيد، للوهلة الأولى تظنّ أنهما ستدمعان، لكنّ إن دققت فيهما جيداً ستدرك أنّ ما حسبته دمعاً ليس إلا غشاءً رقيقاً، يُحدّقُ فيك من خلفه فتحسُّ بالنظرة حيةً، طازجة وكأنما تنضحُ بسرٍّ إلهي عظيم..

(2)

حتى الآن، لم أعد واثقاً تماماً أنني عشتُ المستقبل كما أردت، لامستُ الزمن الذي خطّطتُ أن أغيّر فيه مواضع الأشياء، ملامحها، أسماءها، أدوارها، تفاصيلها، بما فيها أنا، لم أستطع أن أقول هذا لأحد، وإن كُنتُ قد تمنيّت أن أقوله لحمد المرّي..

- يا صديقي الطيب، بعض الناس خلقهم الله طيّبين، ومن حكمته أيضاً يصبغ عليهم أسماءً تشبههم..

قال المرّي هامساً في المطعم المكتظ، كأنما يطمئنني، بالكاد سمعتُ ما قال..

- ...؟

- انظر إلى هذه الوجوه التي حولنا، لن تجد أيّاً منها لا يحمل شيئاً من اسمه..

كنا في افتتاح مطعمٍ لمجدي، حشد له الرجل -الغريب الأطوار- طيفاً منتقىً من مجتمع الأعمال والإدارة الحكومية في دبي، فضلاً عن دائرة ضيّقةٍ من مجتمع فريج المُرر، أنا والمرّي من بينهم، ولولا أن المرّي ألح، لم أكن لأجيء..

فرقة استعراضية أثيوبية كانت تقدِّم بعض عروضها على المسرح الصغير، بينما توزع المدعوون على الطاولات..

تأملتُ وجوهاً عديدة في المكان من بينها مجدي، مو بثيابه الأفريقية المشجرة، سارا، وآخرين، ولقد كان محقاً إلى حدٍّ ما..

- ليس الناس فقط، حتى الأشياء، الأماكن ربما..

قلتُ، كان اسم المطعم «حلال» مكتوباً على قوائم الطعام، الأكواب، المناديل أمامنا، رفعتُ شيئاً منها في وجه المرّي..

- وقد يكون نقيضاً أحياناً، ليشير إلى معنىً مفقود..

ضحك المرّي، انتبه مجدي من بعيد وابتسم، فوضعتُ المنديل جانباً..

كان مجدي يتجول بين الطاولات سعيداً مغتبطاً، يجامل هذا ويلاطف ذاك وفي يده كوبٌ من عصيرٍ أصفر لم يفارقه منذ أن بدأ الحفل، حينما رآنا نضحك تذكّر وجودنا فعبر طاولات كثيرة حتى جلس إلينا، فلَمَزَه المرّي..

- جميلٌ هو الاسم الذي اخترته للمطعم..

- موضوع الأسماء هذا فن، لا يجيده إلا القليل..

قال ذلك وهو يُصلح ربطة عنقه بزهو، فقال المرّي مازحاً..

- جعل الله له من اسمه نصيباً..

فضحكا، ثم شملتني العدوى فضحكتُ أيضاً، عدّل مجدي المنديل الأحمر على جيب بذلته برفق، وضع رجلاً على أخرى ثم قال بلؤم:

- أيّ درهم سيدخلُ جيبي بعد الآن سيكون حلالاً، والحلال يجبُّ ما قبله!

ضحكنا مرةً أخرى، وفي غمرة ذلك جاءت إحدى المدعوات فوقفنا جميعاً، جاملها الرجل بقليلٍ من الكلام ودعاها لتجلس، ثم عرّفها بنا..

- هذه فوفو، صاحبة أول مقهىً سوداني في فريج المُرر، ترغب أيضاً في التعرف على مرتادي السوق وأجوائه، وأنتما خير من تبدأ به، أستأذنكم..

ثم تركها بيننا وانصرف إلى ضيوفه، وضعت حقيبتها على الطاولة ثم تصدّرت الحوار دون أيّ كُلفة، تتحدث في كل شيء، السوق، المطاعم، المقاهي، الأحباش، السياسة، الاقتصاد، كما لو أنها تفهم العلاقات العامة بطريقةٍ خاطئة..

لم تغب عنّي طريقتها في الكلام، صوتها المبحوح، تتحدث بحاجبيها المقترنين، تقلّب يدها في الهواء وهي تتكلّم، ثم تضعها على فمها حين تضحك ضحكةً كالصهيل، تنظر إلى محدثها من جانب وجهها، بطرف عينيها، ثم تلك الشامة البارزة فوق شفتها العلوية، يا إلهي كم تشبهها؟

مالت عليّ لتقول شيئاً لا أذكر ماذا كان.

حين اقتربَت، قام الماضي بيني وبينها فجأة، ورأيت في وجهها وجهاً آخر يطاردني منذ عشرة أعوام، فدفعتها وخرجْتُ، تركتها لدهشتها، وتركت صديقي كذلك لا يقدر على تبرير ما جرى..

خرجتُ، لكن لا أعرف إلى أين؟ ضاقت نفسي، وأحسست

فجأةً أنني أتنفس بصعوبةٍ، وأن ظهري مطبقٌ على صدري، عبرتُ أزقة ملتوية صاخبة حتى خرجت من وسط الأبنية المتلاحمة إلى حظيرةٍ واسعةٍ مفتوحة، تربض فيها مئات السيارات مثل قطيع المواشي، عبرتها بخطىً وئيدةٍ مثقلة حتى وقفت على رصيف شارعٍ عريضٍ يضجّ بأزيز السيارات وأبواقها التي لا تهدأ، على مقربةٍ مني كان يصطف عشرات الآسيويين لعبور الشارع، انضممت إليهم ريثما تشتعل شارة عبور المشاة، فانتقلنا إلى الجانب الآخر، إلى الرصيف الذي يمتد بمحاذاة سورٍ طويلٍ ينتهي عند دوارٍ عملاق، كان مكتوباً على اللافتة «سوق الذهب - الكورنيش» فتبعتها حتى وجدت نفسي أمام البحر، فتذكرتُ بحراً قديماً . .

- هل تحبني فعلاً؟

- إلى حدٍّ يملأ الكون، ثم لا يسعه فيفيض!

- ولكنني . . .

- ولكنك ماذا؟

- أحبك، . . . وأخاف.

- مم تخافين؟

- من نفسي عليك . .

- هل أنت حورية البحر، تلك التي يصفونها في الأساطير؟

- لا يا حبيبي، بل أنا ليلى، ليلى التي انتظرتك طويلاً على هذا الشاطئ . .

- وهل تعرفينني قبل الآن؟

- مثلما أعرف نفسي!

- . . . ؟

- ينبغي أن أذهب!

- إلى أين؟

- لا يهم الآن، أراك غداً. .

وعادت إلى الظلام الذي جاءت منه، وظللتُ أرقبها على ضوء مصباحٍ يتيم، كان ينبع بخفوتٍ في قلب الحي الباهت الذي يقبع غير بعيد، حتى غابت بين أزقته. .

انتظرتها اليوم التالي فلم تأتِ، واليوم الذي بعده فلم تأتِ أيضاً، ويوماً إثر يوم حتى بلغت شهراً، ومللت وملّني البحر. .

وفجأة شعرت أن يداً سقطت على كتفي، فصحتُ مرعوباً. .

- ليلى؟

- بل مجنون ليلى؟

التفت، كان هو بالفعل، أخذتُ نفساً عميقاً، نظرتُ إليه وإلى المدينة المشتعلة بالأضواء والضجيج من خلفه، إلى فندق حياة ريجينسي يربض في المكان مثل تمثال أبو الهول، ثم إلى الأفق المظلم فوق البحر، اطمأنّت روحي قليلاً، فجلست على الرصيف، وجلس. .

- أعرف ما بك، لكن اطمئن، أنت في المكان الصحيح. .

- . . . ؟

- هذا العملاق المتلاطم المظلم، تألفه روحي أكثر من أي

شيء، كنت كلما ضاقت نفسي ألجأ إليه، ذلك في سنواتٍ خلت في مدينة اسمها بورتسودان، مدينة صغيرة، وادعة، ترقد على خد البحر الأحمر مثل شامةٍ وسيمة، تعرفها، هذا مؤكد..

أنا من المدينة ذاتها بالفعل، لكن لم أقل له ذلك، لشيء ما هجس في نفسي لا أعرف له سبباً، فقط أومأتُ بإيجابٍ فاسترسل..

- على رمل البحر التقيتها ذات مساء، كانت تشعر بالضيق كما أشعر، وكانت وحيدةً كما كنت، التقيتها كما تلتقي الفُقماتُ في موسم التزاوج، زحفَت نحوي وزحفتُ نحوها، فكان ما كان..

(3)

- أنا لم أعد أحتمل، كلّ ما نظرت في وجهه أرى وجهك، هل نسيته هو الآخر؟ هل نسيْتَ طارق؟

كان هذا بعد المأساة بكثير، عندما زرتُها في السجن، دار شريط الحكاية في ذهني وما زال يدور من ذلك اليوم دون أن يتوقف، هل تحب أن تسمع؟

قال مجنون ليلى، أومأتُ بالإيجاب..

- أشعر بالضيق، وبرغبةٍ في الكلام، منذ وقتٍ طويل لم أتكلم مع أحد..

- تكلم كما تشاء، ليس ورائي شيء هذه الليلة..

صمت قليلاً..

- يقولون إن الحكي يريح من الألم، لكن ليس دائماً، الحكيُ يجلب اللعنة أحياناً، جربت ذلك مع ليلى!

ضحكْتُ، كنا جالسَيْن على الحاجز الذي يفصل المارة عن الشط، ظهرانا إلى المدينة ووجهانا إلى البحر، إلى الظلمة..

- هل تتزوجني؟

هذا أول ما قالته بعد اللقاء الأول..

- دون تردد..

- اذهب إلى أحمد واطلبني منه، ربما تكون...

- أكون ماذا؟

- لا شيء، اذهبْ وحسب.

- وأين أجده؟

- في الميناء، يعمل مفتشاً في المناولة..

- ومن سيدلني عليه؟

- لن تحتاج إلى دليل، اذهب إلى مربط 9، أول ما تقع عيناك عليه ستعرفه..

وذهبت، وجدت ضوضاءً عظيمة عند المربط، كان جمعٌ من العمال يتحلقون حول أحدهم، ضخم القامة، ناعق الصوت، كانوا ينادونه بالريّس أحمد، فعرفت أنه هو، لم يمهلني، صاح في وجهي حين انتبه إلى هيئتي الغريبة ونظراتي المضطربة..

- وأنت، ماذا تريد؟

لم أعرف بمَ أجيب؟ ابتلعت ريقي ونظرت في وجوه العمال المكدودة اليائسة علّها تسعفني بشيء، فخذلتني..

- أريد أن أتحدث إليك..

هدأت ثورته، ترك العمال وجاء، عملاق ولا شك، أصفر البشرة، كبير الوجه بشكلٍ لافت، شاربٌ ضخم وعينان خضراوان، وشعرٌ فاحمٌ مسدلٌ على كتفيه، سار معي بلطفٍ، يداه خلف ظهره

ورأسه مطرق إلى الأرض، سرنا بمحاذاة الرصيف كما لو كنا نعرف بعضنا بعضاً، حمحمتُ كثيراً وتلفّت، ثم توكلتُ على الله..

- جئتُ إليك طالباً يد ليلى، أختك..

- وأين رأيتها؟

- لا يهم، حين يتعلق الأمر بالزواج لا جدوى من مثل هذه الأسئلة..

- حسناً، سأنتظرك عصر غدٍ في البيت لنتحدث براحتنا أكثر، المكان هنا غير مناسب..

بدا لي لطيفاً، فتفاءلت، ذهبت إليه عصر اليوم التالي، وجدته جالساً أمام البيت وإلى جواره كرسي خالٍ، فعرفت أنه لي فجلست، دخل إلى البيت وعاد بكوبي شاي، وبدأ الحديث..

- هل تعرف مَن تطلب؟

- لم أفهم؟

- ليلى هذه أنا، وأنا هي، قطعة مني، هل ينفع أن تأخذ عيني أو يدي أو كبدي مثلاً؟

كان عصبياً إلى حدٍّ مقلق..

- تأكد أنها ستكون في يدٍ أمينة، لن أكون أقل حرصاً عليها، منك..

- وهل تعرف المهر الذي تستحقه ليلى؟

- أنا رجلٌ في حالي، لكنني لن أبخل عليها بشيء وسّعه الله علي..

- مهرها روحي، تفارق روحي بدني فتفارقني ليلى، هل تفهم؟

حتى قبل أن ينطق بهذه الجملة كنت أظنه يغالي بشأنها لا أكثر، لكن أن تكون روحه مهرها فذلك ما لم يخطر ببالي مطلقاً، هل أقتله مثلاً؟ أم ماذا يقصد؟ كاد أن يصيبني بالجنون..

نادى عليها من مكانه وسمع الحيُّ كلُّه نعيقه الغريب، جاءت، وفتح بعض الجيران نوافذ بيوتهم يتطفلون..

- هل تريدين الزواج، من هذا؟

قالها بخليطٍ من الاحتقار والعصبية، تحفزتُ لأقول شيئاً، لكنها غمزت لي، فجلسْت، نظر إليها نظرةً مستعطفة..

- أنت لستِ للزواج يا ليلى، إذا تزوجتِ... سأموت!

وانفجر يبكي تحت قدميها كطفل، وتحوّل كل ذلك الصلف إلى ضعفٍ غريب أصابني بالذهول، هذا الرجل مجنونٌ ليس في ذلك أدنى شك..

احتضن أخته، وسارا باتجاه باب البيت، التفت نحوي فجأة..

- ليس لدينا بنت للزواج، شكر الله سعيك..

أغلق الباب المتهالك بقوة حتى كاد أن يخلعه من مفاصله، كان أحد الجيران أشيب وقور جالساً أمام داره، يمسك بجهاز راديو، كان يرقب المشهد من مكانه، أشار إليّ بيده فلبيت نداءه..

- يا بني، الواضح أنك ابن حلال والله يحبك، ما لك ولهذه الأسرة المجنونة، اذهب فإماءُ الله كُثر..

أخذت حالي ومشيت باتجاه الشاطئ، حيث بدأ كلُّ شيء..

(4)

كانت ليلى من أولئك الفتيات المنقبات، لا يبينُ من جسدها إلا عيناها الداعجتان الكسيرتان وأصابعها الطويلة الممتلئة، دون أن تكون لها الخيرة من أمرها، لقد كانت واحدة من رغبات -شقيقها أحمد- العديدة، والغريبة!

وهي -كما أخبرتني- نشأت يتيمةً دون أم أو أب إلا من شقيقها المخبول هذا، تولّى أمرها في غياب أمهما التي ماتت عنها وهي بعدُ صبية دون العاشرة بعد أن رحل أبوهما قبل ذلك بقليل، لكن الشقيق ومع مرور الوقت تحول إلى عشيقٍ مجنون لا يفرِّق بين دور الأخ أو الزوج!

في تلك الأيام كُنتُ مستاءً جداً من أحوالي المضطربة، تخرجتُ من الجامعة في العاصمة الخرطوم ثم عدتُ إلى مدينتي بورتسودان على شط البحر الأحمر، مكثت فيها أعواماً دون عملٍ أو وظيفةٍ مناسبة حتى وجدت عملاً مؤقتاً في الميناء، خسرتُ بسبب ذلك حماسي إلى الحياة، إلى جانب أحلامٍ أخرى صغيرة، عذبة تلاشت مع مرور الأيام..

تهتُ كثيراً بين ضجيج الناس وجلبة الحياة، قبل أن أهتدي إلى

فكرة الاعتزال، هربتُ قانعاً إلى حواف العتمة، إلى الشاطئ المهجور، أجلس كل مساء على رمله الناصع، حيث تتناهى أضواء البيوت البعيدة عند أقدام ظلمةٍ عاتية تمتد من الأرض إلى السماء، وحيث يبدأ البحر هيّناً رقيقاً قبل أن يتّحد مع تلك العتمة، فيشكلان كتلة هائلةً من الرهبة والجبروت لا يمسك بأطرافها إلا إلهٌ جبار، أشكو إليه ضعفي وقلة حيلتي، كل ليلة..

كنت ألتقيها هناك كل يومٍ تقريباً، ويمتد لقاؤنا من بعد العشاء إلى قرب منتصف الليل، موعد عودة شقيقها ثملاً من مجلس شراب، لينام معها كما ينام الزوج مع زوجته، ثم يبكي تحت قدميها عندما يطلع النهار، ندماً أو اعتذاراً أو بلاهةً، الله أعلم!

بين النور والعتمة رأيتها في تلك الليلة تحاول الانتحار أكثر من مرة، تبتعد عن البحر قليلاً ثم تجري نحوه باندفاع، لكن حين تقترب منه تخور قواها فتقع في أحضان الرمل وتبكي، حاولَتْ ذلك مراراً، لكنها كانت تفشل في كل مرة..

في بادئ الأمر حسبتُها جنيةً من أهل هذا البحر الذين تجري بسيرتهم الأخبار والأساطير فخفتُ وهممتُ بمغادرة المكان، لكن حين سمعتها تنتحب بمرارةٍ مفزعة، أيقنتُ أنها ضعيفة، لا حول لها..

بعد ذلك بدأت تقصّ عليّ فصول حكايتها المفجعة مع شقيقها المريض، حتى نسيتُ فجائعي..

- لا بدّ أن يكون هناك حلّ..

فقالت بيأس..

- لا حلّ، إما أن يموت هو أو أنا!

وفي الحقيقة، كانت كل الحلول العاقلة غائمةً ومحيرة أيّما حيرة، فهي من ناحية تخشى الفضيحة، وأكثر منها تخشى عليه، فالبرغم من كل ما فعل ويفعل، كان كل ما تملك في هذه الدنيا! الأخ والأهل والعائلة والمعارف..

كانت تظنّ أنه مريض يستحق العطف، وعلى نحوٍ ما كانت تعاني من متلازمة ستوكهولم، لكن حين يستبدّ بها اليأس كانت تتمنى الموت لأحدهما، ولنفسها أكثر..

هذا التناقض الذي كانت تعيشه أطال من مأساتها أكثر، ومن جانبٍ آخر ساعدني في تبديد فكرة الانتحار التي كانت تسيطرُ على تفكيرها يوماً بعد يوم، حتى أنِسَت لأحاديثي مع مرور الوقت وأنِستُ لحكاياتها أنا أيضاً طوال عامٍ كامل امتدت فيه علاقتنا إلى حدود الالتحام..

رمى كلٌّ منا بثقل همومه على كتف الآخر ووضع يده على يده طوال ساعات لقائنا القصار، نجلس أو نتمشى على رمل البحر، أو في الأزقة المظلمة من حي أبو حشيش حيث كانت تقطن، أو منتصف الليل في الطريق إلى سجنها المقيت، أوَدّعها عند بابه، وأمضي..

- أحبك، أحبك، أحبك..

كانت تقولها في الليلة الواحدة عشرات المرات، خاصةً في الشهر الأخير، قبل وقوع المأساة، وأنا أسمعها كما لو كانت تعني شيئاً آخر، هل ينبتُ الحب في وحل الأوجاع؟ هل يُرى في جوف

الظلمة؟ في لجة اليأس وانعدام الأمل؟ كانت تعني أغثني، ساعدني أو نحواً من ذلك لم يكن يخالجني أدنى شك في تفسيري الخاص لهذه الكلمة، وقد حاولت، لكنّ شقيقها المعتوه حال دون ذلك، لم يكن حباً، ربما كان شفقة، أكثر ما كان يؤلمني في حكايتها، أن أراها توغل في البحر والعتمة وأنا لا أملك حيلةً تعيدها إلى الشط، أو ما يحملني إليها لأعيدها..

ذات صيف، امتدّ غيابها عن الشاطئ أياماً طويلة فقلقتُ عليها، طفتُ عشرات المرات بالأزقة التي تحيط ببيتها مثل درويش مجذوب، ولم أهتدِ إلى ما يدلُّ على وجودها خفتُ أن تكون نفّذت ما عزمت عليه، لكن ذات ليلة رأيت شقيقها ثملاً يطرق الباب بعنف ويصرخُ منادياً عليها حتى فتحتْ له الباب، فاطمأنيت..

في اليوم التالي، انتهزتُ فرصة خروجه كعادته إلى مجلس الشراب، فطرقتُ الباب طرقاً خفيفاً، فلم تفتح، ثم واصلت الطرق أقوى فأقوى فلم تفتح أيضاً، يئستُ وعدتُ أدراجي ألوذ بالشاطئ الذي ضاق عليّ وحدي رغم اتساعه، ثم كررتُ المحاولة في اليوم التالي والذي يليه، إلى أن سمعتُ صوتها ذات ليلة..

- من؟

- هذا أنا..

- اذهب أرجوك!

- لن أذهب حتى تفتحي..

وبعد إلحاحٍ فتحت الباب ودخلْتُ، ككل بيوت المدينة يقودك الباب مباشرةً إلى الصالون، وهو طويل وذو سقفٍ بعيد أشبه بكنيسة

عتيقة، مكتنزٌ بالكتب من أسفله وحتى حلقه، مرتبة ومتراصة في أرففٍ متلاصقةٍ على جانبين منه..

- تفضّل..

فجلسنا على أريكتين متقابلتين تفصل بينهما طاولة صغيرة، ثمة لوحات زيتية كبيرة، لافتة، معلقة على الجدران، مراكب في عرض البحر، وسط أمواج، شجرة يابسة وغربان متفرقة على أغصانها كأنها أوراقها، ونساء في حداد، كآبة يصعب الإفلات منها تملأ الصالون العجيب..

كانت مطرقةً وكأنما تحدث نفسها، على وجهها آثار كدمات لم تفلح في إطفاء الوهج الذي يمور في جسدها كله..

- لمَ تخاطر بنفسك هكذا؟

- من أجل هذا!

كانت المرة الأولى التي أراها فيها دون نقاب، دفنت قامتها الطويلة في الأريكة، ثم ضمت ساقيها الممتلئين المنحوتين إلى بعضهما ووضعت فوقهما منكبيها فمال نصفها العلوي كله إلى الأمام، بينما انسدل شعرها الفاحم الطويل على كتفيها وظهرها المائل إلى ردفيها البعيدين مثل رداءٍ أسود، زاد بياض بشرتها فخامةً وبهاءً، بينما كان الحزن الذي رأيته في عينيها أول يوم لا يزال على حاله، يسيل على وجهها كله حتى كاد أن يقتله، حاولت أن آخذ بيدها إلى النور..

- ما هذا يا بنت ال...؟

ضحكت ضحكةً مبتورة، وأطرقت إلى الأرض مجدداً..

- يا إلهى، لم أرَ في حياتي مثلما أرى، هل هذا ما يصفونه بـ «ملاكٍ في قبضة جان»!

ابتسمت خجلى ولم تجبني..

- من يقرأ كل هذه الكتب؟

تأمّلتْها بنظرة باردة..

- أنا، بل نحن، هذا هو الشيء الوحيد الذي نتفق عليه..

تنهدت..

- هذا هو الشيء الوحيد الذي أطلبه ولا يتردَّد أحمد في تلبيته مطلقاً، أقضي نهاري كله بين هذه الكتب التي ترى، لا عائلة، لا صديقات، لا جيران، لا أحد، هذا هو عالمي!

نهضت من مكانها فجأةً، مال جسدها كله إلى الأمام ثم تبعته أردافها، رفعت رأسها فمال صدرها إلى الوراء ثم استوت على ساقيها حتى عليتْ بشموخٍ، فنهضتْ روحي كلها معها، ضجّ قلبي بوجيبٍ مفرط واضطردت أنفاسي كما لو كُنتُ مهراً تُعجزه فرسٌ موسومة بالدلال والأنِفة، وفي لحظةٍ عابرة -غادرتني فيها إنسانيتي- حسدتُ أحمد، «بعض الجنون يُعذِر» قلت لنفسي..

أطفأتْ نور الصالون وجلسَتْ، ولم يبق إلا بصيصٌ من نور كان يتسرب من مكانٍ ما في فناء البيت، فقالت وكأنما تعتذر..

- الضوء الكثيف يضايقني كثيراً، يكفي نورك اليوم..

ابتلعتُ ريقي ولم أجبْها بشيء، كنت أعرف أنها تهرب من شيء ما تلتقي عنده نظراتنا تحت الضوء، وأنا أيضاً كُنتُ أفعل، استعدتُ توازني بصعوبة ثم عُدتُ أفكر في حالها..

أيّ آدمية هذه؟ وأيّ مرضٍ هذا؟ يمكن أن يحول الأخ الشقيق إلى وحشٍ مفترس؟ ويُحوّل ضعيفةً عاجزةً كهذه إلى ضحيةٍ تموتُ بالتدريج؟ دون أن يدري بحالها أحد! لكن ها أنت تعرف الآن، ما الذي بوسعك أن تفعله؟

- أرجوك، لا تفكر بهذا الأمر كثيراً.

- مَن في قلبه ذرة من الآدمية لا يمكنه أن يتجاهل أمراً كهذا لأنه...

- التفكير في هذا الأمر سيقودك إلى ما ظللتُ أفكّر فيه، وهو مرهقٌ لن تحتمله صدقني..

- آخذ عنك عبء التفكير على الأقل، ففيك ما يكفيك..

عندها دَخَلَتْ في نوبةٍ من نشيجٍ مُرّ امتد لما يقرب من ساعة، لم أدرِ ما أفعل، بعد طول تفكير قمتُ من مكاني وجلستُ إلى جانبها، هممتُ أن آخذها بين يدي، لكن ما أن لمستُ كتفها حتى دفعتني بكلتا يديها مذعورة، فنهضتُ من جوارها لا أعرف من جديد ما أفعل، دقائق مرت وأنا جالسٌ في مكاني أتأملها، ثم وقفتُ أعتذر..

- متأسف، لم أكن أقصد شيئاً آخر..

اقترب موعد عودة شقيقها فخرجْتُ، ممتلئاً بها وبمأساتها وبحقدٍ عظيمٍ على شقيقها، ولو أنني التقيته ساعتها ربما قتلته، ولم أكن أعرف ساعتها أنني قد أتورّط في شيء كهذا في يومٍ من الأيام!

(5)

اقتربتُ منها أكثر، إلى حدودٍ تلاشت فيها الحدود، وتوغلتُ في مغارتها أكثر، إلى حيث لم يصل الشيطان نفسه الذي كان يوسوس لي ولها وله بأمورٍ كثيرة..

ذات مرة تجاوزت الصالون إلى الغرفة الوحيدة التي تقبع في ركن البيت القصي، حيث يمارس شقيقها أحمد ساديته المؤلمة كل ليلة، وحيث لم يدخل هناك أحدٌ من جنس البشر إلا أنا، تجرّني إلى مصائري، أقداري العجيبة..

الغرفة مثل المقبرة، بل مثل بيت الغول، لا نوافذ لها ولا متنفّس، ستائرها الزرقاء الداكنة المموجة تغطي كل حوائطها من الداخل بإحكام، سقفها وكما الصالون بعيدٌ جداً، أرضيتها رملية باردة، مثيرة للقشعريرة، ويتوسطها سريرٌ واحدٌ عريض، لا يوجد في الغرفة شيء آخر غيره، تراه فتحسبه مركباً قابعاً في قاع بحر..

شعرتُ بالدوار، بالغثيان، خرجتُ ولم أفعلها ثانيةً إلا في الليلة الأخيرة، ليلة المأساة..

استغرقني الشاطئ، بصمته ورحابته، وعتمته، وكتمانه للأسرار، كانت آخر ليلةٍ جمعتني بها في ذلك الشاطئ مكثفةً ومشحونةً

بالإثارة، اقتربنا من بعضنا أكثر، وتحولت المواساة المفرطة إلى حميميةٍ دافئة، كنتُ كلما هممتُ بالتوقف عند لحظةٍ ما، كان شيطاني حاضراً. .

«أنسب لحظةٍ تدنيك من جسد المرأة ساعة حزنها، حين تضع رأسها على كتفك، ثم تضمها إلى صدرك، ثم تصبح ممارسة الحب قمة المواساة، الحزن ينعش النساء أحياناً!». .

لم نشعر يومها بالوقت، حتى عبر الليل خطّ المنتصف، كانت ممددةً على الرمل مثل غريقٍ نجا. .

- هيا، لا بدّ أن تعودي. .

غرست أصابعها في الرمل أكثر، كما لو كانت تتشبث بالمكان. .

- سأنام هنا الليلة!

- سينتبه شقيقكِ إلى غيابكِ، وقد. . .

- ليفعل ما يشاء، لم أكن سعيدةً في حياتي كما أنا اليوم، ولا أود لهذه اللحظة أن يفسدها أي شيء. .

بعد إلحاحٍ طويل، نهضَتْ وقفلنا عائديْن نحو البيوت، وعند أول الطريق الذي يقود إلى بيتها سمعنا نعيق شقيقها وصوت أشياء تتحطم، تأبطتْ يدي وأسندت رأسها على كتفي. .

- لن تتركني مهما حصل، أليس كذلك؟

ربّتُّ على يدها. .

- مهما حصل بإذن الله، مهما حصل. .

ثم ودّعتها عند الباب وهممتُ بالمغادرة، لكن لم أستطع، كان نعيق شقيقها يملأ الفضاء، وصراخها أيضاً قد بدأ..

لا أعرف كيف جرى ما جرى، لكنني وجدت نفسي بينهما في قلب الحوش الفسيح، ويداي تمسكان برأسه الغليظ، وجبهتي تنطح فيه بهستيريا غريبة، حتى سال الدم من رأسيْنا، وهو يتراجع إلى الوراء مع كل ضربة حتى سقط على الأرض مثل ثورٍ ذبيح، ثم أوسعته ركلاً برجليّ، وهو يتلوى على الأرض ويتقلب إلى أن دخل الغرفة العجيبة، ما أن رأيتها حتى طفح حقدي، لم أعد أرى أو أسمع، ولم أعد أتذكر مما جرى سوى عراكنا فوق رمل الغرفة، ثمة جماجم صغيرة، عظام نحيلة، كانت تلفظها الأرض في وجوهنا، وشبح ليلى تقف فوق السرير بوجهٍ لم أره لها من قبل، جامدٍ، متحفّز، ثم رأيتها فوق رأس شقيقها أو صدره لست متأكداً، حتى وعيتُ على جلبة الجيران وصفير سيارات الشرطة والإسعاف..

- قتلَه، قتلَه، قتلَه..

انتهيتُ إلى السجن، وهو إلى المقبرة، ولم أدرِ ما حدث لليلى إلا بعد وقتٍ طويل، لقد كانت قضيةً شغلت الرأي العام كثيراً في تلك المدينة الصغيرة النائية، وبدأت الكثير من تفاصيلها المخفية تتكشف لاحقاً، شيئاً فشيئاً..

في تلك الليلة اليتيمة على الشاطئ، حبلت ليلى مِنّي، بطفلٍ أسمته طارق، هكذا قالت، لا أعرف الآن أين هو ، ولستُ مهتماً!

علمتُ بكل ذلك في قاعة المحكمة، وعلمتُ أيضاً أن ليلى أنجبتْ من شقيقها ثلاثة أطفال، كانت تلدُهم في تلك الغرفة، ثم

تقتلهم كما تفعل القطة مع صغارها، وتدفنهم تحت ترابها، وهي التي قتلت شقيقها أيضاً، لا أنا..

اعترفَت بذلك أمام القاضي، فسيقت إلى سجنها وأفرج عني، ثم قرأتُ في الصحف بعد ذلك أنها انتحرت في السجن..

المهم، سألني القاضي ماذا أريد..

- لا شيء، أريد أن أخرج..

لم أكن أعرف إلى أين، وجدتُ عملاً في إحدى السفن فهربتُ إلى هذا البحر الجبّار، جبتُ هذه الدنيا طولاً وعرضاً، عشتُ في اليونان لعامين وفي إسبانيا مثلهما، ثم عبرتُ المحيط باتجاه أميركا وعشتُ هناك ما يقرب من عامٍ ونيّف، وفي كل ذلك لم أجد مكاناً يسعني، كُنتُ كلما رسوتُ على مرفأ وجدته شبيهاً بمرافئي الأولى حتى رسوتُ هنا..

صدقني، أول مرةٍ دخلتُ فيها هذا الفريج سقطَتْ عن كاهلي كل تلك السنوات، غادرتني روحي الأولى وبدّلتني بآخر، فهجس في نفسي، هذا هو المكان..

ضحك من أنفه ساخراً..

- يراني الناس هنا فيحسبون أنني مجنون، وربما تكون مثلهم، لكنني لستُ مهتماً، هذه الطريقة تجعلني في مأمنٍ من كل شيء، من الماضي، من الغد، ومن نفسي أيضاً..

الفصلُ الخامس

حكاياتُ الفريـج

«هذا السوق مملكة إبليس، تحسُّ لوهلة أنك ترى الأشياء
على حقيقتها، تلمسها، تشمها، ثم تتحول فجأةً إلى أشباحٍ
كأنها لم تكن»

- بيْتي -

(1)

جاءني حارس المكتب في الصباح..

- فتاة أثيوبية، تقول إن اسمها «بيتي» تودّ مقابلتك..

لم أتذكر الاسم..

- دعها تدخل..

كانت الصبية التي قابلتها وعباس في مول الإمارات، جلسَت أمامي وقدمت لي رزمةً من الأوراق..

- اسمي بيتي، فقدتُ وظيفتي المؤقتة منذ أسبوعين، تذكرتُك فقلتُ عسى أن تساعدني..

صوتها الطفولي الذي ملأني بمشاعر الأبوة يومها لا يزال على حاله، نحيلاً، ضائعاً، قلّبتُ أوراقها بين يدي ثم سألتها كما ينبغي لمثلها أن يُسأل..

لم أُفاجأ حين أخبرتني أنها كانت خادمةً هربت من سيدها، ثم سلكت طريقاً قديمةً انتهت بأخواتٍ لها في فريج المُرر، ومصائر أخرى أقلّ صيتاً..

ما عساني أفعل؟ حاولت أن أعتذر منها، لكنها حاصرتني..

- أرجوك أي عمل، أستطيع أن أهتم بتنظيف هذا المكتب وتقديم الشاي والقهوة لك ولضيوفك إن أحببت، أهلي ظروفهم سيئة فلا تردني..

وافقتُ، لكن لم أجد بداً من أن أبقيها بالمكتب طوال الوقت، خصصتُ لها غرفةً صغيرة تجاور المطبخ لتنام فيها، وشرحتُ لها كل ما ينبغي عليها فعله لتهتم بعملها وتكون آمنةً، بعيداً عن كل العيون..

كان حمد المرّي يلحّ في الاتصال، قال إنه ينتظرني في المقهى لأمرٍ عاجل، طلبتُ من بيتي أن تهتمّ بالمكتب ريثما أعود، وذهبْتُ..

جو المقهى في ساعات النهار غريب لم أعتدْه، مثلما يختلف طعمُ الأشياء على الصائم بعد إفطاره، كان طعم القهوة غريباً أيضاً، لكن كلام المرّي أغرب..

- يا رجل يا طيب أحتاجك في أمر..

- قل ولا تتردد..

- سأبوح لك اليوم بسرّ عمري الذي لم أقله لأحدٍ من قبل، وأحب أن أسمع رأيك في مشكلةٍ عصية وقعت فيها، طردَتْ النوم من عيني!

- قل يا رجل أوقعتَ قلبي..

نظر حوله جيّداً، وضع ما كان على رأسه، الشماغ وتوابعه على حجره، كان رأسه الأصلع ينزّ بالعرق، مسحه بكفيه ثم نزل بهما على وجهه الواجم، المرهق..

- باختصار، أنا متزوجٌ منذ خمسةٍ وعشرين عاماً عن قصة حب أسطورية، لو قُدِّر لها أن تُحكى لصارت أشهر من قصص ألف ليلةٍ وليلة، تعاهدنا في أيام العمر الندية تلك على الرباط الأبدي، ألا يترك أحدنا الآخر مهما كانت الظروف، مهما تبدّلت الأيام، أن يقوم هذا الخاتم مقام الروح، متى ما خرج من هذا الأصبع خرجت هي على أثره..

أذكر أني وأحلام كنا على قاربٍ لأبي في عرض البحر، كان ذلك في أول الشتاء، نزعت «شيلةً» كانت على رأسها ونزعتُ غُترتي وربطنا بهما حجرين إلى بعضهما، وألقينا بهما إلى القاع وتابعناهما إلى أن ابتلعتهما اللجة المظلمة، قلتُ لها لو قُدّر لأحدهما أن يطفو إلى السطح ذات يوم سيكون بمقدور أحدنا أن يترك الآخر، وقالت لي أموت قبل أن أرى هذا يحدث..

- أحبك حمد..

- أحبكِ أحلام..

الخاتم بقي في مكانه كما ترى، لكن ذلك الحب صار قيداً، لي ولها على السواء، ثمة فراغ بدأ صغيراً في بطنها ثم تمدّد حتى ملأ علينا البيت، أقام بيننا، كلما أشرقت شمس اتسع أكثر حتى استباح حياتنا طولاً وعرضاً..

ذلك الفراغ المقيت كان أمامي في امتداداتٍ لا نهائية، هربتُ منه -أول ما هربت- إلى هذا المكان حيث التقيتُ سلام والتقيتك..

المهم، لم تنجب أحلام إلى اليوم، ولا أحد يعلم بأنها لا تُنجب إلا أنا، أهلي وأهلها يظنون أن التقصير مني، أو هكذا قلنا

لهم حتى لا يجرحها أحدٌ بالكلام، لكن كلانا لم يفكر بالطلاق أو الزواج، فبيننا ما بيننا، وبين عائلاتنا أعرافٌ وسوالف يصعب القفز فوقها..

قبل تسع سنوات تعرفت في هذا المقهى على سلام، بنت أمهرية جميلة، طفولية الوجه، قمحية اللون، باذخة الأنوثة، فرحتُ وقلتُ في نفسي هذه هي، وسيغفر الله لي، وستغفر أحلام أيضاً ذات يوم، نشأ بيني وبينها ما ينشأ بين الرجل والمرأة، استأجرتُ لها شقة وخصصت لها راتباً شهرياً حتى تبقى في البيت دون عمل، كانت ظروفي المادية جيدة جداً وكنت أمرّ عليها بين وقتٍ وآخر، أقضي معها يوماً ويومين أحياناً..

لكن بعد هذه المساكنة بعامٍ تقريباً أخبرتني أنها حامل في شهرها الثاني، لا أعرف كيف أصف لك شعوري حين علمتُ بالخبر، لم أصدق البتة أنني يمكن أن أكون أباً بعد كل هذه السنوات، لم أفكر مطلقاً في مراجعة طبيب أو عمل أية فحوصات بسبب وضعي الحرج، وبسبب وضعها القانوني المائل، لم أفكر في أي شيء، سوى في تلك المضغة التي تخلقت في جوفها من عدم، لقد غطّت فرحتي العارمة على كل شيء..

فكرنا قليلاً ثم اهتدينا إلى أن تضع مولودها بعيداً عن هنا، فاقترحَتْ عليّ أن تعود إلى أهلها في أديس أبابا ثم ننظر في الأمر لاحقاً، ووافقت..

شاء الله أن تضع مولودها، وقد كانت بنتاً فأسميناها سارا، ثم طلبتُ منها أن تبقى بها حيث هي ريثما أتدبر أموري وأخبر أهلي، لا

يمكنك أن تتخيل طاقة الفرح التي ملأتني عندما سمعتُ صوت بكائها على الهاتف، فبكيتُ أيضاً..

كبرت البنت عاماً بعد آخر، وواظبت سلام في إرسال صورها، أتحدث إليها عبر الهاتف وتناديني «بابا» إلى أن بلغت الآن ثمان سنوات..

قبل أشهر أخبرتني سلام أنها وابنتها يعيشان في بيت والدتها، مع شقيقتها وزوجها وأولادهما، كبر الأولاد وضاق البيت ولم يعد يحتمل، ففهمتُ أنها تودّ أن يكون لها بيتها الخاص فأرسلتُ لها المال، ما يعادل مائة ألف دولار عدّاً ونقداً حتى تشتري بيتاً مناسباً لها ولابنتها، وبدأتُ أفكر في أن أنضمّ إليهما حين تكون ظروفي مواتية، الأمر كما تعلم حلم حياتي الوحيد الذي جاء في آخر العمر..

دمعتْ عيناه، مسح خديه برفق بأطراف الشماغ الأحمر، وخفّت صاحبة المقهى بكوب ماء وعيناها ترفرفان من الفضول، شرب قليلاً واسترسل..

- اتصلت بالأمس لأتحدث مع سارا، فاجأني أحدهم، قال إنه لا ينبغي أن أكلمها لأنها لا تخصني، قال إنها ابنته، وإنه زوج شقيقة سلام، وأن الأخيرة كانت تكذب عليّ طوال هذا الوقت لتحصل على المال..

صعقني الرجل، فاتصلت بسلام لأتبيّن منها فلم ترد، فأعدتُ الاتصال بزوج شقيقتها مجدداً، كيف يعرف كل ذلك ولم يفعل شيئاً طوال الوقت؟ لا بدّ وأنه شريكٌ في هذه اللعبة وهذا الاحتيال،

أخبرني وكما لو كان يعتذر، بأن العوَز أجبرهم على الاستمرار في هذه اللعبة، المال الذي أرسله كل شهر هو الذي تعيش عليه الأسرة كلها، وأن الأمور كانت تسير وفق الخطة إلى أن أرسلتُ المبلغ الأخير لشراء البيت، فدبّ الخلاف بين الجميع، وصار النزاع على أشده بينه وبين سلام حول ملكيته..

لا أعرف كيف أتصرف الآن؟ ليس من أجل المال ولكن من أجل سارا، من أجلي، هل كانت ابنتي فعلاً؟ وهل كنتُ أباً لها طوال تلك السنوات؟ هل يكفي أن يقول لك أحدٌ إنك لست أباً لتكون كذلك؟ يخامرني شكٌّ في أنها كذبة أخرى لسرقة حلمي، لسرقة ابنتي، كما سرقوا مالي، فهل ترى شكي في محله؟..

احمرّت عيناه، وبدأ جسده يرتعش، جئته بالماء وشرب..

- لا عليك، سنجد حلاً بإذن الله، اهدأ فقط وأمهلني بعض الوقت، العجلة في هكذا أمور غير مفيدة بالمرة، فما حدث قد حدث..

- أفكر بالذهاب إلى أديس أبابا، هل يمكنك أن ترافقني؟

- بإذن الله أفعل إن احتاج الأمر، الآن اذهب إلى بيتك ونتحدث لاحقاً على مهل، أعطني رقم هاتف سلام فقط وسأكلمها في المساء إذا كان هذا لا يزعجك..

أخرج من جيبه ورقةً عليها أرقام هواتف، سلمني إياها دون أن ينظر إلى ما فيها ثم قام وئيداً، تكاد ساقاه لا تحملانه، تأبط شماغه ومشى مهزوزاً فاقد الاتزان، كما لو قام من وعكةٍ طويلة..

(2)

اكتشفتُ بعد ذلك، أن المقاهي خلال ساعات النهار غيرها في ساعات المساء، وتكاد تخلو من أولئك الزبائن المشاغبين الذين يشغلون معظم مقاعدها في هدر الوقت والمال، و-لحسن حظي- كان مقهى الزمن خالياً حتى من سارا التي لا تفارقه إلا لماماً، ولم يكن فيه غير أستير، وأنا..

زاد انتباهي لها أكثر، إنها قليلة الشبه بالأمهرا في ملامحها وانتباهها الزائد، ثمة غموض في رزانتها وصمتها، مع مسحة وقار تمنحها عمراً فوق عمرها الذي لم يتجاوز الخمسة والعشرين عاماً في أحسن الأحوال، وكانت صفحة وجهها مع ضوء النهار صافية، رائقة..

- لو أعرف أن النهار يجعل منك ما أرى، لما ترددتُ أبداً على هذا المقهى في المساء!

ضحكَتْ بصمت، بغرورٍ خفي، وانشغلت عني بأنخاب القهوة، فانتهزت الفرصة لأسترسل فيما دار بذهني..

- هل جئتِ من السماء فعلاً؟

ضحكت ضحكة مسموعة، رفعت رأسها ونظرت في عينيّ بتركيزٍ ودود ثم قالت بمرح..

- سؤالٌ غريب، ماذا تظن؟

- لا شيء، مجرد فضول!

- إذن أمهريّة، من غورٍ بعيد في رحم الزمن، قطعة بلور في عرش سبأ ذلك الممرّد بالقوارير والمغسول بماء الذهب، سقطَتْ في بئرٍ سحيق عمقه ثلاثة آلاف عام، لتلتقيك هنا، في هذا القاع! هل يكفيك أم أزيد؟..

ثم ضحِكَتْ حتى شَرِقَتْ، كانت لحظةً مسروقة، لولا أن جرثومة الأنساب -التي يتنزى بها عقلي- تسللت إليها لتفسدها، فسألتها بخبث وقد تسربت إليّ وشاية بشأنها من إيلسا التي لا تحبها..

- هل أنتِ أمهرية نقيّة؟

خيّل إليّ أنه استفهامٌ معتاد، خاصةً وأن معظم الفتيات في هذا السوق العجيب لا يحملن أسماءهنّ الحقيقية، فيستعرْنَ أسماء مثل حنان، زهور، حياة، ياسمين لتسهُل على الزبائن مناداتهنّ من جهة، وليخفين هوياتهنّ الحقيقية من جهةٍ أخرى، سؤال الهوية من أكثر الأسئلة توقعاً في فريج المُرر، لكن على العكس لاحظتُ أنه أربكها، فقالت بمرحٍ كالغيظ المكبوت:

- ونسبي منقوشٌ بطلاسم حِمْيَرية مقدسة في ساقي بلقيس المترعتين بالخصوبة، تلك التي أغوت مملكةً بأسرها ولم تنقَدْ إلا لسليمان، ملك الإنس والجان، فتزوج «سلمون» من «سابا» وأنجب

«منيليك الأول» الذي اندلقت بعده سلالات الأمهرا النقية عبر التاريخ، لتتحصن بالهضاب الحبشة المليئة بالخصوبةِ والأسرار والغرائب. .

كنتُ أنظر في عينيها وهي تتكلم، أطيافُ انكساراتٍ قديمة كأنما استيقظت فيهما فجأةً وهما تحدّقان في الفراغ، لم تفلح نبرة الاعتزاز التي صبغت بها صوتها في إخفائها، أطرقت إلى الأرض قليلاً ثم التفتت إليّ. .

- إيلسا من حدّثَتْكَ بشأني، صحيح؟ لن تكذب عليّ طبعاً؟!

نسيتُ مع غروري ما قالته لي إيلسا تلك الليلة، أنهما من قريةٍ واحدة، ودرستا المرحلة الأوليةَ في حجرةٍ واحدة، والأهم أن إيلسا هي الوحيدة التي تعرف أستير جيداً في دبي كلها!

ذلك اليوم حوّمتُ في حديثي معها بشأن أستير، ملامحها، غموضها، فقالت لي بغيرةٍ فجة، باستعلاء:

- إن في ماضيها ما يجعلها أقلّ شأناً في نظري، ولو أعجبتك!

- أنتِ شريرة!

أذكر أنها ضحكَتْ. .

- بل أنت الذي طيّب، الدجاجة مهما علا شأنها لن تصبح بطةً يوماً!

ضحكتُ. .

- لكنكم تهتمون بتربية الدجاج أكثر؟

- نربّي الدجاج لنأكله، لأنه بلا قيمة، أما البط فيذكّرنا بعزّنا الذي أفل، ألم أقل لك إنك طيب؟

ربما ساذج، هذا ما استحت أن تقوله إيلسا، ظننتُ كثيراً أن العقدة التي بيني وبين النساء مجرد مسافة لا أكثر، لم يخطر ببالي أبداً أن عزلتي الطويلة قد بدلتني بآخر، حتى انتبهتُ فجأةً إلى صوت أستير..

- هل جرّبتَ أن تسير إلى الأمام وأنت دائم النظر إلى الخلف، مخافة أن يصدمك ما وراءك؟

- لم أفهم؟

- أتريد فنجاناً آخر؟

- بكّا[1]، أمسغينالو..

لملمَتْ ما كان أمامي من آنية القهوة وتركتني وحدي لتستعصم بمطبخ المقهى، لم أجد بدّاً من الرحيل حتى تنسى أو أجد فرصةً مناسبة لإصلاح ما أفسدته تلك البطة، إيلسا..

---

(1) بكّا: يكفي.

(3)

- . . .

- دبي يا سيدي حلم، أكذوبة، صنعها فقرُنا فصدّقناها. .

- . . .؟

- ذات ليلة لا أنساها ما حييت، هبطت بنا الطائرة في دبي، أنا وصويحباتي، ثم دلقتْنا حافلة متعجلة على رصيفٍ باردٍ مكتظّ بالمارة ومحاطٍ بالأبنية الزجاجية الشاهقة، كانت عيوننا مشدوهة ومعلقة بنهايات الأبنية التي ابتلعها الظلام، أبنية لامعة وبأشكال هندسية غريبة لم نرَ مثلها في حياتنا، ولا أعرف كيف شيَّدوها؟ ربما تقيأتها ماكينات عملاقة في المكان، هذا أول ما خطر لي!

أيدينا ممسكة بأدبار القمصان اليتيمة مخافة أن ينفرط عقدنا، أقدامنا تضطرب، ولم تتعود السير حينئذٍ في أرصفة المدينة وشوارعها الملساء، المدهونة بأضواء السيارات ومصابيح النيون. .

استدرجتنا صورُ صديقاتنا اللائي سبقْننا إلى هنا، في أماكن مختلفة، نظيفة، ناعمة، فحلمنا بها، عملنا هناك ليل نهار حتى نوفر المبالغ التي تأخذنا إلى دبي، بل ومنا من عملت عاماً كاملاً بعد مجيئها حتى تستطيع تسديد ما عليها لوكالات الاستقدام. .

المهم، فعلت فينا الصور فعل السحر، وتعلقنا بدبي، المدينة العجيبة التي لا ترد قاصداً، فالمدن أيضاً تُعشق وتُشتهى ولها رائحة تعلق بسقف الذاكرة طويلاً، وتلك حكايةٌ أخرى..

نزلنا من الحافلة ثم دَلفْنا إلى مخزنٍ بشري عملاق ترد إليه مثيلاتنا وتغادره أخريات، يتوزّعن خدماً على قصور الأثرياء وشقق المقيمين، التي تغلق أبوابها على حكايات كثيرة، مليئةٍ بالخير والشر..

دخلْنا إلى بيت النمل ذاك صفاً صفاً، وحُشرنا بالعشرات إلى جحور صغيرة متلاصقة، دفعْنا حقائبنا الباهتة إلى تحت الأسِرّة وفوق الخزانات الخشبية المتداعية، علها تعود، وقد تبدلت -ذات يوم- بأخرى أكبر حجماً حُبلى بالخبز وبالدراهم، لتتناسل أجيال الفقراء في ذلك الخزان البشري العملاق في أرض الحبشة، بعيداً عن عيون العالم، المغمضة عن بعض أعضائه الجوعى..

عملتُ خادمة في أحد القصور، أصحو قبل الجميع وأنام بعدهم، أطعمهم وأغسل لهم، وأسترهم كما يحبون، كنت أقوم بكل شيء، الحياة خارج أسوار القصر كما كنت أراها في الصور غيرُها في داخله، كانت كرامتي تتآكل لتُسمن ذلك القصر الفسيح، والمحصّلة حين ينقضي الشهر دراهم معدودات لا تعوّض عن بعض ذلك، أو تُنسي رهق يومٍ طويل قصم ظهري في ذلك القصر الذي يتسع لعشرين عائلة من قريتنا ببغالهم ومعيزهم ومتاعهم..

قضيت فيه ثلاثة أشهر بالتمام والكمال، ثم هربت إلى سوق فريج المُرر، عملتُ -كغيري- نادلةً تقوم على خدمة الزبائن، لكن

معظمهم يفهمون هذه المهنة بطريقةٍ أخرى، فلم أستطع أن أبقى فيها طويلاً، تركتُ العمل لأشهر، لكن كدتُ أموت من الجوع، وكاد ابني الوحيد الذي تركته لأمي في أديس أبابا أن يهلك هو الآخر!

فقلت مندفعاً:

- وهل كنت متزوجة ولك ابنٌ أيضاً، وفي هذا السن؟

ابتسمت بألم..

- نحن غيركم، البنت عندنا مثل الولد، وعليها أن تتدبر أمرها بمجرد وصولها إلى سن النضج، تعمل، تزرع، وتحارب أيضاً إذا دعت الضرورة، وأحياناً يُطلب منها ما لا يطلب من الفتى، والمحظوظات طبعاً، من يتوفر لهنّ عائلٌ يعينهنّ على إكمال تعليمهنّ وهنّ قليلات على أي حال..

أطرقت قليلاً، ابتسمت بألم..

- هل تصدق؟ كنت أحلم أن أكون أديبة عظيمة، منذ صغري أهوى القصص والروايات والأشعار، وحين دخلتُ المرحلة الثانوية كنت أعدّ نفسي لهذا الأمر، كان كل حلمي أن ألتحق بكلية الآداب بجامعة أديس أبابا، لدرجة أنني عملتُ نادلةً في نادٍ ليلي حتى أتمكن من توفير مصروف الدراسة..

ذات مرة عرض لي أحد الزبائن، رغم صغر سنه، ضآلة حجمه، كان يبدو عليه الثراء فأغراني، وقد كُنتُ مقبلةً على الحياة بحسن ظنٍّ كبير، وعدني بإكمال دراستي لو أنني تزوجته، وقد حدث، لكنني اكتشفت لاحقاً أنه لم يكن كل ما قال، كان قواداً، وقبل ذلك نزيلاً في مصحةٍ نفسية، عمري وقتها لم يتجاوز السادسة

عشرة، لكنني نجحت في تغيير مسار حياته شيئاً ما، لكنه فشل هو في الوفاء بأقل وعوده كلفة، فأنجبنا ولداً يحيط به الفقر من كل اتجاه، أصرف على نفسي وعليه وعلى ولدي المريض وأمي هناك. .

وبدأت تنتحب. .

- لا عليك بيتي، هذا شأن الحياة. .

- شأن الحياة أن تعطي وتأخذ، لكنها تأخذ دائماً. .

- ستعطي يوماً، عليك بالصبر. .

لم أعرف كيف أعتذر، طلبتُ منها أن تقترح مكاناً نتغدى فيه، فاعتذرَتْ أول الأمر، لكن بعد إلحاح اختارت أن نذهب إلى مطعمٍ أثيوبي قريب، فراقت لي الفكرة. .

في الطريق كلمتها بشأن ما حدث لحمد المرّي، لكن دون تفاصيل، ودون أسماء. .

- هو الذي يُلام على أي حال، الغفلة لا تُعذر. .

صمتت قليلاً، وضعت يدها الصغيرة فوق جبهتها تحتمي من وهج الشمس ثم مالت نحو ظلٍّ صغيرٍ ممتدٍ أسفل حائطٍ طويل يأخذنا إلى باب المطعم، كانت تسير أمامي بخطواتها القصيرة المتقاربة، بقدمين منفرجين إلى الخارج كقدمي بطريق، تضع ثقل جسدها على كعبيها فتحطّ ردفاً وترفع آخر، كانا ردفين مستديرين ممتلئين ومرفوعين إلى الأعلى في بنطالٍ من الجينز المحزّق، وكأنما شعرَتْ بوخز نظراتي عليهما، تمهّلَتْ قليلاً حتى أصبحتُ في موازاتها. .

- هذا السوق هو مملكة إبليس، تحس لوهلة أنك ترى الأشياء

على حقيقتها، تلمسها، تشمها، ثم تتحول فجأةً إلى أشباح كأنها لم تكن، هل تعرف أن شهرة هذا السوق طفقت أثيوبيا كلها من أقصاها إلى أقصاها؟!

كنتُ مقطّباً وجهي من أثر الشمس، حتى لاح لي أعلى نحرها، ينحدر منه مجرىً صغيرٌ يقود إلى عتمةٍ لا تدركها الأبصار، عقدت يديْها تحت صدرها فجأةً فمال على بعضه وامتلأ، ابتلعتُ ريقي ثم وضعتُ كفي فوق عيني أداري بها سوء ما أصنع..

- قد تأخذ الأمور بعض الوقت، لكن سيعود الحق إلى أصحابه في نهاية المطاف، اطمئن..

قالت، فانشرحت نفسي، وانفتحت شهيتي قليلاً بمجرد وصولنا إلى المطعم، جيء بقائمة الطعام فتركتها تختار لآكل على ذوقها..

- متأسفة، لم أكن أود أن أقول كل ما قلت اليوم تحت أي ظرف، ولم أقصد به الحصول على شيء، لكن إلحاحك غلبني..

- لا بأس، اعتبريني أخاً..

ألحّتْ بمرح أن تضع اللقمة الأولى في فمي من يدها، قالت إنها إحدى طرائقهم في الاحترام، لكن اللقمة كانت مشحونة بالفلفل الأحمر الحار الذي تشتهر به أطباقهم فألهبت فمي وابتلعتها دفعةً واحدة حتى كدتُ أشرق، أخذت بعدها جرعة ماء ثم بدأت آكل ببطء كما لو كانت شهيتي مسدودة..

لقد كان طبقاً ضخماً من «الزّغْني» الحار، قطع صغيرةٍ من اللحم مطبوخة مع قدرٍ هائل من البصل المفروم وصلصة الطماطم، ومفروشٌ تحتها خبز «الإِنْجيرا» الرقيق المستدير بمساحة الطبق كله،

ظللتُ أتأملها وهي تأكل، كانت تعجن الإنجيرا بالصوص جيداً ثم تلقمُه فمها، بينما غطى وجهها الطفولي عرقٌ كثيف، كراتٌ صغيرة من العرق تتجمع على بعضها ثم تنهمر، فأخذت بعض المناديل ومسحت لها وجهها برفق فانتبهت خجلى وضحِكَتْ، ثم بدأت تأكل باستحياء. .

لا أدري، كنت مملوءاً بعاطفة جديدة وأنا أفعل، وكان في عينيها نظرة امتنان، وعاطفة غامضة لم أنتبه إليها من قبل، وإلى من كان يراقبُنا في تلك اللحظة!

وحين قمتُ إلى الصندوق، فوجئتُ بأن الفاتورة مدفوعة. .

(4)

في طريقي إلى المقهى صادفتُ بعض الشباب، أثيوبيَّيْن وسوداني يوزعان إعلاناً لحفل، أخذتُ واحدةً بين يديّ ودخلتُ المقهى . .

طوال الأيام الفائتة كانت أستير تتجنّبني، ما أن أجلس حتى تدفع سارا لتقدِّم لي قهوتي، لكن اليوم وبمجرد أن جلست، غادر الزبون الذي كانت تقوم بخدمته وكانت صديقاتها الأخريات منشغلاتٍ مع آخرين، فلم تجد بدّاً من إعداد قهوتي وتقديمها . .

جئتُ بالأساس وفي ذهني أن أقول شيئاً يذيب جليد الأيام الفائتة، لكن لم أكن أعرف من أين أبدأ؟ . .

جاءت بالقهوة وجلسَتْ صامتة، وضعت فنجان القهوة أمامي ثم عادت إلى المطبخ لتأتي بشيء، فنظرت في الإعلان فإذا هو أنسبُ ما يمكن البدء به، لكنها سبقتني بالكلام . .

- لا تغادر حين تفرغ من القهوة، أود أن أتحدث إليك . .

- تكلمي، أسمعك الآن . .

- ليس الآن، دع المقهى يخفّ قليلاً . .

شربتُ قهوتي على مهل، وهي مركزةٌ نظرها على نقطةٍ مجهولة في الحائط المقابل، بينما كانت يدها اليسرى تداعب تلك التميمة الجلدية المعلقة في جيدها كما هي عادتها، فجأةً قامت من مكانها كما لو أنها تذكرت شيئاً، دخلت إلى مطبخ المقهى ثم عادت بأسطوانة وقامت بتشغيلها على الفور..

كانت مطربةً ذات صوتٍ عميق، سمعتُها كثيراً لكني لا أعرف اسمها، أغنيات الأسطوانة من نوع تلك الألحان التي تضجّ بالألم، لها علاقة بإحدى مآسي أثيوبيا العديدة، ولم يخِب ظني حين سألتها..

- هذه المطربة اسمها إيفين، وكل أغنيات هذا الألبوم مستوحاة من مآسي الحروب التي حدثت في الحبشة، لديها دائماً موقف منحازٌ إلى السلام، إلى الإنسانية في كل أعمالها، أحبها كثيراً..

فقلتُ فرحاً:

- هذه المطربة ستقيم حفلاً نهاية الأسبوع في شيراتون دبي، هي ومطربٌ سوداني كبير، هذا هو الإعلان، انظري..

ضحكَتْ..

- هل أطمع في دعوتِك..

قلتُ، نظرت إليّ مجدداً نظرةً ودودة، بوجه عابسٍ مرح، كما لو كانت تمازح طفلاً:

- ألْفَلّيقيم[1]..

(1) ألْفَلّيقيم: لا أريد، لا أرغب.

- إذا كنت لا ترغبين فلا بأس، أذهب وحدي..

ضحكَتْ مرةً أخرى..

- هذا ما كنت أود أن أحدثك بشأنه، لم أكن لأذهب وحدي..

غمرني ذلك بزهوٍ مريح..

- فلتكن الدعوة على حسابي إذن..

عادت إلى مرحها مجدداً..

- طبعاً، لا بد أن تكفِّر عن ذنبك، هل تظنني نسيت؟

- لم أنس، لكنك لم تعطني الفرصة لأقول كل ما لدي..

- دع هذا الآن..

وكأنما تقبل الصلح على طريقتها، بدأت تدندن بأغنية سودانية بصوتها العذب وبلسانها الحبشي المعوج..

خلاس كِبرتي، وليك تساتاشر سنة

عمر الزهور، عمر الغرام

عمر المُنى..

تحولت نشوة القهوة في رأسي إلى ما يشبه السُكر، انفجرتُ أغني معها، بصوتٍ نقيضٍ خادش، تضايق من كان موجوداً بالمقهى لوهلة، ثم انفجروا جميعاً بقهقهةٍ مرحة ..

(5)

استيقظتُ بعد نومٍ طويل عند الثامنة تماماً، نشيطاً مغتبطاً، غداً عطلة نهاية الأسبوع، وأنا على موعدٍ انتظرته طويلاً، مع ليلةٍ ندية وفّرتْني لها مئاتُ الليالي العجاف، أخذَتْ أنضر أيام العمر ومضت، ليتها لا تعود..

تأنقتُ ونزلت سريعاً، انتظرتُها على الرصيف جوار المطعم الإيراني كما اتفقنا، جاءت بعد انتظار قصير وقفزت إلى جواري، -ولأول مرة- حيَّتني بقبلتين منعشتين على خديَّ بطعم النعناع، كانت أنثى فوق أنوثتها، وكنتُ ممتلئاً بحضورها إلى الحد الذي ذكّرني بغيابي الطويل..

- هل تأخرتُ عليك؟

- ليس كثيراً، فقط العمر كله!

فابتسَمَتْ، ثم أطرقت خجلى دون أن تقول شيئاً، مُذ عرفتها وهي هكذا، لا تتكلّم حتى تفقد الأذن لهفتها وشهيتها للسمع..

لماذا تتأخرين دائماً؟!

- ...

دخلنا قاعة الحفل ولم تلتهب أجواء الطرب بعد، جلسنا حيث أمكننا أن نرى كل شيء بارتياح، كانت الفرقة فوق المسرح، تدوزن آلاتها الموسيقية وتستعد ريثما يأخذ الجميع أماكنهم، خليط من الأجناس الأفريقية تملأ القاعة، شباب وفتيات من مختلف الأعمار، كانت القاعة سمراء، تمور بالحنين إلى الاستواء، وإلى شموسه البعيدة الحارة..

ثم بدأ المطرب السوداني الشهير يغني، وتصاعد بالطرب حتى استبدّ بالجميع فأشعل المكان، لفظت المقاعد شاغليها، إلا مني ومن أستير..

غنى كما لم يغنِّ من قبل، أنهى وصلته ثم صعدت إيفين بخفةٍ كالفراشة، فهمَدَ المكان من جديد..

- «مساء الخير، أنا سعيدة هذا المساء بالغناء أمامكم وبرفقة فنان أفريقيا الأول، نغني اليوم تضامناً مع ضحايا الحرب على جانبي الحدود بين أثيوبيا وإرتريا، نواسي كل من فقد عزيزاً في هذا العبث، وكل من فقد وطناً سرقته أيدي الخاطفين ولم يعُد»..

قبّلها المطرب السوداني بإعجابٍ وترجّل..

وعلى إيقاع الفالس بدأت إيفين تغني، انطلقت بصوتها الدافئ لتبدِّد كل مشاعر الفرح والطرب التي سادت المكان لبعض الوقت، ولتنتزع من العيون دموعاً دافئة كانت تُذرف في سخاء على وقع كلماتها وألحانها، فتحول المشهد بكامله إلى تراجيديا سوداء..

«ألَمْ تروْها؟
طائرات الموت

كانت تقصف كل ما تحتها،
فتحيله في لمح البصر الى رماد.. ألم تروْها؟
المدافع الصماء
كيف كانت تتبادل دويّاً عقيماً،
يصم آذان الجبال..
وتلك أشلاء متناثرة،
وأولئك أطفال حفاة،
ونصف عراة،
يضيع بكاؤهم في جلبة المعركة،
قطرات دموعهم تجفُّ،
لحظة سقوطها على الحصى الملتهب،
بين أرجلهم الحافية..
إنهم يقتلون الحياة،
إنهم يبشروننا بغدٍ بطعم الموت،
بطعم العدم!»

كل تلك الصور كانت تخرج من صوتها الجبلي العميق، واضحةً دونما حاجةٍ إلى مترجم كما لو كانت تستخدم ريشة رسمٍ، لا حُنجرة، لكن أستير كانت تترجم لي على كل حال..

فجأة، قفزَتْ من جواري وصعدت إلى المسرح، احتضنت إيفين وتعانقتا طويلاً حتى توقفت الموسيقى، وتوقف كل شيء، تماماً..

فاجأني المشهد كما فاجأهم، ومدّ الجميع أعناقهم، ومددتُ عنقي، وأعيننا تدور مع دورانهما حول بعضهما على المسرح وهما غارقتان في العناق والبكاء، انتهى العناق، أمسكتها إيفين من يدها وسارت بها نحو مقدمة المسرح..

- هذه صديقتي المناضلة العظيمة، أستير قيرما..

وصفَّقت القاعة كالمطر، وأستير تلوّحُ بيدها وتجتهد أن تبتسم خلف دموعها وبكائها حتى اختلط الفرح والحزن على وجهها وتجاذباه طويلاً، فأضافت إيفين:

- يوماً ما، ناضلنا معاً وغنينا معاً، وهتفنا معاً، ضد الحرب وضد الغوغاء..

صفق الناس وصفقتُ معهم، بيدين لم تكونا لي في تلك اللحظة، لم أكن أنظر إلى أستير على المسرح، بل في عيون الناس حولي..

من هي هذه الـ«أستير»؟ هل أعرفها فعلاً؟ تدخل معي إلى القاعة نادلةً، ثم تتحول في غمضة عين إلى مناضلة يصفق لها الآلاف بحرارة؟ إلى هذا الحد تخبّئ -فجائع الحروب- شعوباً أخرى داخل الشعوب لا نراها؟ كيف تغادرني ثم تأتيني بأخرى لم ألتقيها من قبل؟

عادت إليّ من جديد تحملها نظراتهم، وهي عبثاً تقاوم نشيجاً لم ينفجر إلا على صدري في اللحظة التي عادت فيها الموسيقى إلى الاشتعال وإيفين إلى الغناء، فانشغلوا عنّا قليلاً، وأجهشَتْ بالبكاء..

رفعتُ رأسي من جديد، أيّ أبلهٍ أنا؟ وأي فتاةٍ هذي التي في حضني؟ أأكذوبةٌ هي أم أنا؟ لم نستطع أن نصمد كلانا فخرجنا، لكن لم نكن وحدنا هذه المرة، كنا قافلة من حكاياتٍ قديمة وسنواتٍ معذبة..

لا أعرف كيف وصلنا! أو دخلنا شقتي! لم أستشرها طوال الطريق ولم تعترض، ارتمت على أقرب أريكة، ودفنت وجهها بين ركبتيها تنتحب..

لا أعرف كم من الوقت مرّ علينا دون أن نتحدث، انتابني شعور بأننا نقترب من لحظة لن تكون كسابقاتها، لحظةٍ ثيوصوفية محضة، تفصل بين حياتين، بل بين حيواتٍ عديدة..

وقفَتْ كممثلةٍ مبتدئة ينفتح الستار عليها للمرة الأولى..

« -لا يمكن لأي إنسان أن يُعتبَر، بأية درجة من درجات العدل، مسؤولاً عن عواقب ولادته، إنه لا يطلب أن يولد، كما أنه لا يستطيع أن يختار الوالدين اللذين سوف يهبانه الحياة، إنه من كل وجه، ضحية بيئته، ابن ظروف لا قِبَل له بها، وإذا جرى استقصاء كلٍّ من ذنوبه بإنصاف لوُجِدَت تسع حالات من عشر كان فيها هو الذي اقترِفَت الخطيئة في حقّه، ولم يكن الخاطئ»..[1]

صعدتُ إلى المسرح واقتربت منها..

- تسعٌ من عشر، هذا هو العدل، اقتربي..

أحسستُ بنتوء حدودها على صدري، لامسني وارتعش،

(1) هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي 1831-1891م، مفتاح الثيوصوفيا.

ارتجفت الوردة وسال رحيقها، ثم ضممتُها، أشم عبيرها في عناقٍ طويل..

سمعتُ هتافاً وتصفيقاً، ثم أظلم المسرح وأغلق الستار..!

(6)

- حروب الحدود فوضى باهظة الثمن، لا معنى لها، الملايين في هذا العالم ماتوا سدىً، في نزاعاتٍ على أراضٍ جرداء في حروبٍ عبثيةٍ طويلة كالتي جرت بين إرتريا وأثيوبيا، هل رأيت؟ كأنه عراكٌ بين أصلعين معتوهين، على مشط!

فقلتُ أجاريها..

- هكذا هي تخوم الحدود بين دول العالم الثالث تتشابه في كل شيء، إلى حدّ التطابق..

رسمت بإصبعها ما يشبه المربع في الهواء..

- نحن نصنع من الحدود حقيقة مع أنها وهم، لدينا إحساس بأن الخطر يأتي من خلفها وهو في الأصل موجود في داخلها، خذ إسرائيل مثلاً..

كنتُ أنظر إلى السقف وهي بين ذراعي، وكمن يُلهمه وحي..

- إسرائيل شيء مختلف، ذلك الجدار الذي بنوْه بطول حدودهم لم يكن لدواعٍ أمنية كما ادعوا في العلن، كان للحدّ من شغف المستوطِنات الإسرائيليات بالفحولة الفلسطينية، يريدون أن

يأمنوا شر تلك الخصوبة التي تنام خلف الأسوار، هكذا يحافظون على نقاء العنصر اليهودي..!

ضحكَتْ من أعماقها لهذه الكذبة التي جرت على لساني فجأة حتى شرِقتْ، وضحِكتُ أيضاً..

صمتنا قليلاً، رفعت التيمية الجلدية التي كانت ترقد بين نهديها إلى وجهها، تتأملها بأسىً..

- ما هذا؟ دائماً أراه على صدرك؟

لم تجب، كانت تقلّبها بين يديها حتى سقطت دمعةٌ صغيرة انتهت إلى أذنها..

- هنا شيفرتي!

أشارت بسبابتها إلى التميمة وأدرات وجهها نحوي، فتغيّر طعم الكلام فجأة..

- لازمتني هذه التميمة من أول أيام حياتي، لكنني لم أفكر في فتحها يوماً!

- ...؟

- أخاف، لم يحن الوقت بعد..

- ممَّ؟

- لا أعرف، لكن هذا آخر من بقي من أهلي، إذا فقدته سأفقد كل شيء!

كانت تبلع ريقها بصعوبة، وكنتُ أسمعه، ثمة غصة كانت تصعد وتهبط دون أن تتلاشى، كأنما تتأرجح فوق بركانٍ من الكلام يمور في صدرها..

- أَلَنْ تقولي شيئاً؟

مسَحَت بعض العرق عن جبهتها، ثم توسدت ذراعي جيّداً..

- ربما، لكن ليس كل شيء، فأنا أخاف أن أحكي..

- لا بأس، ها أنا أسمع..

قبّلَتْ تميمتها من جديد، ثم بدأت تقلّبها بين أصابعها، وكأنما تلهمُها وترتب أمامها المشاهد..

- يا سيّدي، لقد كان قدري وكنت قدره، أنا لم أختره وهو أيضاً لم يكن يتوقعني، عرفته في ليلةٍ باردة في ضواحي أديس أبابا، في كوخٍ صغير كان يئن تحت وطأة المطر، تتهدده الرياح من كل جانب، وتتوعده صاعقة شريرة بالحريق في أية لحظة..

كان أول ما علق بذاكرتي وأنا لم أزل طفلة، لم تتجاوز بعدُ الرابعة من عمرها، رائحته، صوته، حمحماته، قامته المديدة التي كانت تقترب من سقف الكوخ وكأنها هي التي تشده إلى الأعلى، كنت أراها بوضوح عندما يتحرك، يدخل أو يخرج، يتبعه ضوء البرق ويتسرب من تحت الباب..

كان الشاويش قيرما محارباً في قوات الدرق الأثيوبية، قضى معظم حياته على الجبهات الأمامية، يقاتل الثوار الإرتريين، يلاحقهم من جبل إلى جبل ومن قرية إلى أخرى، لم يتح له ذلك حياةً مستقرةً كغيره، ولم يكن هو الآخر يهتم لأن يكون شخصاً آخر غير الذي كان، رغم إلحاحِ أمه التي كانت تسوّق له فكرة الزواج، كلما جاء لزيارتها في إجازة أو مهمة..

وذات صباح، وفي قريةٍ من قرى الساحل الإرتري، بعد أن

هدأت أصوات المدافع وتوقفت حممُ النيران، أمره قائد المعركة أن يدخل بالفصيل الذي كان يقوده ليلقي نظرة، لم يكن يعلم وقتها أنه على موعد مع قدرٍ آخر سيغير حياته، وإلى الأبد..

كانت القرية صامتةً وخاليةً من الحياة، إلا من بعض أصوات النيران وهي تلتهم ما بقي من الحطب والحصير الجاف، وكانت تتصاعد إلى الشمس أعمدةٌ طويلةٌ من الدخان، تخرج من أسقف البيوت المحترقة، وتنتهي إلى فتحات صغيرة بين السحاب يتسلل منها ضوء الشمس..

كان كل شيء متفحماً تقريباً، الضحايا والجثث على الطرقات، بعضها يتدلى من أسقف البيوت، وبعضها الآخر على عتبات الأبواب، وبعضها تحت الركام، لقد أبيدت القرية عن آخرها في تلك الليلة، لم تكن معركة متكافئة بأي حال، كانت مذبحةً أسقطها التاريخ..

فجأة تناهى إليه صوتٌ خافتٌ متقطع، لم يستطع تمييزه، عاد ليتفقد المكان من جديد، ويمر على الضحايا واحداً بعد الآخر، حتى اقترب منها، كانت جثة هامدة، وشبه عارية، اقترب أكثر، وجد فوق صدرها طفلة لم تكمل بعد عامها الأول، مغمضة العينين، تمسك بثدي أمها البارد بكلتا يديها، ترضع في هدوءٍ ومناغاةٍ خافتةٍ متقطعة، وكأن ما جرى لم يكن يعنيها في شيء..

كاد قلبه أن ينفطر، وقف برهة غير مصدق، تدلّى فكه الأسفل حتى كاد يسقط، وتذكر فجأةً كل المعارك التي دخلها وخرج منها، منتصراً أو مهزوماً، مرة باسم الوطن، ومرة باسم الوحدة، وأخرى

باسم الاشتراكية، ومرات عديدة باسم الشيطان دون أن يدري، مرّ عليه شريط حياته بكلّ مآسيها..

اقترب منها، واكتفى برهة بالتأمل، وكأنه ممثل محترف يؤدي دوره بحذق أمام كاميرا حميمة، اعتاد عليها واعتادت عليه..

جثا على ركبتيه، حمل الطفلة برفق، مسح وجهها وقبّلها، ضمها إلى صدره طويلاً، ثم بكى..

وصرخت الطفلة التي لم تكن تعرف اسمها تلك اللحظة، ولن تعرفه أيضاً طوال عمرها..

قرر الشاويش إنهاء خدمته في الجيش، ليعيش ما بقي من حياته ينعم بدفءٍ ساقته الصدفة إليه، فكبرت البنت غريبة، بين أهلٍ لم تشعر بينهم بدفءٍ مماثل..

توقفت عن الكلام، تنهدت قليلاً، أسندت ظهرها إلى الحائط نصف عارية، والتميمة لا تزال بين يديها..

- وفي العام 1991 للميلاد بلغتُ العاشرة من عمري تقريباً، وهو تجاوز الستين، ضعيفاً يصارع مرض الكبد، وكان الراديو إلى جواره، ينقل أخبار المعارك..

كان ثوار التقراي والأورومو يقتربون من أديس أبابا، والثوار الإرتريون يقتربون من أسمرا، كان يسمع ولا يتكلم، وكأنه يعرف النهاية المحتومة، بين حينٍ وآخر كنتُ أسمعه يسخر من تلك الجعجعة العظيمة التي كان يسمعها في الراديو بضحكاتٍ أليمة..

لم تكذبه الأيام، ولم ينتظر طويلاً كي يشهد تلك النهاية،

سقطت العاصمتان تباعاً، يومها بكى، لم أعرف وقتها إن كان حزناً أم فرحاً!

ناداني ونادى أخته التي ستصبح عمتي وأوصاها بي، كان صوته متحشرجاً يخرج بألمٍ ومن لحظةٍ بعيدة، أمسك بيدي ودسّ فيها هذه التميمة وأغلقها، ثم حكى عن كل شيء، ضمّني إلى صدره وأجهش بالبكاء..

ثم أجهشتْ -بين ذراعيّ- ملء صدرها، الذي كان يعلو ويهبط مثل موجٍ حرَّكته سفينة ضخمة، كانت نوبة نشيجٍ طويلة لم تخمد إلا مع طلوع الفجر..

قبّلت تميمتها ثم نامت على صدري، كما لو أنها تخففت من حملها الثقيل..

(7)

ثلاثة أيام قضتها معي، كان كل يومٍ فيها يعدل سنواتٍ من عمرها، حكايات كانت تستدعيها من مكانٍ ما في ذاكرةٍ مليئةٍ بالندوب، وفي الليلة الأخيرة كادت أن تقول كل شيء، وكأنما قررت أن تضع ذلك الحمل على كتفٍ آخر وتستريح. .

جلسَتْ في منتصف السرير وجلستُ إلى جوارها، أمسكَتْ بيدين باردتين كلتا يدي، ثم بدأت تتمتم بكلمات غير مترابطة، وكأنها تريد أن تقول أشياء كثيرة في جملة واحدة، أن تنتقي من أحداث كثيرة متداخلة أشياءً ما، لكنها لا تعرف من أين تبدأ، ثم قالت. .

- بدأت الحكاية في مركزٍ للشرطة حين دخلنا عليه ذات صباح، كان ضخماً وأصلع له رأسٌ مصقولٌ مثل بطيخةٍ مستديرة، يكاد كرشه يشق قميصه وينفلت من بين فتحات أزراره التي تتماسك بمعجزة. .

- ما اسمك؟

- أستير. . أستير قيرما تيزارا. .

- عمرك؟

- خمسة. .

- ما اسم أمك؟

- واينشت كيداني . .

- ماذا تعمل؟

- متوفية . .

- إلى أي المجموعات السكانية ينتمي والداك؟

- أمهرا، قوجّام . .

- كلاهما؟

- نعم . .

لقنني أبي كل ذلك، فقلته بدوري لذلك الضابط البدين المرتشي، وبعد أيامٍ قليلة أصبحتُ أثيوبية بموجب الوثائق الرسمية . .

لم أكن أعرف حتى ذلك الوقت شيئاً عن حياتي وعن كل الذي حولي غير أنه أبي، وأن زوجته التي هي أمي المفترضة قد ماتت، لكن بعد سنوات طويلة، وحين أرجع بذاكرتي إلى تلك الفترة أقول في نفسي، ليتني عشت ما بقي من عمري على تلك الكذبة الناعمة، كنت مطمئنة إليها على الأقل، وتارة أخرى حين أطمئن إلى ما أنا فيه أقول إنني لست استثناءً في هذه الدنيا، لست الأولى ولن أكون الأخيرة، فالجانب السيئ من التاريخ أكثر إلفة وأقل غرابة على أي حال . .

ثم مضت الأيام وتعلقت بشيء آخر يشبه الحلم، درسنا شيئاً يسيراً منه ونحن في المراحل الإبتدائية، عن منيليك الأول والثاني، وعن مغامرات تيدروس العنيد، وطموحات الراس علي وشطحات

هيلاسيلاسي، عن الفراعنة والحِمْيريين والعثمانيين وعصور الظلام والنهضة في أوروبا، عن الإمبراطوريات الرومانية والفارسية والصينية، عن الحروب الصليبية والفتوحات الإسلامية، عن الحضارات السومرية والبابلية والنوبية والإغريقية، عن صراع البشرية حول ذواتها، عن السباقات الاستعمارية لاقتسام العالم وحروب التحرر في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، وعن قِدم الحبشة ومسيحيتها وأساطيرها المقدسة وطبقيّتها الراسخة، كانت نِتفاً متفرقة غير مشبعة، لكنها مثيرة..

شعرت وقتذاك بإلفة غامرة في داخلي لهذا الذي يسمى تاريخاً، ثم أصبحت أنظر إليه وكأنما لم يكن في الماضي، إنما هو الحاضر بوجهٍ ما وهو المستقبل بوجوهٍ كثيرة، أحببتُ التاريخ جداً كما يحبه ملايين الأحباش وإن لم يقرأه الكثير منهم..

كنت أنتقل بسلاسة من فصل دراسي إلى آخر بمستوى جيد، أعيش حياتي بين قريناتي في المدرسة والقرية، أدرس وألعب وأضحك وأبكي وأحلم وأتدلّل ككل الأطفال، لكن علاقتي مع الكبار -أقارب أبي وجيرانه- لم يكن فيها ذلك الدفء المعتاد، كانت مزيجاً من البرود والعطف، كنت مثل طائر تائه انضم إلى سرب غريب، وربما انعكس هذا الأمر -لاحقاً- في تكوين شخصيتي بشكل ما فنشأت منطويةً عليها..

المهم، مات قيرما، أبي المفترض كما أخبرتك، وانتقلت للعيش مع شقيقته وابنها وزوجها في بيتهم الواسع، أصبحت لدي غرفة وخصوصية أكبر في بعض أمور حياتي بعد أن كنت أشارك أبي

كوخاً صغيراً كنا نسميه بيتاً، لكن بيت عمتي رغم رحابته الظاهرة كان بارداً، كئيباً مثل قلعةٍ في جزيرةٍ مهجورة، كلٌّ في غرفته أغلب الأوقات وكأنّ أمراً ما اجتمعنا لأجله وسينتهي قريباً ليذهب كلٌّ منا في طريقه..

كنت مستعدة لأسوأ الاحتمالات، جزءٌ مهم من ذلك الاستعداد كان الدراسة، أقبلت عليها بحماسٍ كبير، ثم تفوقت وأنا على أعتاب الجامعة، فطلبت إحدى لجان التعليم مقابلتي..

- كيف نساعدك؟ ماذا تريدين أن تدرسي؟

- التاريخ.

- أنت متفوقة، محزن أن تبدِّدي هذه الموهبة في شيء كالتاريخ، وبلادنا لا ينقصها مؤرخون..

- أريد أن أدرس التاريخ..

التحقتُ بكلية التأريخ بجامعة أديس أبابا وانفتحت أمامي حينئذٍ طاقة نحو ذلك العالم الذي عشت أتهيأ له منذ أن عرفته، ذلك العملاق الأخطبوط الذي يتشعب عبر الأزمنة..

ومثل فقمة مقرورة قفزَتْ إلى الماء بعد شتاء طويل، قفزتُ - دون اكتراث إلى ما خلفته ورائي- إلى هذا البحر الواسع الذي لا تحدّه حدود ولا يبين له ساحل، كانت الريح مواتية وأمواجه هادئة، نشرت أشرعتي وأبحرت بعيداً حتى استدار الأفق من حولي والتصق البحر والسماء، ثمة سواحل بعيدة كانت تهمس في أذني بهتافٍ ضعيف، وأضواء فنارات خافتة متقطعة كانت تحفزني كلما عبث الموج بمراكبي أو تملكني اليأس..

زرت سواحل كثيرة وموانئ عتيدة، قابلت سفناً محملة بالمدافع والمنجنيقات والجند تروم سواحل أخرى مدينة لها بثارات قديمة وهزائم، رايات جيوش منتصرة وأخرى مدحورة تخفق تحت الشمس، قابلتُ سفناً محملة بالذهب والحنطة والعاج، وأخرى بالأسرى والجرحى والعبيد والسبايا والرقيق والمشانق..

قابلت أمماً سادت وأخرى بادت، رأيت أيضاً كيف تتخلق الشعوب من نواةٍ صغيرة ضعيفة ثم تصبح أمماً عظمى، ورأيت كيف تتفتق الأرض من تحتها والسموات من فوقها لتكون على قدر أحلامها..

رأيتُ الحبشة كما لم أعرفها من قبل، ممتدة من النيل إلى المحيط تسكنها أقوام شتى من ذراري حام وسام من نسل نوح النبي، تتناغم أحياناً وتتصارع أغلب الأوقات، وصليل السيوف في أذني لا يتوقف، وسواحل بعيدة تهمس في أذني بهتافٍ ضعيف، وأضواء فنارات خافتة كانت تومض في الأفق، حتى حلّت المأساة..

ضمن أعمال السنة الثالثة، تقدمت ببحثي إلى عمادة الكلية، كنت وصلت وقتها إلى حقبة هيلاسيلاسي إمبراطور أثيوبيا الأشهر، ورست مراكبي على سواحل عهده الأثير لدى الأمهرا وتاريخه المثير للجدل في المنطقة والعالم، ولا عجب فبعض الأمهرا يرونه قائداً ملهماً اختصر التاريخ، وبعض «الراستافاريين» يرونه إلهاً مخلّصاً، وبعض الأثيوبيين والإرتريين يرونه ديكتاتوراً عنصرياً فظاً، أحلامه الإمبريالية وإخلاصه الديني ونزعاته الغريبة كانت شيئاً مثيراً، وكأنما كل زعماء الحبشة الذين سبقوه كانوا مجرد إرهاص على طريق نبوءته..

قال لي الدكتور دانييل جيوفاني أستاذ التاريخ الزائر من جامعة ميلانو:

- هذا مسارٌ جديد في قراءة التاريخ جدير بالتأمل، لكن فيه بعض الخيال، والتاريخ ليس رواية أدبية..

وقال الدكتور هايلي أستاذ التاريخ المقارن بجامعة أديس أبابا:

- إخضاع التاريخ لمعطيات الحاضر خطأ علميٌّ فادح، انظري إليه في حقله الزمني ثم حاولي الاستنباط، الإسقاط يؤدي حتماً إلى نتائج خاطئة..

وقال لي البروفسور أحمد درير عميد كلية الدراسات العليا:

- أعترف لكِ أنك بذلت مجهوداً كبيراً في هذا البحث، لكن هذا الربط سيفضي إلى تقرير فرضيةٍ مهزوزة لن تستطيعي إثباتها، من الصعب التسليم بأن كل التاريخ الإنساني يدور حول حقيقة واحدة، هذا مستحيل.

حاصروني، فقلت لهم:

- ليس تماماً، الحاضر وجه من أوجه التاريخ، جاء متأخراً فقط، التباين هنا رأسي تراكمي وليس أفقياً، ولا بد أن ينسجم مع طبيعة الزمن..

كنت واثقة، لا أدري لماذا؟ حروب التاريخ لم تكن تحركها المصالح حيث تصل الأطماع وحسب، تلك أعراض ظاهرة لمرض قديم أعيا البشرية ولا يزال، فالذات ليست فردية دائماً، للشعوب أيضاً ذاتها الجمعية التي تصعد وتهبط معها في مسيرة طويلة عبر الزمن، تظهر وتختفي، تقوى وتضعف، تبلى وتتجدد، لكنها لا تموت، قلت لهم..

- اليهود، تشتتوا في كل أرجاء الدنيا، تماهوا مع الأمم وانسجموا مع صورِها النمطية، لكن بذرة الذات كانت حية طوال التاريخ وكأنها تعيش داخل شيء من الجليد الصلد، حتى إذا لاح فجر خلاصها أفاقَ العالم على جبل ضخم من الجليد، لم يتخيل وجوده أحد..

لم أكن أتوقع تلك الأهمية لحقبة هيلاسيلاسي ليس من الناحية التاريخية ولكن في وجدان الناس وذاكرتهم، تفاجأت بأمور كثيرة لم أكن أتوقعها بحكم تغييرات عديدة شهدتها أثيوبيا، وهو ما عزز لدي صحة الفرضية التي كان يراها أساتذتي مهزوزة..

أثيوبيا الحديثة كانت متقدمة على جيرانها طوال القرن العشرين، كانت مستقلة، هويتها واضحة، حضورها الدولي كان طاغياً أيضاً، هو عصر هيلاسيلاسي الذي لا يشبه ما كان قبله أو بعده، وتركيزي عليه لم يكن بدافع التشويه كما خُيل إليهم، لقد كانت ذاتاً متعددة، شخصية وعرقية وثقافية ودينية، لقد كان عصراً ثراً..

تسرب البحث، لا أعرف كيف؟ إلى الصحافة وإلى جماعات ضغط غير مرئية، وبدأت في مواجهتي حملة شعواء فيما يشبه هوس معاداة السامية في الغرب هذه الأيام، ثم أدركتُ لاحقاً أن ما جرى في الحبشة لم يكن إلا جزءاً يسيراً مما يجري في هذا العالم الموبوء، الذات مؤامرة كونية تختلف ملامحها من مكانٍ إلى آخر..

تأمل معي هذا العالم الغريب، بعد قرون طويلة من التجارب والضحايا ها هو يقبل فكرة قيام دولة نقية العنصر، بل ويسمح لها بعزلة مقدسة تحميها الأسوار.

وقال سياسيٌّ معتوه في مطلع القرن العشرين:

«إن الأجناس أو الشعوب السامية تتمتع بواجب الوصاية والرعاية للشعوب البدائية المستعمرة، وبأن الشعوب الأولى تضطلع بدور تحضير وتأهيل الشعوب الثانية[1]».

ثم انقاد العالم خلف هذه الفكرة المجنونة إلى اليوم، هل يتقدم أم يعود إلى الوراء؟

هل الإنسان هو الإنسان في كل أرجاء هذه المعمورة أم أن له قيماً مختلفة حسب العرق أو الدين أو اللون أو المكان كما كان يرى جول فاري؟

هل كان هيلاسيلاسي الإمبراطور الملهم أو الإله أو الديكتاتور مؤمناً بذلك أم أنه كان يستجيب بالفطرة لبذرة الذات؟

هل يكرر التاريخ نفسه أم أنه شيء واحد؟

«الذات كلمة السر التي تفتح مغاليق التاريخ» هذا الذي حاولت تقريبه من الضوء في بحثي، ثم أثار ذلك ردود أفعال واسعة، فدُعيت إلى ندوة أو ما يشبه مناظرة على ضوء ذلك البحث..

كانت قاعة المحاضرات الكبرى في الجامعة مكتظة عن آخرها في ذلك اليوم، تداعت إليها جماعات من كل لون، فيها من كان يحمل شيئاً ندياً في خياله لتلك الحقبة، يجلس خلف صور الإمبراطور الأشهر على صدره أو بين يديه، وفيها من أتباعه المخلصين من تجشم عناء المجيء من «جاشاميني» مدينة

(1) جول فاري، 1832-1893م، سياسي فرنسي.

«الراستافاريين» المقدسة بضفائرهم المجدولة والمنسدلة على أكتافهم وظهورهم، ودخان سجائر «القانجا» يعبّ المكان، وفيها من كان على الضفة الأخرى من تلك الحقبة، لكنه لا يحمل لافتة أو علماً، بل يصفق بحماس حين يسمع أو يرى ما يسره تحت ضوء النقاش، وبين هؤلاء وأولئك مجموعات أخرى لا يبدو عليها أي شيء..

قالوا وقلت كلاماً كثيراً في تلك الليلة، لكن صدقني لا أذكر شيئاً ممّا قيل، فجأة قامت بيني وبينهم سحابة داكنة، كذلك الشفق الذي يصعد إلى الأفق بين النور والظلام ليفصل بين عالمين..

كنتُ أراهم وكأني لا أراهم، أقترب منهم فيبتعدون، يقتربون مني فتشدني إلى الوراء قوة مغناطيسية جبارة ثم تجرفني موجة إلى وسط نهرٍ جارف فيبتعد بهم الشاطئ، أسمع صوته يهدر، يتلاشى صوتي ويبتعد الشاطئ أكثر، وتغيب وجوههم خلف غابة من الدخان الكثيف..

قوة هائلة كانت تشدني إلى دوامة عميقة وسط ذلك النهر سبقتني إليها البشرية منذ فجر التاريخ وهو يجري إلى مصيره الأبدي لا يلوي على شيء، وكأن عناصر الجغرافيا والسياسة والمجتمع اتّحدت كلها ضدي في مؤامرة خبيثة، بدأتُ أشعر بالوحدة..

عندها تذكرتُ أبي..

- الناس هنا طيبون في العموم، لكنّ صدورهم عميقة، تعوّدي على ذلك..

«طوال حياتي في ذلك البلد -إذا استثنيت لحظاتٍ قليلة- لم أشعر بغربةٍ حقيقية، كنت أنظر في مرآةٍ كبيرة أرى فيها الجميع ووجهي بينهم، أتحرك بحكم العادة أو الانتماء صعوداً وهبوطاً فيما

يفرحون أو يتألمون له وفي داخلي حالة من الانسجام في سياق التباين العام الذي يشكِّل نسيجهم، لكن ما جرى وضعني على حافة درب آخر . .

ثم جاءت الكارثة، وبدأت إرهاصات الحرب المجنونة على الحدود مع إرتريا وتصاعدت الحرب الكلامية المسعورة حتى بلغت ذروتها وحان قطاف الموت. .

تشكلت جماعات صغيرة هنا وهناك مناهضة لتلك الحرب من النُّخب وقدامى المحاربين، كان شيئاً خافتاً يكاد لا يُسمع وسط ذلك الضجيج المحموم، فأخذت موقعي بينها كمن ينزل إلى البحر في قلب إعصار مدمر. .

اتهمتنا إدارة الجامعة بممارسة نشاطٍ سياسي في داخلها يضرُّ بأمن البلد، أنا وإيفين التي أصبحت مطربةً فيما بعد وآخرين من طلاب الجامعة، نظر إليّ مدير الجامعة من فوق نظارته السميكة نظرة لا أنساها. .

- هل تقرين بأنك مارستِ عملاً سياسياً محظوراً في أروقة الجامعة؟

- لا . .

- وأنك دخلت الجامعة بوثائق مزورة؟

- نعم. .

ثم قررت اللجنة فصلي من الجامعة، وأحالَتْ بقية القضية إلى النيابة والقضاء، اتهموني بالتزوير ثم سُحبت جنسيتي، شهاداتي الأكاديمية، عُمري، أحلامي، وكل شيء. .

يومها شعرتُ باليُتم، بالحرمان، بالوحدة، بالضياع، وبالأرض الرحبة أضيق من راحة الكف..

وكأن كل ما جرى كان يدفعني باتجاه وحيد، باتجاه الخطوة التي أجّلتُها طويلاً، إذ لم يبقَ أمامي من خيار آخر، لكن كانت الحدود بين أثيوبيا وإرتريا مغلقة تماماً، ونصحني أحدهم بالتسلل إلى السودان، ثم إلى إرتريا عبر الحدود، تمكنتُ من الدخول، لكن بصعوبة كبيرة، تارة بالسيارات وتارة عبر الدواب وأخرى على الأقدام وسط كل المخاطر التي يمكن أن تتخيلها، حتى وصلت إلى المكان الذي حدَّثني أبي بشأنه وعشت حياتي كلها أتهيأ للحظة التي تجمعني به..

تخيلت كثيراً تفاصيل هذه العودة، شكل القرية وطرقاتها وبيوتها، ملامح الناس وتعبيرات وجوههم، أهلي وأنا أتفاجأ بخروجهم من بين الناس واحداً بعد الآخر، هذا عم وذاك خال وتلك عمة وهذه خالة، تخيلت كثيراً عناقهم وقُبلهم ودموعهم وضجيجهم، لهفتهم لسماع حكاية حياتي، أقولها لهذا ثم أعيدها لذاك، أنسى بعض تفاصيلها مرة فأضيفها في المرة الأخرى، أتدلل وأمرح بحماس، كطفل يكتشف جسده العاري للوهلة الأولى، لكن كل ذلك بقي صوراً حية في الخيال فقط لا أكثر..

كل ما حصلتُ عليه من تلك الرحلة، من حلم العمر إلى قريتي، إلى بلدي، من لقائي بأهلي، كان لقباً تغريبياً «أمْحَرايِتْ[1]»، أينما ذهبتُ كانوا ينادونني بهذا الاسم، حتى الذين التقيتهم من بعض

(1) أمحرايت: الأمهرية.

أهلي انكمشوا عن وجهي، عن الصليب الذي في صدري، عن مسيحيتي التي لم أخترها..

هربتُ مجدداً، لكن إلى الصومال هذه المرة، مكثتُ فيها ما يقرب من عامٍ ونصف العام أبيع الشاي والقهوة في بعض أسواقها وطرقاتها، حتى كادت الحرب أن تأخذني في حرائقها الحاقدة التي لم تبقِ شيئاً في ذلك البلد إلا وأتت عليه..

لبستُ هناك هويةً جديدة اسمها جميلة فارح، جئتُ بها إلى دبي، وها أنذا لم يبقَ مني ومن كل ما سمعتَ سوى هذه التميمة اليتيمة، كل منا عائلة الآخر..»

لم تقل شيئاً بعد ذلك، قبّلَتْ تميمتها وأدارت ظهرها نحو الحائط لتنام، لكنّ نشيجها لم ينم..

الفصلُ السادس

الهُروب

«لا يكفي أن تعرف الطريق الذي يوصلك إلى الهدف، ينبغي أن تعرف أيضاً كيف تتصرف مع من سبقك إلى هذا الطريق»

- مجدي -

(1)

أين ذهبَتْ؟..

استيقظتُ وأنا أبحثُ عنها بعينين نصف مغمضتين، لا أثر لوجودها في البيت، ألقيتُ نظرةً على الصالون، على الأريكة، بحثتُ في الغرفة الأخرى -غرفة عباس- التي لم أفتحْها مطلقاً، ثم في المطبخ الصغير وكل حمامات البيت ولا أثر، حتى عطرها خبا، وكأنها لم تكن هنا!

عدتُ إلى غرفتي فانتبهت إلى أثر جسدها على الفراش، كان لا يزال محفوراً عليه، واللحاف المنكمش على بعضه إلى وسط السرير يقول إنها كانت معي، اطمأنيتُ قليلاً..

لكن حين اتصلتُ على هاتفها لأسأل عنها وأدعوها إلى الغداء لم ترد..

نظرتُ إلى الساعة، كانت تشير إلى الحادية عشرة، مؤكد أنني سأجدها في المقهى بعد الغداء..

تغديتُ ثم اتجهتُ إلى المقهى، فلم تكن هناك أيضاً، سألتُ سارا صاحبة المقهى وكانت لا تبالي أصلاً!

هل كانت تسبقني إلى كل شيء لتمحو أثرها الذي ينبغي أن يأخذني إليها؟

ماذا يجري؟

مرةً أخرى كانت أسطوانة المقهى تصدح بصوت إيفين، نعم هذا أثرٌ لم تستطع محوه، قلت وأنا أستحضر صورتها من حفل تلك الليلة..

إيفين نحيلة، سمراء، واسعة العينين، رقيقة الشفاه ودقيقة الأنف، طويلة الساقين واليدين بشكلٍ لافت، أردافها الصغيرة المسطحة تبدو كما لو كانت جزءاً من ظهرها القصير المربّع وغير المخصّر، كانت تغني محنيةً إلى الأمام، إلى الجمهور..

ثم استحضرتُ صورة أستير في حضنها، كانت مثل فراشة في قبضة عنكبوت عملاق، أحد التناقضات التي عشتها كالحلم تلك الليلة، إرترية وأثيوبية وأيضاً صومالية، مناضلة عظيمة ونادلة في مقهى، معروفة إلى حدّ أن يصفّق لها الناس ومغمورة لا تثير أي انتباه، كيف استطاعت أن تصبح كل ما رأيت وسمعت في آن، ثم لا تنشطر إلى نصفين أو أنصافٍ عديدة؟ كيف كانت تخبىء كل ذلك ثم تلبس فوقه مريلة النادلة؟ وتبتسم للزبائن مثلما يبتسم ممثل محترف للجمهور؟ هل يمكن أن يتعايش الشخص بسهولة مع أمرٍ كهذا؟ أن يصبح أكثر من شخص في جسدٍ واحد، ثم يحدثك عن أيٍّ منها كما لو أنه يتحدث عن أشخاصٍ آخرين؟

كنتُ الجمهور إذن، رأيتُ وسمعت، أُعجبتُ وصفقت، ضحكت وبكيت، ثم استيقظتُ على فراشٍ باردٍ كما يحدث دائماً مع

المغرمين بالنجوم، يحلمون بهم طوال الليل ثم يتبخرون في الصباح. .

هل تبخّرت أستير؟ أم أنها لم تحدث أصلاً؟

خرجتُ من المقهى، الطريق المنحنِي الذي ينتهي إلى مسجد لطيفة الكبير في الطرف الشمالي من الفريج يضيق في آخره، ثم يقود باتجاهٍ واحدٍ إلى اليمين، إلى خارج منطقة المُرر، سلكته واضعاً يديّ في جيبيّ بنطالي ومطرقاً برأسي إلى الأرض محاولاً تتبع خطٍّ نحيلٍ يفصل بين طوب الرصيف ذي اللون الرّمادي المصقول، كانت نسمات الشتاء الباردة -مع قرب مغيب الشمس- تلفح وجهي بلطف وأنا أسير دون هدف، رفعتُ رأسي فإذا بي أمام مجدي وجهاً لوجه، متأنّقاً كعادته، سلّم عليّ واضعاً يده فوق كتفي كما يفعل أغلب السودانيين. .

- كأنك تبحث عن شيء؟

- لا ، معدتي مثقلة وأحببت أن أتمشى قليلاً. .

ودون استئذان انضم إليّ، فملأنا عرض الرصيف الضيق ونحن نمشي متجاورِيْن، ثم بدأ يتحدث. .

- كم من الوقت قضيتَ في هذا البلد؟

- أقل من عامين تقريباً. .

- أنا لدي سبعة أعوامٍ. .

صمت قليلاً كمن يفكر. .

- أعتقد أنها كافية جداً!

قالها بحماس..

- كافية لماذا؟

- لأمور كثيرة، تعرف؟ عندما كنتُ طالباً في الجامعة في كراتشي، كنتُ وزملاء لي نسكن في شقة صغيرة في بيتٍ من طابقين لباكستاني متدين وطيب اسمه رحيم، كان يسكن في الطابق الأرضي مع ابنته الوحيدة «فاطمة» وكانت جميلةً ومؤدبة، لا تخرج من البيت إلا نادراً، وحتى في تلك المرات النادرة كانت تخرج مع أبيها أو عمتها التي تزورهما من وقتٍ إلى آخر، ممتلئة قليلاً ومستديرة الوجه، لها عينان خضراوان وجفنان ورديّان وشفاه مكتنزة وأنف قائم مثل نجمات بوليوود، كانت شغلنا الشاغل طوال إقامتنا في باكستان..

كثيراً ما كنا نستغل طيبة الرجل وعشرته اللطيفة معنا، نشتري بعض اللحوم والخضروات والخبز ثم نطرق الباب لتخرج علينا فاطمة، ونطلب منها بألسنة متلعثمة أن تطبخ لنا غداءً أو عشاء فتبتسم بخجل، لقد كانت حيلةً للتودد إليها لا أكثر، وكنا بهذه الطريقة ننفق كل مصروفنا قبل حلول الشهر التالي..

كنا قد انعطفنا إلى اليمين بمحاذاة مسجد لطيفة، في الشارع الضيق الذي يعج بمحلات الملبوسات والأحذية، أشعل مجدي سيجارة..

- المهم، قضينا على هذه الحال نحو ثلاث سنوات حتى كان العام الأخير قبيل تخرّجنا، جاءنا شاب مصري وسيم اسمه حسام بمعرفة أحد زملائنا الذي تخرج في العام نفسه ليحلّ محله في

الشقة، ورحبنا به بيننا، لكن لم يمضِ شهر حتى أصبح مقرّباً جداً من رحيم الباكستاني صاحب البيت، يقضي معه أوقاتاً طويلة في المساء يشربان الشاي أو يلعبان الورق أو يذهبان إلى السوق القريب رفقةً في بعض الأحيان..

جذبني مجدي من يدي وانعطفنا إلى اليمين مجدداً بمحاذاة فندق ديبلومات الكائن في الركن المقابل، الشارع ذو اتجاهين وعريض بما يكفي لتفادي الاصطدام بالمارة..

- حسدنا ذلك المصري كثيراً على قربه من السيد رحيم، وأكثر من ذلك على قربه من فاطمة التي لم نكن نشكُّ أبداً في أنه يراها كل يومٍ، لكن لم نكن نعرف كيف نحدّ من ذلك، كيف نتخلص منه..

بعد مرور ستة أشهر تقريباً جاءنا رحيم إلى الشقة وقال لنا إن حسام طلب يد ابنته فاطمة، وهو لا يعرفه وأننا أفضل من يُسأل عنه وطلب رأيَنا بأدبٍ جم، نظرنا إلى بعضنا ثم قال أحدنا واسمه جمال قصيرٌ ممتلئ، كثير الهزل، إن حسام أفضل مَن يمكن أن يُصاهَر، فهو شهم، ومؤدب، وكريم إلى حدٍّ لا يصدق، ثم نظر إليّ نظرةً لم أفهمها فتابع، حتى أنه من كرمه لا يقبل أن يدفع أحدٌ منا قيمة الويسكي حين يلتئم مجلس الشراب في آخر الأسبوع، بل ويُقسم أيضاً!

أظلمت قليلاً، كنا قد وصلنا إلى محلات التطريز وخياطي العبايات في وسط الشارع الطويل الذي ينتهي بمحاذاة سوق نايف العتيق باتجاه الجنوب، انعطفنا إلى اليمين مجدداً، زقاق ضيق، مداخل البنايات المتزاحمة فيه ممتلئة بفتيات صينيات الملامح يقفْن

على جانبي الزقاق، وقفتُهنّ مريبة، وكذلك تزاحم بعض العمال الآسيويين في مجموعات صغيرة متفرقة على مداخل الزقاق، فسألت مجدي..

- هؤلاء... لديهنّ غرف في الأعلى، بإمكان أيّ من المارة أن يصعد مع أي واحدةٍ منهنّ إلى الأعلى، عشر دقائق مقابل خمسة دولارات!

لم أعلق، بعد خطوات قليلة كنا أمام مقهى منزوٍ، لم أدخله قبل الآن، نادلتان جميلتان، رحبّتا بنا بحفاوة، ثم قال لي مجدي:

- هنا يمكنك أن تشرب أفضل قهوة في فريج المُرر..

أشعل سيجارة، ثم مال نحوي مجدداً..

- بالمناسبة، هذا المقهى إرتري وليس أثيوبي..

كان ذلك واضحاً من اللوحات والصور المعلقة على جدرانه، خريطة إرتريا بالألوان، وعلمها على قطعة قماش مشغولة بخرزٍ لامع، صورة للزعيم الأوحد بشاربه الكث وابتسامته الواثقة، وكذلك موسيقى الفنان الإرتري الأيقونة «يماني باريا»، مرّرت النادلة القهوة المحمصة قرب أنوفنا فاستنشقناها واستحسنّا رائحتها كما يقتضي الذوق في معظم المقاهي الحبشية، غابت قليلاً ثم جاءت بالقهوة في كامل زينتها، وعاد صديقي للاسترسال..

- خرج رحيم من عندنا، وقد قرَّر ألا يزوج حسام، بل وغيّر طريقة التعامل الودودة التي كان يشمله بها، وذات مرة أغلق الباب في وجهه..

ظلّ حسام حائراً في ذلك التغيير المفاجئ في تعامل رحيم

والذي كان بسببنا، تظاهرنا أمامه بالاستغراب لما جرى، لكننا لم نخبره بالسبب حتى تخرّجنا جميعاً وغادرنا باكستان وإلى اليوم..

مذاق القهوة طيبٌ فعلاً، وكذلك الفوشار المقرمش الذي لم يتوقف صديقي عن النهش فيه بصوتٍ مسموع..

- الذي لم ندركه لثلاث سنوات، أدركه حسام من أول شهر، أن الطريق إلى فاطمة يمرّ عبر رحيم كما تقتضي أصول البَتّان المحافظين في ذلك البلد، وهو ما فات علينا جميعاً..

صمت قليلاً..

- أما الذي فات على حسام -رغم ذكائه- أنه لا يكفي أن تعرف الطريق الذي يوصلك إلى الهدف، ينبغي أن تعرف أيضاً كيف تتصرف مع مَن سبقك إلى هذا الطريق!

كانت محيرةً جملته الأخيرة، وهو بالقطع لم يتكبّد عناء هذا السرد الطويل إلا ليصل إليها..

- لكن ما علاقة ذلك بفترة مكوثي في دبي، لم أفهم؟

ابتسم، وضع رِجلاً فوق أخرى، ملأ صدره بالهواء..

- قد يبدو دور حسام لائقاً بك أكثر، ربما لم تعرفني جيداً حتى الآن، لكن أنا «الأخ الأكبر» في هذا الفريج!

قالها وهو يرسم بكفه في الهواء دائرةً واسعة، وبنبرةٍ فيها غرور وثقة، تمالكتُ نفسي كثيراً وأنا أحاول ألا أردّ، شكرته على القهوة بغيظٍ مكبوت وبابتسامة كلفتني عناءً كثيراً، ثم وقفتُ أهمّ بالمغادرة..

- هذا جيّد، ومثير للفخر أيضاً، عندما أحتاج إلى أمرٍ ما تأكد أنك أول من سيخطر على بالي..

ابتسم وهو يضرب مؤخرة السيجارة على ظفر إبهامه بصمتٍ قلق، لكن حين وصلت الباب..

- رأيتها في المطار برفقة تلك المطربة!

أدرتُ مقبض الباب وفتحته لأغادر..

- لكن أنا عاتب عليك، لَمْ تشكرني على فاتورة الغداء ذلك اليوم، مع بيتي!

أغلقتُ الباب خلفي بعنف، وخرجت..

(2)

بعد أيامٍ من ذلك، بعثتْ إليّ إيلسا رسالةً نصيةً على هاتفي «أنتظرك في المقهى، في الطابق العلوي بفندق سان ماركو لأمرٍ هام، لا تتأخر أرجوك» ترددتُ قليلاً، لكن رددتُ بالإيجاب في نهاية الأمر. .

كُنتُ جالساً مع حمد المرّي في مصطبةٍ جوار مسجد لطيفة الكبير بعد أن صلّينا العشاء، أقلّب معه في وجوه الحل، ثم لم أجد بدّاً من الموافقة على فكرة مرافقته إلى أديس أبابا، لكن طلبتُ أن يمهلني بعض الوقت ريثما أرتب بعض الأمور، فقد كان الشتاء على الأبواب وعباس في طريقه إلى دبي، وشهية الأسواق إلى البضائع في أول ذروتها، ودّعتُ المرّي وقد اطمأنّ إلى ما استقرّ عليه الرأي، ثم اتجهت صوب سان ماركو. .

كانت إيلسا تجلس وحدها على طاولةٍ في آخر الممر عند الحاجز الزجاجي المطلّ على الشارع الرئيس في فريج المُرر، تدخن أرجيلة وتتأمل الشارع والمارة، لفت انتباهي على طاولةٍ إلى القرب منها ثلاثة شبان أفارقة يتحلقون حول نادلةٍ وقهوة وبعض حديث كله بالفرنسية، لكن نظراتهم كانت مركزةً على إيلسا وكذلك حديثهم فيما

أظن، إذ لم يكن لديّ أدنى إلمام باللغة الفرنسية، ارتبتُ في أمرهم، لكن لم أذهب بشأنهم أبعد من ذلك. .

- خير، لم طلبتِني؟

نفضت شعرها إلى الوراء ثم ركّزت عينيها في عينيّ جيّداً كما لو كانت واثقةً من أن ما ستقوله يهمّني جداً. .

- قررتُ أن أهاجر!

كنتُ قلقاً بشأن أستير، ولم أكن متحمساً لأي شيء، رجعت بظهري إلى الوراء حتى التصق بظهر المقعد، وقلتُ في برود. .

- إلى أين؟

- إلى أوروبا. .

- وما المطلوب؟

- لم أعتد في حياتي أن أُعطي أو آخذ دون مقابل، ربما لم تعطني الحياة فرصة لكي أفعل غير ذلك، لكن أظن أن مثلك مختلف ولهذا لن أتردد. .

- لم أفهم. .

- حسناً، أشعر فعلاً بالحرج لقول هذا، لكن أجدني مضطرة إلى طلب مبلغ ستة آلاف دولار، يمكنني تدبيرها لك لاحقاً، ووفق شروطك!

في الطريق إليها كان يجول بخاطري أنها تودّ أن تقول شيئاً بشأن أستير، ربما التقتها أو تعرف مكانها، هذا أبعد ما ذهب إليه ظنّي، لكن ما تقوله الآن مفاجأة لم أحسب لها حساباً. .

- ليست هذه هي المشكلة وليست لديّ شروط، المشكلة أنني لا أملكها الآن، ألا يمكن تأجيل الأمر قليلاً؟

- لا يحتمل، إما أن أدفع بعد غدٍ على الأكثر وإلا فقدتُ الفرصة..

لم أجد بدّاً من الاعتذار، لم تزد على ما قالت ولم أناقش معها تفاصيل أخرى، حملت حقيبتها ثم همّت بالانصراف..

- آسفة، لا أملك وقتاً الآن، أراك قريباً..

ما أن غادرت المقهى حتى قام أولئك الشبان الأفارقة من مكانهم جملةً واحدة ونزلوا في إثرها، خامرني الشك في أنّ ذلك ليس من قبيل المصادفة فنزلتُ في إثرهم سريعاً..

كانت لا تزال تبحث عن سيارة تاكسي في الأسفل، فوقفتُ بعيداً أرقب ما يجري، وفي اللحظة التي همَّت فيها سيارة تاكسي بالوقوف كان الشبان الثلاثة بسيارتهم قد وقفوا لها، تحدث معها أحدهم قليلاً ثم صعدت إلى سيارتهم وانطلقت..

جريتُ نحو سيارة التاكسي التي توقفت وطلبتُ من سائقها أن يتبع السيارة الجيب السوداء التي مرت بجواره، مشينا خلفهم لدقائق قليلة حتى دخلوا منطقة «المطينة» القريبة ثم نزلوا جميعاً أمام فندق «دبي بالم» ودخلَت إيلسا برفقتهم من البوابة الكبيرة التي تقود إلى الديسكو الأثيوبي الكائن بالطابق الأرضي، صرفتُ سيارة التاكسي ثم دخلتُ في إثرهم..

لحسن حظي أن هذه الصالات يتم إظلامها بالكامل، وتبقى الإضاءة مكثفةً في المسرح وحده وإلّا رأوني وأنا أدخل من الباب

المقابل للمسرح أو أنزل الدرج الطويل المنحدر منه إلى صالة العرض العملاقة، تسللت بهدوء بين الطاولات واخترت طاولةً في آخر الصالة تُشرف على المكان كله من موقعٍ مرتفعٍ قليلاً بمحاذاة الباب، حتى بدا المسرح المضاء تحتي تماماً، وكانوا يجلسون على الطاولة الأولى كنتُ أراهم بوضوح تحت أضواء المسرح الصاخبة. .

لا بأس، إنها فرصة جيدة للاستمتاع بعرض آخر الأسبوع لم تتحْها ظروف العمل وأشياء أخرى، فرقة موسيقية مصغرة وخمس راقصات جميلات وبعض المطربين الذين يمثلون التنوع الثقافي والفني في أثيوبيا، حين دخلت كان مطربٌ يرتدي الزي التقليدي ويصدح بأغنية حامية من تراث الأمهرا، وكانت الراقصات بأزيائهنّ البيضاء الفضفاضة والمحلاة بخيوطٍ ملونة في وسطها وأطرافها، ومربوطةٍ بإحكام في أوساطهنّ الضامرة، يتحرّكن مع الإيقاع بخفة مثل سرب فراشات، يضعن أيديهنّ في أطراف خواصرهنّ ثم تهتز أجسادهن من منطقة الصدر إلى الرأس بشكلٍ منفصلٍ عن أجزائه السفلية. .

أعقب ذلك رقصاتٌ أخرى، للأورومو والتقراي ودوراقي، ويُلبس لكل منها زيّها الخاص، مرةً بعد مرة تشتعل الصالة بالتصفيق والصفير حين ترى منهم ما يعجبها من مهارةٍ أو انسجام، وأحياناً يتدافع البعض أمام المسرح الصغير ليعبِّروا عن نشوتهم بالرقص أو تحية الفرقة. .

سرحتُ قليلاً مع هذا الجو الاستثنائي، بدا لي مذاق الحبشة مختلفاً جداً في هذا المكان، حتى انتبهتُ فجأةً إلى إيلسا ومرافقيها

يهمون بالمغادرة، سبقتهم سريعاً إلى الخارج ثم حشرت نفسي داخل سيارة تاكسي أراقب مدخل الفندق حتى خرجوا. .

جاءهم عامل الفندق بسيارتهم فصعدوا إليها جميعاً وانطلقوا، فانطلقتُ خلفهم دون تردد، مرةً أخرى عادوا باتجاه فريج المُرر، وعند تقاطعٍ كبير يسبق الفريج بقليل عبرت سيارتهم بسرعة الإشارة الصفراء المتقطعة التي تسبق دائماً اشتعال الإشارة الحمراء، توسلت لسائق التاكسي أن يعبر، لكنه رفض خوفاً من الكاميرا المثبتة عند التقاطع. .

رأيت سيارتهم وقد انحرفت باتجاه اليمين مع أول تقاطع بعد الإشارة فعرفت أنهم اتجهوا صوب حي «البراحة»، تمكّنتُ في آخر لحظة من التقاط رقم لوحة السيارة قبل أن تنعطف، عبرنا الإشارة وانعطفنا في الطريق ذاته الذي انحرفوا إليه، لكن دون أثر. .

اتصلت بها مراراً فلم ترد، ثم أغلقت هاتفها بعد ذلك، وظللتُ الليل كله أبحث في منعطفات الحي الصغير عن سيارة الجيب السوداء، لكن دون جدوى حتى عدتُ إلى بيتي مع طلوع الفجر. .

لم أستطع أن أنام، جئت بوجهي المرهق إلى المكتب صباحاً، فسألتني بيتي الصغيرة إذا ما كنت أشكو من شيء. .

- بعض الإرهاق لا أكثر، هات قهوة. .

أشفقَتْ عليّ وجاءتني بها، وبقهوةٍ أخرى وثالثة ولم تفلح في تبديد قلقي، قضيت يومي كله وجهي بين كفيّ لا أعرف كيف أتصرف، عندها سألتني:

- قل لي ما يشغلك سيدي، يمكنني أن أفكر معك. .

لم أجب . .

- هل خسرت شيئاً في عملك؟ أم أنه ذلك الأمر الذي حدثتني بشأنه؟

مسحتُ وجهي برفق ثم نظرت إليها . .

- فتاة أعرفها، وربما اثنتان، أحسّ أنهما في مأزق ولا أستطيع مساعدتهما أو الوصول إليهما . .

- أي فتيات؟

- من هنا، من فريج المُرر . .

- حبشيات؟

هززت رأسي بالإيجاب، فضحكَتْ . .

- إذا كانتا كذلك لا تخشى عليهما، تأكد إما أنهما بخير، أو ميّتتان!

فزعتُ من حديثها . .

- . . . ؟

- أقول ما تسمع، نحن هكذا أحلامنا غريبة، وفي المقابل فجائعنا أغرب!

صمتت قليلاً ثم قالت كما لو كانت تنصحني:

- لا تغرق في هذا الوحل كثيراً سيدي، الأفضل أن تساير الأمور في هذا السوق وخاصة أمور الفتيات بنصف انتباه!

(3)

مرّ أكثر من شهر ولم تظهر أي منهما مطلقاً، لا في فريج المُرر ولا في غيره، زرتُ تقريباً معظم المقاهي والمطاعم وصالات الديسكو وأماكن تجمعات الأحباش في كل دبي ولم أعثر لهما على أثر، لم أترك أثيوبيةً في هذا السوق إلا وسألتها عنهما، دون أن أجد من يهتم لمصيرهما بطول السوق وعرضه!..

- أي جنسٍ من الناس هؤلاء؟

سألتُ حمد المرّي..

- لا تستغرب، هناك من يهتمّ لمصيرهما بالتأكيد، أو ربما يعلمون مكانهما أيضاً، لكن ربما يعتقدون أنهما تدينان لك بشيء ما!

- إلى هذا الحد؟

- وأكثر، هؤلاء الفتيات وعلى الرغم من بساطتهنّ الظاهرة إلا أن حياتهنّ غريبة، ومعقدة..

لم أشأ أن أقول له ما سمعت من أستير، ما رأيته من إيلسا، آثرت الصمت، وكأنما قرأ ما يدور في خلدي ضحك ساخراً لبرهة وهو يداعب مسبحةً صغيرة بين أصابعه..

- أنت رجلٌ طيب، إيلسا هذه تم ترحيلها من البلاد مراتٍ عديدة، لكنها كانت تعود في كل مرة بوثائق جديدة، بأسماء وأعمار مختلفة، أما أستير فلا أعرف عنها الشيء الكثير..

مسح وجهه بكفه اليسرى..

- أنصحك يا صديقي، لا تقف عند هذه الأمور كثيراً، هذا الفريج مثل النهر، يأتي كل يومٍ بغُثاءٍ جديد، وإذا زحمتَ حياتك به فلن تفعل شيئاً..

ودعتُه وقمتُ، سلكتُ طريقي الأثير باتجاه البحر، عابراً مواقف السيارات التي تفصل بين فريج المُرر والبراحة، ثم إلى طريق الخليج ومنه إلى الكورنيش، كان الطقس لطيفاً، بعض المارة يتجوّلون على الرصيف برتابة، أخذت موقعي بينهم أروح وأجيء في الممشى الطويل الذي يقع خلف حياة ريجينسي..

لاح لي من بعيد مجنون ليلى، بلا دفتر، بلا عصا، وبلا ربطة عنق، عرفته من هيئته النحيلة ومشيته المترنحة، كان يتحدث على هاتفٍ جوال، أثار ذلك استغرابي، إذ لم أر له هاتفاً من قبل، لكن حين رآني تظاهر -بمهارة- بأنه لم يرَ شيئاً، ثم أغلقه ووضعه في جيبه وكأنما لم تفاجئه رؤيتي، انضم إليّ عاكساً وجهة سيره..

- أنا لا أفارق هذا المكان في المساء مطلقاً..

- هروبٌ أم اعتياد؟

- شيء من هذا وشيء من ذاك..

كان يتحدث وهو ينظر إلى البحر المظلم، وضع يديه في جيبي بنطاله ثم التفت إليّ..

- رأيتك مع المرّي جوار سان ماركو، لو كنتُ أعرف أنك قادمٌ إلى هنا لجئتُ برفقتك..

- المرّي صديق جيّد، وقليلٌ مثله في هذا الفريج..

لم يقل شيئاً، كان ينظر أمامه بحدة، رافعاً رأسه إلى الوراء قليلاً، خُيّل إليّ أن رقبته استطالت أكثر، كانت تفاحة آدم الغليظة تتحرك في حلقه بقلق مثل بعيرٍ يجترّ، نظر إلى الأسفل مجدداً..

- لا تغرق في الوحل كثيراً، هذا لن أقوله لغيرك!

- أيّ وحل؟

أخرج يديه من جيبيه ثم فرك راحتيه جيّداً..

- ما يجري هنا تأمّلْه باهتمامٍ عابر، هل سمعتني؟ باهتمامٍ عابر، لأنه أليمٌ لن تحتمله..

- ماذا تقصد؟

نفث هواءً من صدره، تلفّت حوله كثيراً كما لو كان يتردد في قول شيء..

- لا تبحث عن إيلسا مجدداً، اسمع نصيحتي!

- هل تعرف أين هي؟

قلتُ مندفعاً، لكنه كان أقل حماساً لم يرد على الفور، نظر إلى أظافره قليلاً ثم أشار بسبابته باتجاه حي البراحة..

- وُجدت في شقةٍ هناك، مقيّدةً ومغمىً عليها من شدة النزيف، نقلوها إلى المستشفى على الفور، نصفها السفلي وكأنه مشلول، تقرير الطبيب الشرعي قال إنها تعرضت لعمليّات اغتصابٍ عديدة، عنيفة، ولا تزال الشرطة تبحث عن الجناة!

- وأين هي الآن؟

لم يرد، فصرختُ بعصبية. .

- أين هي؟ في مستشفى دبي؟

- ليست هناك، نقلوها إلى مكانٍ آمن ريثما تكتمل التحقيقات، لكن هي بخيرٍ الآن، اطمئن. .

صرختُ أكثر. .

- أراك تتحدثُ بثقة، من أين تعرف كلّ هذا؟

توتر قليلاً. .

- اهدأ أرجوك، سأقول لك كل شيء في الوقت المناسب، لكن عِدني أن تكون عاقلاً. .

تماسكتُ بصعوبة، وقلت له وأنا أضغط على أسناني:

- إما أن تقول لي كل شيء، أو أذهب من فوري لأسأل عنها في أقسام الشرطة. .

زفر هواءً كثيفاً من صدره، ثم أمسك بمعصمي وسار بي في اتجاه حي البراحة، عبرنا أزقةً كثيرة وأنا أنتظره ليقول شيئاً، لكنه لم يقل، حتى وقف بي أمام إحدى البنايات في وسط الحي. .

- هنا حدث كل شيء. .

لم أقل شيئاً، نظرتُ إليه نظرةً صارمة فتابع. .

- هناك في موقف السيارات المقابل يوجد أحدهم يغسل السيارات، لا تنظر إليه، هذا يراقب المكان، المجرم دائماً يحوم حول مسرح جريمته، ومؤكد أن الشرطة تنتظر أحداً ما سيحوم هنا، هل فهمت؟!

أمسك بمعصمي مجدداً وسرنا باتجاه فريج المُرر، حين وصلنا مدخل بناية عتيقة، كان مكتوباً على لوحةٍ قديمةٍ صدئةٍ فوق بابها «بناية الرّيم»، أشار من مكانه إلى قبوٍ مظلم..

- أسكن هناك، تحت ذلك الدَّرَج! هل ترى قصري؟

ثم أعتق يدي وسار إلى الداخل وهو يقهقه، وكأنما تذكر شيئاً التفت نحوي بحدة..

- بالمناسبة اسمي الحقيقي جمال، وأعمل في شرطة التحريات، لكن لا تقُل هذا لأحد!

ثم غاب في العتمة مجدداً وهو يقهقه..

(4)

هروبٌ آخر!

لم يكن بمقدوري تفادي وقوعه، وكأنّما دبي تُعرض عنّي بعد أن فتحت لي ذراعيها، وانتمتني في عوالمها وفرصها ونسائها، وقد حان الوقت لأرى وجهها الآخر..

هروبٌ جديد!

كان محتّماً أن يكون كذلك، كل شيء يُعذر إلا الغفلة، هي التي قالت ذلك!

«الأحباش يأخذون أكثر مما يعطون فانتبه لنفسك يا صديقي» كان حكيماً حمد المُرّي، لكنه أضاع حكمته في من لا يسمع أو يعقل..

هروبٌ ثالث!

يضاف إلى قوافل الهاربين التي لم تنقطع منذ أن أنشبت الحروب والأوبئة والمجاعاتُ أظفارها في تلك الأرض المنسية، وأدار لها العالم المتخَم ظهره غير آبه، فباتت تأكل من أثداء حرائرها..

في كل ذلك الهروب لم أكن وحدي مسؤولاً، ولم تكن غفلتي

سبباً، ولم تكن دبي أو الحبشة جحيماً أو ملاذاً، كنا جميعاً أقداراً لا مناص منها!

هربت أستير دون أن أعرف بقية الحكاية، ولو أنني عرفتُ هل كان سيتغير شيء؟

ضاعت إيلسا، وكان بمقدوري أن أساعدها ولم أفعل، ترى لو فعلْتُ هل كان سيتغيّر شيء؟

والآن هربت بيتي! لكن ربما تتغيّر أمورٌ كثيرة..

تركتْني حائراً، كما لو أن ابناً سرق مال أبيه، ليس من الحكمة طبعاً أن أبلغ الشرطة، ومن الحماقة أيضاً أن أقول لأحدٍ من الناس وعليّ تدبّر أمري، تذكرتُ عباس الذي وعدني بالمجيء إلى دبي ولم يفعل، هو الوحيد الذي من حقه أن يعرف، ومن الأمانة فعل ذلك، لكن لم يخطر ببالي أنه في مصيبةٍ أخرى!

اتصلتُ على هاتفه فردّ عليّ شقيقه..

- جيّدٌ أنك كلمتني، كنتُ في طريقي للاتصال بك..

- خيرٌ إن شاء الله..

- عباس في السجن منذ أسبوع، تعرّض لعملية احتيال وحرّر شيكاتٍ دون رصيد، وطلب مني أن أبلّغك لترسل إليه كل ما لديك، المبلغ كبير وأولاده قلقون عليه..

- أبلغه تحياتي، سيحدث ما يريد بإذن الله ولن أتأخر عليه..

يا إلهي، المصائب تأخذ بتلابيب بعضها بعضاً هذا الصباح، ماذا أفعل الآن..

جئتُ كعادتي إلى المكتب، كنتُ قلقاً بشأن أمورٍ كثيرة، ذهني يروح ويجيء بما قاله لي مجنون ليلى، ما قاله ذلك المجدي الغامض، ما يحدث في هذا المكان المشؤوم..

حين وصلتُ، لم أنتبه إلى أنّ بيتي غير موجودة، قلتُ في نفسي ربما خرجتْ في شأنٍ لها هنا أو هناك، حتى اشتعلت رغبتي إلى القهوة، قمتُ إلى المطبخ فلم أجدها، ثم إلى غرفتها فلم أجدها أيضاً ولم أجد أغراضها، اتصلت على هاتفها مغلق، خطر لي شيء مقلق، جريتُ نحو درج المكتب، وكانت الصدمة، اختفى مبلغ كبيرٌ من المال، تركته فيه منذ يومين..

«الغفلة لا تُعذَر» هي التي قالت لي ذلك، هل كانت تقصد هذا؟

قمتُ إلى تسجيل كاميرات المراقبة، فإذا بشخصٍ آخر معها، ولدهشتي كان جيمي!

وبدأت أراجع تسجيلات كاميرا المراقبة طوال أشهرٍ فائتة، لقد كان جيمي يأتيها بين حينٍ وآخر لينام معها، يصرخ فيها أحياناً ويضربها أحياناً أخرى، كم أنا ساذج..

استحيتُ من نفسي، وقضيتُ يومي كله في مراجعة حسابات المكتب، ما لي، ما لعباس، وما للدائنين والمدينين، لم أفرغ منه كما ينبغي، فقضيت ليلتي في المكتب، حتى إذا طلع الصباح كنتُ قد سلمتُ الشقة لصاحبها وأرسلتُ كل ما بقي لديّ من مال إلى عباس دون أن أحسب حساباً لشيء، ففي رقبتي ديْنٌ له وقد آن أن أردّ له الجميل، لم أترك في يدي إلّا نذر يسير أتدبر به أمري ريثما تمنحني دبي فرصةً أخرى، لم أكن واثقاً من احتمال حدوثها..

حملتُ خيبتي وذهبتُ إلى صديقي المرّي، في مكتبه في حي البراحة، مكتب العقارات الذي يدير منه مملكته الإسمنتية، وجدت عنده اثنين من أصدقائه الإماراتيين، أحدهما بدين بوجهٍ مستدير، وشفاه عريضة، وفمٍ جشع، وكرش ضخم يتمدد على حِجره، أنفاسه تحدث صوتاً مسموعاً عند مرورها بين شواربه الكثة، عرّفه إليّ ودعاه بالشيخ أبو سلطان، أحد أهم رجال سوق العقارات في دبي، تسبقه سمعته إلى السوق إذا باع وإذا اشترى واذا اقتضى، فتضخّم الرجل أكثر..

أما الآخر فعرفت أن اسمه مرزوق، طويل، أسمر، ذو قوام رياضي ممشوق، عيناه جميلتان كعيني صبيّة، قدّمه المري بأنه أحد أبطال ألعاب القوى في الإمارات، مثّل بلده في أكثر من عشر بطولات حتى الآن..

كان المري متحمساً وهو يحدثني عن إنجازاته العديدة، بينما كان مرزوق يتلقى الإطراء بتمتمةٍ خجولة تكاد لا تسمع، وكان واضحاً أن المرّي ينافق على نحوٍ ما..

كانوا يتفاوضون على بيع بناية سكنية في فريج المُرر، مكونة من ستة طوابق ومملوكة لأبي سلطان ويدير إيجاراتها حمد المرّي بالوكالة، وكان المشتري مرزوق، والمري هو الوسيط..

اجتهد صديقي كثيراً في الإطراء على البناية ومتانتها وعائدها المجزي، لم يكن يكذب في ذلك، لكن السعر الذي طلبه أبو سلطان كان حالماً جداً وفشل في أن يقنع به مرزوق..

طوال الحوار لم يكن هذا الأخير يتكلم، لكنه في النهاية قال سعره الذي يريد بنبرة هادئة، قاطعة..

- هذا ما لدي، وإذا كان أبو سلطان يفكِّر في أكثر من ذلك فالسوق مفتوح أمامه وأمامي..

شعرتُ بنظرة اليأس في عيني المري، مثل هذه الفرص لا تأتي إلا نادراً، كان يبحث في الحديث عن مدخلٍ آخر يعيد به المفاوضات إلى نقطة مثمرة، وفي الوجوه عن كلمة لها ثمن، طالعني بوجهٍ متوسل رققتُ له..

- الطيب، صديق سوداني كفؤ، يدير مكتباً تجارياً وله خبرته في السوق، لعلها تقرِّب المسافات..

لم أعرف بمَ أتحدث، لكن أسعفني كلام سمعته من أحدهم، في برنامجٍ تلفزيوني كان يناقش أحوال سوق العقارات في دبي، علقت منه جملة بذاكرتي فاستدعيتها..

- ربما علينا أن ننظر إلى فترة الاسترداد، فهي المعيار الأكثر عدلاً في مدينة مثل دبي، إذا كانت قيمة الإيجارات السوقية السنوية تغطي ما بين ثمانية إلى عشرة في المائة من قيمة العقار فإن فترة الاسترداد ستتراوح بين عشر إلى اثنتي عشرة سنة وبالتالي فالسعر مناسب، وإن لم يكن لا أعرف ما يمكن الاطمئنان إليه لتحديد السعر..

لو أنني قلت للمرّي في تلك اللحظة إن زوجتك حامل لما فرح للخبر كما فرح لما قلته، تهلَّل وجهه وأخرج من درج المكتب ملف إيجارات البناية وآلة حاسبة وقلماً ونظارة، طقطق على الحاسبة قليلاً ثم قال موجهاً حديثه لأبي سلطان وقد ارتاحت نظارته على مقدمة أنفه:

- بحسب مجمل الإيجارات التي لدي في هذا الملف، فإن سعرك الذي طلبته، يحتاج إلى عشرين سنة وأربعة أشهر حتى يسترد مرزوق ما سيدفعه لك!

امتعض أبو سلطان، وتحركت كل عضلة في وجهه، حسب كلّ ما قيل في صمت ثم وقف يستأذن رافضاً أن يبيع، ودّعه مرزوق بالنبرة الهادئة ذاتها، خرج يتمايل في مشيته إلى اليمين واليسار وحذاؤه يئنُّ صريراً على الأرض من ثقل وزنه..

التفتَ مرزوق إلى المرّي..

- ابحث لي عن عرضٍ آخر..

رمقنا أبو سلطان بنظرة امتعاض ثم أغلق الباب خلفه بصوتٍ مسموع وخرج..

- حسناً..

قال المري، فأشرت عليه أن ينتظر بعض الوقت، أبو سلطانِ لن يتأخر كثيراً في قبول العرض، لا أعرف ما الذي جعلني واثقاً، لكن نظراته وهو يغادر كانت أقل ثقة من مشيته، ابتسم الاثنان ولم يقولا شيئاً، ثم استأذن مرزوق وغادر، بعد أن شكرني ودعاني إلى قهوةٍ يوماً ما، فوعدته..

قام المري من مكتبه وجلسنا على الصوفا الطويلة، فقال متفائلاً..

- لو تمَّت هذه المبايعة، سنطير إلى أديس أبابا، إذا كنت لا تزال تذكر وعدك؟

- لم أنسَ يا صديقي... لم أنسَ..

كان يتحدث كثيراً في أحوال السوق والسياسة، لكنني لم أكن في كامل انتباهي، كانت عيناي تنظران في الفراغ حين شعر بقلقي..

- ما بك؟

حدثته بما جرى كله، كنتُ كمن بنى بيتاً فوجده فجأةً في وسط الصحراء، وبينه وبين المدينة والناس آلاف الفراسخ..

- أنكرتني دبي يا صديقي..

بعد صمتٍ طويل، رسم المرّي ابتسامةً عريضةً على وجهه، ثم قادني من يدي نحو النافذة، أزاح ستائرها، كانت دبي من خلفها تسبح في غيمةٍ رمادية هائلة..

- واحدة من قصص النجاح في هذه المدينة العجيبة، أنها آخت بين البحر والصحراء!

- ...؟

- كنت أقول في نفسي ما أوسع الصحراء وما أضيق العقول، لكن حين رأيت العالم كله وقد جاء ليتسلق نخلةً ترقد فوق الماء، عرفتُ أن الإعجاز لم يكن في البناء في حدّ ذاته إن كان فوق الماء أو الهواء، وإنما في أن تقنع من حولك، أن تقنع العالم بإمكانية حدوث ذلك..

صمت قليلاً وهو لا يزال يتأمل مدينته بزهوٍ، بفخرٍ وانتماءٍ كامل، أزاح جانباً من الستارة كان لا يزال يحجب الرؤية..

- فكرة عظيمة، أن ترى الصحراء تأتي إلى البحر لتعقد معه صلحاً أبدياً، ثم تضع كفّها على صفحته باطمئنان، هذان الماردان كان لا بدّ لأحدهما أن ينكسر جبروته بالآخر، بقاؤهما هكذا دون

رباط كان سيحرمنا من مجيء الملايين أمثالك يا صديقي الطيب فلا تقلق، كل شيء ممكنٌ في دبي . .

هزّ رأسه وهو يربّت على كتفي وعيناه تومضان بفكرةٍ بعيدة. .

- في دبي، كل شيء ممكن، ممكن!

الفصلُ السابع

أرضُ البُن

«منذ زمنٍ طويل ونحن نبحثُ عن فردوسٍ مفقود لا وجود له،
حين يغيب عن خيالنا سيكون كل شيء ممكناً»

- جيمي -

(1)

كنتُ حزيناً وأنا أصعد إلى الطائرة المتجهة إلى أديس أبابا برفقة المرّي، كانت قصة إيلسا تملأ صحف الصباح، دون أن تتضمّن أي إشارةٍ إلى هوية الجناة أو احتمال الوصول إليهم، سوى نصف سطرٍ يتحدث عن دائرة اشتباه عريضة، وفي صفحاتٍ أخرى كان فريج المُرر حاضراً بمأساةٍ ثانية لا تقلّ فجاعة، كانت بناية الرّيم -في الصور- أكواماً من الركام..

قبل هذا بنحو أسبوع جاء في الأخبار أن هزةً ارتدادية مركزها إيران ضربت سواحل الإمارات وخاصةً مدينة دبي، وانهارت بعض الأبنية القديمة في المدينة، لم يخطر ببالي وقتها أن إحدى فجائعها قد تشملني بأي حالٍ من الأحوال، لولا أنني تذكّرتُ أرقام لوحة السيارة الجيب وأنا برفقة صديقٍ لي في أبو ظبي، فجأة..

لا أعرف ما الذي قفز بها إلى ذهني، ولا أعرف بعد ذلك كيف طويتُ المسافة بين المدينتين لأضع في يد صديقي جمال أو مجنون ليلى طرف هذا الخيط ثم يتصرف هو بطريقته، لكن حين وصلت كانت سيارات الإسعاف والشرطة وقوات الدفاع المدني تطوّق الفريج..

سألتُ أحدهم..

- ماذا جرى؟

- انهارت بناية قديمة على ساكنيها..

سألت الله أن يكذِّب حدسي، لكنه لأمرٍ ما لم يستجب، إذ حدث ما لم أكن أتمناه، كان جمال تحت أنقاضها، مات، ماتت قصته، انتهت عذاباته بعذابٍ أخير..

لم أحتمل النظر إلى رجال الدفاع المدني وهم ينتزعون أشلاءً من تحت الركام، ثم يجمعونها كما يجمعون أكوام اللحم في سلالٍ عملاقة، لم أحتمل بكاء الرجال، نشيج الثكالى، وجوم الفريج، ذلك الغول الذي لا يرحم..

بقيت وحدي أخيراً، بعذاباتهم جميعاً، ولم يبقَ حولي سوى المرّي، حينما حدثني بشأن السفر خشيتُ عليه هو الآخر، وعلى نفسي أيضاً فآثرتُ الهرب بعيداً، وها أنذا..

- كم بقي على وصولنا؟

سألتُ المرّي..

- حوالي ساعتين ونصف الساعة..

حسناً لا بأس من إغفاءةٍ قليلة.

(2)

تِنق.. تِنق..

استيقظتُ على صوت قائد الطائرة وهو يعلن بدء الهبوط التدريجي نحو مطار أديس أبابا ويطلب البقاء في المقاعد وربط الأحزمة..

فتحتُ النافذة، كانت الطائرة تتأرجح بعنف وسط غيمةٍ رمادية داكنة، وميضُ البرق وصوتُ الرعد أحيا اللحظة أكثر، أنعشها، رفعتُ ظهري عن المقعد وألصقتُ جبهتي بالنافذة الزجاجية السميكة أتأمل منظر الغيم، المطر، وهو يهطل مثل أعمدة الدخان نحو المدينة البعيدة، كان لطيفاً الإحساس بالهبوط على جناح غيمة، بينما كانت المدينة تظهر وتختفي بين فتحات الغيم..

اقتربنا أكثر، كانت أديس أبابا تغتسل في ستورٍ من الجبال المحيطة، كأنما تتهيّأ لاستقبالنا، وسَطُها المنبسط كراحة اليد، جميلٌ رائقٌ منظمٌ، الخضرة تملأ الفراغات بين الأبنية وعلى جوانب الطرقات، والأسقف البهية من القرميد الأحمر تعطي شعوراً بالفخامة، دائرةٌ واسعة من الجبال، محشوة بمدن الصفيح كانت تحاصر المدينة في صبر..

على سُلّم الطائرة المغطّى بسقفٍ بلاستيكي لفحنا هواءٌ بارد، ارتدى حمد المرّي معطفاً كبيراً، كان مكوماً على حجره طوال الرحلة، ثم خرج به مُعلقاً على يده..

- قلتُ لك أن تأتي بمعطف، أديس أبابا باردة دائماً..

- لستُ في حاجةٍ إليه، ارتداءُ معطفٍ في جوٍّ كهذا، جحود!

ضحك المرّي، بينما أخذتُ نفساً عميقاً، ملأت صدري بالهواء قدر طاقته وأكثر، لعلّ ذلك يغسله من ثقل أحزانه، بالعكس كنتُ سعيداً لهذا الاستقبال، كأنما هذه «الزهرة الجديدة» -كما يسميها أهلها- قصدَتْ أن تجدّد لي روحي..

استقبلنا موظفو المطار في الأسفل بانحناءةٍ ودودة، ثم فردوا مظلاتهم فوق رؤوسنا وساروا خلفنا، وخيوط الماء تتدلّى دوائر من حولنا حتى صعدنا إلى الحافلات الرابضة تحت المطر..

دخلنا صالة القادمين، كانت دافئة، تضج بأهلها وبتلك اللغة العذبة، تشا نجا تشو تشي كونج تشا تشاتشو، كزقزقة عصافيرٍ تحتفل بالمطر..

في بهوٍ صغيرٍ ملحقٍ بالسوق الحر لفت نظري مجلس قهوةٍ، تتصدره أمهرية جميلة، ترتدي الـ«زوريا» الأبيض وتجلس مثل فراشة، أمامها طاولة بيضاء على بساطٍ من عشبٍ أخضر، وفوقها عشرات الفناجين الصغيرة وأباريق القهوة وأطباق الفوشار، ألحَحْتُ على المرّي أن نشرب من يدها قهوة، قامتْ من مقعدها، يداها مبسوطتان إلى الأسفل جوار جسدها، تمسكان بأطراف الزوريا الفضفاض بينما انحنى رأسها أمامنا استقبالاً، جلسَتْ بعد أن تأكدت

أننا جلسنا، ثم حيّتنا بابتسامة ودودة تنتظر أن نطلب شيئاً..

- كونجو بُنّا سَرالِّيْنج، بَنّاتِشْ![1]

قال المرّي وهو يضع معطفه على الكرسي المجاور، تعابير وجهه وهو يقول ما قال لا توحي بأنه قصد أن يلفت الانتباه، لكنّ لسانه الأمهري الفصيح كان كافياً لأن يُحدث ذلك، وضعت الفتاة يدها على فمها من الدهشة، وانتبهتْ بعض الفتيات اللائي كُنّ حولها إلى هذا الخليجي الذي يضع غُترةً وعُقالاً على رأسه ويتحدث الأمهرية كأهلها، فصار المرّي محور الاهتمام كله طوال الجلسة، ورضيتُ أنا بدور الكومبارس إلى أن انتهت أنخاب القهوة، لم يكن وجودنا وحده مثار الاحتفاء، كان الجمال متواطئاً مع الفقر إلى حدٍّ مدهش، فدفع المرّي دون أن يحسب..

خرجنا من المطار، توقف المطر، سيارة تاكسي متداعية كانت تُقلّنا إلى الفندق الذي اختاره المرّي، كانت تسير بسرعة أقرب إلى الهرولة، مريحة للتأمل فيما كنا نمر به، فطلبت من السائق أن يأخذ بنا جولة قصيرة قبل أن يوصلنا إلى الفندق..

أرصفة مزدحمة بالمارة، نساء في أثواب الزوريا، يخطرن في الطرقات بإيقاعٍ رشيق، رجال يرتدون بِذات ومعاطف والكل يمشي وعلى رأسه مظلة ملونة، وحمد المرّي يحدثني بشأن ما جرى بين صديقيه أبو سلطان ومرزوق..

- أرهقني ذلك البخيل أبو سلطان حتى وافق على البيع بزيادةٍ قليلة عن ما عرضه مرزوق..

---

(1) كونجو بنا سرالينج بناتش: قهوة لو سمحتِ.

دخلنا منطقة مزدحمة، أغلب أبنيتها صغيرة من طابقين أو ثلاثة، محلات مختلفة لبيع الملبوسات، مطاعم، مقاهي، سيارات متنوعة، عربات يجرها أشخاص، حمالون، ونساء على ظهورهنّ أطفال مربوطون في قطع قماش، تطل رؤوسهم خلف رؤوس أمهاتهم..

- والله لولا إني ضغطت على مرزوق أيضاً لما استطعنا أن نكون هنا اليوم..

عند التقاطع المزدحم عشرات المتسولين والباعة المتجولين كانوا يتوزعون على نوافذ السيارات، ما أن رأوا عقال المرّي حتى خفّوا إلينا وتحلقوا حول سيارتنا، فلم يجد المرّي بداً من توزيع كل ما كان في جيبه من «البِرْ» العملة الإثيوبية التي استبدلها في المطار، لكن ذلك لم يخفف من وطأة المتسولين وإنما زاد من عددهم إلى الحدّ الذي حجب الرؤية، النوافذ قديمة لا يمكن إغلاقها وكذلك سرعة السيارة لا تسمح بالهرب المباغت، والمرّي يصرخ..

- والله لم يبق في جيبي شيء، لم يبق شيء..

عندها نزل السائق، واستعان بشرطي كان يراقب المشهد من بعيد، وقاموا بتفريق التظاهرة التي سببها لنا عقال المرّي، انطلقت السيارة من جديد، أغلق معطفه إلى حلقه وخلع غُترته وعقاله ووضعهما على حجره..

- هكذا نخلص من المشاكل..

قال المري، سطعت الشمس وأصبح الجو صحواً، كنا وقتها أمام جامعة أديس أبابا، بوابة عملاقة من الحجر الأحمر والسياج الحديد ذي اللون الفضي، أسَدانِ منحوتان يتقابلان وقوفاً على رأس

بوابتها العتيقة، أسد يهوذا كان أحد ألقاب إمبراطور أثيوبيا الأشهر هيلاسيلاسي وهو الذي بناها قبل قرنٍ تقريباً، طلاب وطالبات، يدخلون ويخرجون، يضحكون، يتحدثون، فتذكرت أستير، إيفين، إيلسا، بيتي، لو قدِّر لهنّ أن يكملنَ دراستهنّ هنا، لتغيّرت أشياء كثيرة..

- الحمد لله على كلّ حال، ذلك اليوم لو لم تتدخّل لما تمّت هذه المبايعة، لقد عوّضتني الكثير أنا ممتنٌّ لك..

ربّتُّ على فخذه برفق شاكراً. امرأة مُسنة تضع على رأسها سلةً ضخمةً من السعف، وبالكاد كانت تمشي تحت وطأتها، خلفها مباشرةً امرأة أخرى تحمل على ظهرها حزمة من القصب المربوط إلى بعضه بإحكام، ويمشي تحتها طفلان عن يمينها ويسارها، وشباب من مختلف الأعمار بشعور ملفوفة مجعّدة وقلائد على صدورهم، راجلين وعلى دراجات، وفتيات في بناطيل من الجينز وشعورٍ مستعارة، ناعمة..

في نهاية طريقٍ طويل انعطفنا نحو اليمين، إلى طريق عريض، المنطقةً أكثر نظافةً وتنظيماً، ساحة واسعة مسفلتة مرصوفة، في وسطها بحيرة رائقة ونصبٌ لأفريقيا بخارطتها التي تشبه الجمجمة وبسحناتها المنحوتة عليها، وإلى القرب منها أعلام ترفرف فوق مبنىً ضخم تتوسطه قبة كبيرة، قال السائق إنه مقر الاتحاد الأفريقي، أسواره قصيرة، مزدانة بالأشجار المشذبة والأزهار الملونة..

- لكن بصراحة، مرزوق مرتاح لك جداً، ويتمنى فعلاً أن يراك عندما نعود..

توقف السائق أمام مبنىً رمادي من ثمانية طوابق، كان مكتوباً عليه «فندق ناشيونال». .

- بإذن الله، أنا أيضاً أتمنى أن أراه. .

حملنا حقائبنا ودلفنا إلى الفندق. .

(3)

تناولنا غداءنا ثم صعدنا إلى غرفنا في الطابق الخامس لنرتاح قليلاً، لكنّ روعة الطقس كانت راحةً أخرى، فتحتُ النافذة على منظر غيمةٍ مثقلةٍ في الأفق، تدفعها ريح الجنوب باتجاه المدينة التي لا تتعبُ من المطر، بشائرها تلفح وجهي مرةً بعد أخرى، وتهزّ ستائر النوافذ البيضاء في مرح..

كان مبنى الاتحاد الأفريقي تحتي مباشرةً، هادئاً وخالياً من السيارات والزوار، حراسة من بضعة أفراد على بوابته الضخمة يرتدون معاطف بلاستيكية كبيرة، يتجولون أمام البوابة في ملل، وكان بعضهم يدخن..

خلف المبنى منطقة حديثة، بيوتها مصقولة الجدران ومسقوفة بالقرميد الأحمر الفخيم، تتدلى من بعض أسوارها شجيرات الجهنمية ذات الورود الحمراء، إلى اليسار يمتد الشارع العريض حتى ينتهي عند نقطةٍ مجهولة في قلب المدينة الممتدة، إلى أقصى اليمين كنتُ أرى ساحةً كبيرة بمدرجات وصور، يشقّها شارع عريض يتقاطع مع الشارع الذي يمرّ أسفل الفندق عند نهاية الساحة، أقصى الأفق وفي كل الاتجاهات جبال، تزحف نحو قمتها أبنية صغيرة متزاحمة..

هبّتْ ريحٌ باردةٌ، ووصلَتِ الغيمة في إثرها، ثم زخّت حمولتها على سقف المدينة، والناس في الشوارع كأنهم لا يكترثون، مظلة، معطف، أو قطعة كرتون، أقصى ما يقُون به أجسادهم النحيلة..

رنّ هاتف الغرفة، كان حمد المرّي..

- حاولت أن أنام، لكنني لم أستطع..

- وأنا كذلك، الطقس لطيف فعلاً..

- ما قصدت هذا..

- ... ؟

سمعتُ زفيره على السماعة..

- كل الهواتف مغلقة..

- هواتف مَن؟

- سلام، وشقيقتها وزوجها..

لم أعرف بم أجيب، ظللتُ برهةً على السماعة لا أتكلم..

- هل سمعتني؟

- نعم، سمعتك، كان خطأً منك أن تُخبرهم بمجيئك..

- ...

- دعنا نلتقي في المطعم بعد قليل، نشرب قهوة ونتحدث، مؤكد أننا سنجد حلاً..

كان حائراً ومتوتراً أيضاً، لكن لم يكن في ذهني أي شيء، أي فكرة يمكن البدء منها لمساعدته، كما لو كنا سنبحث عن سمكةٍ في محيط..

- ماذا تقترح؟

قال صديقي وهو ينظر إليّ بتوسل. .

- ألم تسألها مطلقاً قبل هذا، أين تسكن؟

- سألتها، لكن لا أذكر الآن، كان هذا قبل وقت طويل. .

- ولم تسأل الطفلة أو أباها أو أي أحد ولو من باب الفضول؟

- لا أذكر، لا أذكر الآن أي شيء. .

ثم بدأت أراجع معه تفاصيل ما جرى، لعلي أجد خيطاً، لكن ذاكرته المثقوبة لم تكن لتساعد البتة، فخطر لي أن نتصل بسارا صاحبة المقهى، فقد كانت سلام تعمل نادلةً لديها ذات يوم، وقد تدلنا على أي خيط، أخرج هاتفه واتصل بها على الفور. .

- ألو سارا، إنْدنِّشْ. .

- . . .

- لا، موجود في أديس أبابا. .

- . . .

- وصلنا للتو. .

تحدث معها طويلاً ومهّد لها، ثم سألها، لكنني شعرتُ من حديثه بعد ذلك وكأنما يرد على استجواب، جئتُ لعملٍ وسوف أعود عمّا قريب/ أود فقط زيارتها/ جلبتُ معي هديةً لها/ وما إلى ذلك من الحجج المفضوحة. .

- إشي، إشي، كوي آلّو. .

وأغلق الهاتف. .

- قالت إنها لا تعرف عنها شيئاً منذ وقتٍ طويل، ستجري بعض المكالمات وستعاود الاتصال بعد قليل..

لم أكن واثقاً من وعدها، لكن لا مفرّ من الانتظار، جلس المرّي يطقطق على الطاولة بأطراف أصابعه، كانت الكافتيريا خالية تماماً، إلا من صوت أسطورة الغناء الأمهري محمود أحمد، يبث الدفء في المكان..

طاولات مرصوصة في ثلاثة خطوط متوازية تبدأ من البار المقوّس قرب الباب، وتنتهي عند الحائط المقابل الذي تزيّنه لوحة عملاقة لفتياتٍ أثيوبيات في حقل بُن، زنابيل من السعف معلقة على ظهورهنّ المحنيّة على شجيراتٍ بُنٍ خضراء، وتلمع في أكفهنّ حباته الطازجة، ويمتد الحقل خلفهنّ إلى حيث تقبع بضعة أكواخ مخروطية مسقوفة بالقش، ثمة فوارق في نسب عناصر اللوحة وألوانها، لكن لا بأس بها على العموم، نادلة رشيقة تقف قرب البار كانت تتأمل معي اللوحة من بعيد، وهي تنتظر رهن الإشارة بعد أن قدمت لنا قهوتنا..

لا أعرف كم مرّ من الوقت حتى رنّ جرس الهاتف رنةً واحدةً مبتورة، ضحك المرّي من أنفه..

- وييييي كُواطاري[1]، هذه المرأة لا تستحي، أنا أستخدم التجوال الدولي، وهي تصرّ ألا تضيّع فلساً..

اتصل بها متلهّفاً، استمع قليلاً دون أن يقول شيئاً، ثم عاد إليّ بوجهٍ بائسٍ ممتعض، فعرفتُ أن مسعاه قد خاب، أحباش دبي لا يمكن الحصول منهم على شيء من دون مقابل..

(1) كُواطاري: بخيل.

كان أمامنا خيار وحيد، لكننا ندرك أنه شبه مستحيل، وهو الاتصال بالبنك الذي تسلمت منه سلام مبلغ التحويل، عناوينها، أين تسكن؟ أين تعمل؟ هو الجهة الوحيدة التي تتوفر لديها مثل تلك المعلومات، لكن كيف ذلك؟

المهم قررنا أن نذهب إلى البنك في الصباح، ونحاول..

- الآن أود أن أخرج..

قلتُ لصديقي..

- إلى أين؟

- إلى أي مكان، المهم أن نخرج، لا يمكن أن نبقى في غرفنا حتى صباح الغد، ألا ترى هذا الطقس؟

نظر إليّ نظرةً فارغة، كانت أوسع من أن تشملني وحدي، كان ينظر أمامه، شارداً دون تركيز، ثم عاد إليّ من جديد بانتباهٍ أقل أيضاً..

- أمهلني قليلاً أبدل ملابسي وأعود..

- ذلك أفضل حتى لا نقع في مشكلةٍ مجدداً..

عاد بعد قليل يرتدي طقماً رياضياً من الصوف بلونٍ رمادي، وكاب، وحذاءً رياضياً، وتبعني دون حماس، اخترنا سيارة تاكسي حديثة هذه المرّة، جلسنا في المقعد الخلفي..

- إلى أين؟

قال السائق..

- ميركاتو..

قلت، التفت المرّي نحوي بحدة..

- هل زرتها قبل الآن؟

- لا، هذه أول مرة..

- ...؟

- أعرف شخصاً من هذه المنطقة، حدّثني عنها كثيراً وأحبّ أن أراها..

لم أشأ أن أقول له إنه الحي الذي طالما حدثتني عنه أستير، انطبعت له في خيالي عشراتُ الصور من حديثها، حتى بقي ضاجّاً، حيّاً أبداً في ذهني، واليوم لا بد أن أراه على الحقيقة، لا بدّ أن أمرّ بكل المحطات التي مرت بها، البيت، المدرسة، الكنيسة، الجامعة، حيث عاشت غربةً في أرضٍ لم تعرف غيرها، أرغب في أن أطرق كل باب في ميركاتو لأسأل عنها، حكاية أستير، بعض تفاصيلها لن تكتمل إلا إذا رواها المكان..

لم يكن يصغي، نقل بصره مني إلى النافذة، ومثله فعلت، نتأمل شوارع المدينة المغسولة ومعالمها الدارسة والتي رافقتنا لبعض الوقت ثم بدأت تختفي لتحلّ محلها أحياء مكتظة وبيوت صغيرة مبنيّة على عجل..

حوائط عارية من الطوب الرمادي العريض، غرف من القش والطين وأخرى مسقوفة بالصفيح، تقوم بين فرجاتها أشجار كثيفة فوضوية، أطفال بملامح يائسة، معيز، حمير، سار بنا التاكسي نحو عشرين دقيقةً في طرقٍ مهترئة وأخرى ترابية حتى توقف فجأةً في ساحةٍ تعجّ بالفوضى..

كومة من المحلات المتداعية، تشبه مقبرةً قديمة، أشار إليها السائق من بعيد..

- ذاك هو سوق ميركاتو!

لم أكن أقصد هذا، كدتُ أقول له، هذا المكان لا يشبه أستير، أستير لا يمكن أن تكون من هنا، لا يمكن أن تثمر المقبرة أحياءً!

المكان عبارةٌ عن لوحة سريالية عائمة، ساحة طينية واسعة خلّفها المطر، تعجّ فوقها سيارات وشاحنات وعربات تجرها حَميرٌ منهكة، تاكسيات، ركشات، دخان عوادم، جلبة بائعين، موتورات كهرباء تطقطق دون انسجام، بالكاد وجدنا قطعةً جافةً من الأرض وقفنا عليها وبناطيلنا مرفوعةٌ إلى منتصف الساق، ولا نعرف من أين نبدأ؟

- الآن كيف نمشي؟

قال حمد المرّي ساخراً، رأيت طريقاً نحيلةً تمتد أمام بعض محلات صيانة السيارات، وبعض المشاة يسلكونها في صفوف طويلة في الاتجاهين مثل قوافل النمل، اقترح المرّي على السائق أن يرافقنا فاستحسن الفكرة، أغلق سيارته جيداً ثم سار أمامنا..

تبعناه إلى أن قادنا وسط هذه الضوضاء إلى أحد مداخل السوق، نقنقة الدجاج ورائحة روثه المختثر أول ما استقبلنا، كانت محلات صغيرة لبيع الدواجن تتوزع على جانبي المدخل، أقفاص وطاولات زحفت على الطريق الضيق المسقوف بحصائر من القش والخيش والبلاستيك..

المدخل المكتظ بالزوار والزبائن يقود إلى أسواق أصغر داخل

السوق، كل صنفٍ من الأصناف يحتلّ جانباً مقابلاً للآخر، على يميننا كانت تصطف محلات لبيع مشغولات السعف من الزنابيل إلى الحصائر إلى حافظات الخبز إلى مراوح السعف اليدوية، وعلى يسارنا محلات لمنتجات الألبان، من الجبن إلى الزبدة إلى السمن جعلت رائحة المكان كلها كمزرعة أبقار..

لم يكن دليلنا يتكلم، وحده السوق كان يحدّثُ عن نفسه، تقدمنا قليلاً فإذا النحل يقيم حفلةً لاستقبالنا، طنينٌ ولسعاتٌ على وجوهنا وأيدينا، وكانت بعض البائعات داخل محال العسل يضحكْنَ من فرط خوفنا، والمرّي يمازحهنّ بما فتح الله عليه من مفرداتٍ أمهريّةٍ لاذعة، حتى قرّر فجأةً أن يشتري عسلاً من فتاةٍ نحيلةٍ سمراء لم تعرف مساحيق المدينة طريقاً إلى وجهها الأغبش، الممتلئ بالبثور كنبتة الصبار..

دخلنا ثلاثتنا حتى ضاق علينا المكان، كان يشبه الصمود في ساحة معركة، لم يُجدِ الهش بالأيدي لصدّ جحافل النحل، ضحكت الفتاة مرةً أخرى ثم أطلقت بخوراً في المكان حتى خفّ الطنين..

- آند كيلو مآر، سينت ناو؟

قال المري، تحمست الفتاة وجلبت نوعين من العسل، أبيض وأسود، تذوقهما المرّي بنهمٍ وحماس..

- هذا فعلاً عسل أصليّ..

كان بعضه مرصوصاً بنظام على أرفف المحل الضيق، الصغير، ومعبّأً في عبوات مختلفة داخل أكياسٍ سميكةٍ صغيرة، تركت صديقي قليلاً وخرجت وحدي..

عبرتُ أزقةً متشعبةً داخل السوق، تطلّ عليها ما لا يخطر بالبال من صنوف البضائع الشعبية، ضجيج البائعين والمارة كان يتكثف مع قرب حلول الظلام..

عثرتُ أخيراً على مخرجٍ ضيق يقود إلى خارج السوق، كانت بيوت الحي تظهر وتختفي في زحمة المارة، وصليب الكنيسة كان يتأرجح من بعيد فوق هذه الفوضى مثل سارية العَلَم..

حجرٌ ضخم كان يقبع في ناصية السوق، صعدتُ عليه فانبسط الحي أمامي إلى حدود تلةٍ صغيرة تقع خلفه، تربض فوقها كنيسة صغيرة تشبه الضريح القديم، لا بدّ أنها كنيسة القس تيدروس، لكن أين أستير؟

(4)

في الساعة التاسعة تماماً كنا داخل البنك، حمد المرّي يتأبط ملفاً ممتلئاً بسندات قبض، لكن ملامحه يائسة، محبطة، شددتُ على كفه ونحن ندلف إلى مكتب مسؤول قسم التحويلات بعد أن رفض الكثير من الموظفين مساعدتنا، طرقنا الباب طرقاً خفيفاً حتى سمعنا نداءً يطلب منا الدخول..

كان مكتباً صغيراً، أرضيته مقسمة إلى مربعات صغيرة بيضاء وسوداء مثل قطعة الشطرنج، خزانة ملفات حديد جديدة الطلاء، إلى جوارها حافظة ماء زرقاء، تحت النافذة المقابلة طاولة خضراء متوسطة من الخشب مليئة بالملفات والأوراق المبعثرة، بالكاد كان الموظف العجوز يجد موطئاً فيها لتقليب ملفٍ أو تحرير ورقة، نظر إلينا من فوق نظارته، وأشار بالجلوس دون أن يتكلم، وكان أمام الطاولة كرسيّان من الخيزران الأبيض، جلسنا عليهما ننتظر..

نحيل، بشعرٍ مجعّد يغلب عليه الشيب، يرتدي قميصاً أبيض مقلّماً بالأزرق، ربطة العنق الحمراء المرقّطة بالأسود تعصر ياقة القميص حول جيده المنخنق النحيل، نظر إلينا نظرة أخرى حادة، وهو يضع كلتا يديه مبسوطتين على أوراقٍ أمامه..

- كيف أساعدكما؟

تحرك المرّي قليلاً فوق مقعده، ابتسم وهمّ بالكلام، لكنني سبقته . .

- حمد المرّي، رجل أعمال إماراتي، كانت لديه موظفة أثيوبية تعمل معه في دبي و . . . .

- ماذا كانت تعمل؟

فكرتُ قليلاً . .

- سكرتيرة . .

- حسناً . .

- كانت فتاةً جيدة، مجتهدة في عملها وأمينة أيضاً، ونشأت علاقة عمل جيدة بينها وبين هذا الرجل . .

بضيق . .

- ماذا بعد؟

- بعد الاتفاق بين الطرفين انتقلتْ الفتاة إلى أديس أبابا لتأسيس مشروع صغيرٍ . .

مقاطعاً . .

- مشروع ماذا؟

وما شأنك أنت؟ كدت أقول له، لكنني تماسكت بصعوبة . .

- مشروع دواجن . .

أومأ برأسه إيجاباً . .

- المهم، قبل ثلاثة أشهر حوّل لها ما يعادل مائة ألف دولار عبر بنككم هذا كرأسمالٍ للمشروع . .

- آآآ فهمت . .

- . . . ؟

- ثم هربت الفتاة، ولم يجدها، هاتفُها مغلق أو لا تجيب، أليس كذلك؟

أربكني، فقلت متلعثماً . .

- لا، لا، لم تهرب، حتى أول أمس كنا نكلمها و . .

وبضيق . .

- ولماذا أنتم هنا إذن؟

- تمّ الاتفاق بينهما على حضور هذا الرجل إلى بلدكم للقيام ببعض الإجراءات التي تخصّ المشروع، ووصلنا بالفعل يوم أمس و . . .

قاطعني بزفرةِ ضيق . .

- يكفي!

وضع نظارته فوق أوراقه، شعرتُ لوهلة أن الحوار قد وصل معه بالفعل إلى طريقٍ مسدود، أخذت الملف من المرّي ومددتُ له بعض الأوراق، تناولها غير متحمس، ثم قال بلهجة العارف . .

- هذه مشكلة معظم الخليجيين، يدفعون أموالهم دون أن يتحققوا من أي شيء، ثم يدفعون أضعافها بحثاً عنها . .

بدا الضيق على وجه المرّي، وفرك يديه مع بعضهما، غمزتُ له ألا يتحدث . .

- الآن نود فقط مساعدة صغيرة منكم . .

نظر إليّ بعينين ضيقتين..

- أعرف ما تريدان، هذا الأمر ينبغي أن تعرضاه على الشرطة، على المحكمة، لا عليّ!

- لكن بإمكانك أن تدلنا على عنوانها، هذا سيساعدنا أيضاً حين نلجأ إلى الشرطة..

وضع نظارته على عينيه وعاد إلى أوراقه، ظللنا برهة ننظر في وجهه الممصوص، المرقّط بآثار بثور قديمة تركت عليه حُفراً مثل حائطٍ في أرض معركة، تحرك المرّي فوق مقعده من جديد، وحاول أن يكلمه بلطفٍ اجتهد كثيراً في تصنعه..

- نحن ضيوفكم على أي حال، ولا يصح أن ترفضوا مساعدتنا..

أعاد الملف إلينا دون أن ينظر في وجوهنا، وقّع بعض الأوراق ثم وضعها داخل ملف آخر كان أمامه..

- بيكيرتا[1]، لدي عمل..

طوال الطريق كان المرّي شارداً، يتأمل عبر النافذة شيئاً ما لا وجود له، يزفرُ أحياناً، يستغفر، فقلتُ أواسيه:

- لا تقلق يا صديقي، إن كانت هذه الفتاة موجودة في أديس أبابا حتماً لن يعجزنا الوصول إليها..

نفث هواءً من صدره، ثم أطرق، أصابعه تعبث في الهاتف..

- هل تصدّق؟ منذ أن جئتُ إلى هنا لم أعد أفكر في المال..

---

(1) بيكيرتا: آسف.

- ...؟

- العودة دون رؤية سارا، هي الخسارة التي لا تُحتمل!

- لكنك تعلم أنها ليست إب....

- أعلم، يا صديقي أعلم..

ربّت قليلاً على ركبتي بيده وعاد ببصره إلى النافذة لبعض الوقت، ثم التفت إليّ..

- لا يمكن أن تكون أباً ثمان سنوات كاملة ثم تصبح شيئاً آخر، لمجرد أن أحداً قال لك على الهاتف إن من اعتقدتَ أنها ابنتك لا تخصك، الأمر ليس بهذه البساطة..

- لم أفهم؟ هل تقصد أنك لا تزال تعتقد أن..

مقاطعاً..

- أحببت سارا كأب، والأب لا ينفع إلا أن يكون أباً على الدوام، هل تفهمني؟

- أتود أن تبقى أباً لها رغماً عنها وعن أبيها؟ هل جرى لعقلك شيء؟

ضحك.

- ربما، لكن ليس كما تفهم أنت، طوال السنوات الماضية كنت أؤجل فرحتي بسارا، كما لو كانت فاكهة ينبغي انتظار نضجها، كنت أتهيّأ -بطريقتي- للّحظة التي تجمعني بها، كانت في ذهني أبداً لحظةً خاصة لا بدّ لها من استعدادٍ خاص، ربما أبكي أو يُغمى عليّ أو أموت بسكتةٍ مفاجئة، المهم أن تبقى هي واعية لتلك اللحظة،

مُدركة لكل ما يدور فيها حتى لا تنسى شيئاً من تفاصيلها الحميمة طوال حياتها..

- أقسم أن شيئاً قد جرى لعقلك، لم أعد أشك في هذا!

ابتسم، دون أن يقول شيئاً كما لو كان يكلم نفسه، ثم تنهّد ونظر إلي نظرةً ودودة..

- أحمد الله أنك وجدتني عاقلاً!

زفر هواءً كثيفاً من صدره..

- المهم في الأمر يا صديقي، أنني الآن أبٌ رضي أبو سارا أم لم يرضَ، أبٌ انتظر طويلاً ليليق بلقبٍ صغيرٍ كهذا..

تكثف الدمع في عينيه، فهرب بهما نحو النافذة مجدداً، أخذ وقتاً ريثما عادتا كما كانتا..

- حين كانت تسألني -على الهاتف- دائماً متى ستزورنا؟ كنت أقول لها قريباً جداً، طوال ثمانية أعوام كانت تنهل من دمي بحديثها هذا، كلما قالت بابا، كانت تتمدد في روحي أكثر حتى امتلأت بها، كلما قالت لي أحبك كانت تمور في جسدي كله مثل علةٍ لا شفاء منها، الأب وحده لا يشفى من فتنة الأولاد، فهل تريدني أن أشفى الآن؟

غلبه دمعه أخيراً حتى انهمر على خديه، مسحه بطرف غُترته برفق، ثم نظر إلى الأمام، إلى الطريق الممتد كما لو كان هو السائق، أما السائق الحقيقي كان لا ينطق أو يسمع، كان جزءاً من مقود سيارته، يدور حيث يدور، ويعتدل كيفما اعتدل حتى وقف بنا أمام مدخل الفندق..

نزل المرّي من السيارة كما يفعل مريضٌ عائدٌ من مشفى، أمسك بيدي حتى يحفظ توازنه..

- أيّاً كان ما فعلته سلام، فأنا ممتنٌّ لها أن جعلتني أباً لثمان سنوات كاملة! وذلك وحده يشفع لها..

(5)

اعتكف المرّي بعد ذلك في غرفته، لا يخرج إلا إلى المطعم أو يتمشى قليلاً أمام مدخل الفندق ثم يعود، أصبح شحيح الكلام، قليل الحركة، وترك لي مهمة البحث وحدي، لم يبق مكانٌ محتملٌ في أديس أبابا إلا وذهبتُ إليه بحثاً عن سلام، عن سارا، وبين الفينة والأخرى أعرّج على حيّ ميركاتو لأبحث عن طريدتي الضائعة أنا أيضاً، لكن دون جدوى، كلما مرّت لحظة أو زرت مكاناً خالياً من أي منهنّ كنتُ أصاب بالإحباط، وكان المرّي يغرق في وحل الاكتئاب أكثر..

في الثانية من صباح أمس كلمني على هاتف غرفتي، طلب مني بصوتٍ مبحوح أن أحضر له أقراصاً من «الترامادول» بأية طريقة..

نزلت في جوف البرد والمطر، وسرتُ على قدميّ مسافةً تزيد على ثلاثة كيلومترات إلى أن وجدت سيارة تاكسي، طفتُ بها أديس أبابا كلها لأعثر على صيدلية..

- هذا الدواء لا يُصرف إلا بوصفة، لو أنك تتعاطاه فالمفروض أن تكون الآن في مشفىً أو مصحة!

قال الصيدلي، فتوسلت إليه وأغلظتُ له في القسم أنه لصديق

يرقد متعباً في الفندق وأننا ضيوف، وبعد إلحاح دوّن عنوان إقامتي واسمي واسم صديقي، وعدتُ بالدواء. .

عند حلول الثامنة مساءً، كان المرّي لا يزال نائماً، ذهبتُ وأيقظته بصعوبة، طالعني بوجهٍ متورم، شاحب، وبعينين مدفونتين في الورم والاحمرار، وصوت متحشرج، ولسانٍ ثقيل كلسان مدمن. .

- في أي يومٍ نحن؟ وكم ساعةً نمت؟

- اليوم السبت، وأظنك نمت خمس عشرة ساعة على الأقل. .

قام وفتح صندوق الترامادول وابتلع حبةً أخرى، ثم نظر إلى السقف لا يكلمني، قلت له. .

- أظن يكفي ما يحدث، ينبغي أن نعود إلى دبي في أقرب فرصة. .

كأنه لم يسمعني، لم يقل شيئاً. .

- سأذهب غداً إلى أقرب مكتبٍ لخطوط الطيران لتدبير حجزٍ قريب. .

انقلب على جنبه الأيسر، أدار لي ظهره ليواجه الحائط. .

- الآن ينبغي أن نأكل، هيا خذ حماماً وسأنتظرك في الكافتيريا. .

ظلّ يحمحمُ دون أن يكلمني. .

- لم أضع لقمةً في فمي منذ أربعٍ وعشرين ساعة، أنتظرك كل هذا الوقت ولا ينبغي أن تدعني آكل وحدي. .

تحرك في سريره متأوهاً بخفوت كمن يعتذر أو يعاتب نفسه،

انقلب على ظهره مجدداً ونظر إلي، فتحت باب الغرفة ونزلتُ إلى الكافتيريا، لحق بي بعد ساعةٍ تقريباً، فحمدتُ الله أخيراً أنه فعل. .

طوال العشاء أيضاً لم يكن يتكلم، كما أنه لم يأكل كثيراً إذ اكتفى بقطعٍ صغيرةٍ من الدجاج وملعقتي أرز، جيء بالقهوة، شربها على مهل، ولا يزال صامتاً. .

- كيف تشعر الآن؟

هزّ رأسه فقط أنه بخير. .

- أفكر في الخروج، ما رأيك؟

نظر إليّ باستفهام. .

- نخرج إلى أي مكان، نادٍ ليلي مثلاً، نقضي فيه ساعةً أو ساعتين، شيء من التغيير. .

لم يرد، نظر إلى الفراغ برهةً قليلة كمن يفكر، ثم حمل قارورة ماء كانت على الطاولة، تركني وحدي وصعد إلى غرفته. .

قمتُ متثاقلاً باتجاه بوابة الفندق، كان البهو قد بدأ يزدحم مع حلول المساء، بضعة أفراد وعائلات برجوازية أثيوبية تتوزع على الطاولات بعد أن نثرت معاطفها الناعمة على ظهور المقاعد، تأكل بشبع، تتحدث وتضحك بأصوات خفيضة موزونة، لو نظرتَ إليهم لانتبهتَ إلى أثيوبيا أخرى راسخة، لكن لا تراها دائماً. .

كان الطقس لطيفاً في الخارج، حباتُ المطر الذهبية المكورة كانت تتساقط بلطف وتلمع على أضواء مصابيح السيارات وإنارة الطريق، بمجرد أن وقفْتُ، جاءت عيناي في عينيّ أحدهم في العقد الخامس تقريباً، كانتا رائقتين تحت حواجب كثة وخدين لم يقسُ

عليهما الزمن كثيراً، وجه مستدير تعلو سمرته مسحة بيضاء، شعر رمادي مجعّد، يرتدي معطفاً أسود من الصوف، وتحته بذلة رمادية، وكان يدخن غليوناً، ابتسم، وابتسمتُ أيضاً. .

فجأةً توقفت ثلاث سيارات سوداء، فُتحت الأبواب ونزل منها رهطٌ متثاقل، تقدم بخطوات بطيئة نحو مدخل الفندق، كانوا يتحدثون ويضحكون، بعضهم يحمل ملفات وآخرون حقائب، ما أن مرّوا بجوارنا حتى ضحك الرجل من أنفه، ثم هزّ رأسه باستخفاف، شعرتُ أنه يرغب في أن يقول شيئاً، نظرت إليه مبتسماً فلم يتكلم. .

نفض رماد غليونه في بركة صغيرة من الماء بحجم الكف تجمعت من قطرات المطر وعبّأ جوفه بتبغٍ جديد وأشعله، ثم وضع يديه في جيبه وصار يروح ويجيء أمام المدخل في قلق، هممتُ بالعودة إلى الداخل، لكنني سمعتُ صوته يحدثني. .

- هل أنت من السودان؟

- نعم. .

- لقد كان جزءاً منا يوماً، هل تعرف ذلك؟

هي نبرة استعلاء إذن، لم يقل حتى «كنا شيئاً واحداً» لكن كيف أرد؟

- ربما، فكلها أرض واحدة وشعوبٌ بعضها من بعض. .

مطّ الرجل شفتيه بامتعاض. .

- أما اليوم صارت أثيوبيا مثل الأسد العجوز؟

- . . . ؟

- كان «نُقوسْ[1]» الحبشة -التي في ذمة التاريخ الآن- محروساً بجبروتٍ إلهي لم تعرف هذه الأرض مثله أبداً..

صمت قليلاً..

- هؤلاء الذين دخلوا الآن، كان سادتهم يزورون بلاط «نقوس» مرةً في السنة، يحملون خراج أرضهم وأنعامهم من حدّ النيل إلى المحيط، هيّناً طائعاً، ثم يعودون إلى صحرائهم تلك بكسوة شرفٍ أو سوطٍ أو سيفٍ أو لقب يُخضعون به رعاياهم، ذكرُ اسم نقوس وحده كان كافياً لأن يخضع أرضاً بمساحة بريطانيا العظمى، أترى أين وصلنا؟

زفر هواءً كثيفاً من فمه ثم ضحك بسخرية وهو يمشي بخطوات متغطرسة، وصل إلى ناصية الفندق ثم عاد، أشعل غليونه مرةً أخرى..

- اليوم صارت أثيوبيا شيئاً عجيباً، تبدّل الحال رأساً على عقب..

- لم أفهم حتى الآن ماذا تقصد؟

نظر إلى ناحية مبنى الاتحاد الأفريقي، ثم أشار إليه وهو يكلمني..

- من هذا المكان كنا نتحكم في مصير أفريقيا كلها، ومن هذه الأرض كنا نلهم عدداً من الشعوب حول العالم، لا بأس به، أما اليوم صرنا نُعرف بعاهراتنا!

اقترب مني أكثر، رائحة الدخان والعطر النفاذ الذي يضعه كان

---

(1) نقوس: نجاشي.

مزيجاً غريباً في أنفي، وفي خضمه لفحتني رائحة خمر. .

- هؤلاء الذين دخلوا الآن هم أراجوزات يسميهم حكامنا بالمعارضين، يأتون بهم من إرتريا أو الصومال أو السودان، ثم يستخدمونهم في معارك لا طعم لها، معارك ما كان لها أن تحدث أصلاً لو كان حكامنا كأسلافهم الذين أخضعوا الجبل والنيل والبحر والصحراء في آن، بل وغزوا مكة ذاتها في يومٍ ما، مثل هؤلاء الذين رأيتهم قبل قليل كانوا جزءاً من أملاكنا المنسيةً، لكن ماذا تقول؟ لقد أصبحت الحبشة مسخاً مشوهاً يحكمه قوادون، تافهون، قسموا بلادنا ومرغوا تاريخنا في التراب، بذلك العُهر الذي تسمونه الديمقراطية!

في هذه اللحظة التي كتمتُ فيها غيظي بصعوبة وقررتُ أن أعود إلى الداخل، جاءت سيارة مرسيدس بيضاء، فارهة، أوقفها سائقها ثم فتح أبوابها ووقف ينتظر، لم أكن في حاجةٍ لأخمّن أنه ينتظر شخصاً مهماً. .

استدرتُ عائداً، لكن ما أن استقرت نظراتي على الباب الدوار حتى خرج عجوزٌ أرستقراطي يمشي بتؤدةٍ تجبرك أن تفسح له الطريق فتنحيّتُ جانباً، كانت برفقته سيدة جميلة التقاطيع برغم تجاعيد وجهها التي لم تكن خافية، ابتسما في وجهي بأدب، انضم إليهما الرجل الثمل ذو الحاجبين الكثيفين وصعدوا جميعاً، أنزل زجاج النافذة الأمامي، ثم قال وهو يلوّح بوداعي:

- أثيوبيا شاخت أيها السوداني الطيب، فأهلاً بك في حبشتنا العجوز!

ثم قهقه وهو يرفع زجاج النافذة، وانطلقت بهم السيارة. .

(6)

أما هنا كانت أثيوبيا شيئاً آخر، فتيةً، حامية، شبابٌ وفتيات في مهرجانٍ من الألوان والأضواء، قابَلَنا المدير الشاب ذو البذلة السوداء اللامعة وربطة العنق القرمزية بابتسامةٍ عريضة، باهية، وانحناءةٍ ودودةٍ على الباب، ثم رافقنا في جولةٍ قصيرة ليساعدنا على اختيار طاولة مناسبة..

غربتُنا كانت بائنة، بل لافتة أيضاً، ونحن نسير بمهلٍ بين الطاولات وشاغليها الذين كانوا يديرون رؤوسهم نحونا مثل عبّاد الشمس كلما مررنا بجوارهم..

كان المكان مكتظاً، ولم تفلح محاولات الشاب ذو البذلة السوداء إلا في توفير طاولة قرب منصة العرض المنصوبة على زاويةٍ من المكان، رغم أنه كان فسيحاً في الأسفل ويطل عليه قسمٌ علوي كالشرفة المستديرة إلا أنه ضاق بمن فيه..

ثمة طاولة مزينة بالورود وأوراق الهدايا اللامعة، تقبع فوقها كعكة عملاقة وشموع ملونة، كانت تقبع على مقربةٍ من المنصة، لا بد أنه عيد ميلاد أحدهم/ إحداهنّ..

– لم أفهم حتى الآن سر اهتمام هؤلاء الأحباش بأعياد ميلادهم؟

قلتُ للمرّي فابتسم فقط..

طوال الطريق أيضاً لم يكن يتكلم، رغم أنه هو الذي فاجأني برغبته في اللحظات الأخيرة بعد أن يئستُ من ذلك وعدتُ إلى غرفتي لأنام، اتصل بي ليخبرني أنه الآن جاهز للخروج، فلم أجد بدّاً من النزول سريعاً ولقائه عند الباب، ثم أقلّنا سائق التاكسي إلى هذا المكان «ديسكو كونكورد»..

- يخلقون من كل مناسبة احتفالاً، حتى ولو كانت تافهة، كأن الغد لن يطلع عليهم إذا فوّتوها..

ابتسمْتُ، طالما أنه قادرٌ على مثل هذا التأمل فقد بدأ يتحسن، تمعّنتُ في وجهه قليلاً، الذبول الذي كان يسيل عليه لأيام راح، وحل محله نضارٌ خافت، والعينان اللتان كانتا تمتلآن بالفراغ صارتا الآن أكثر تركيزاً، ابتسمْتُ له وابتسم أيضاً ثم لفت نظري إلى المسرح كي لا أطيل التأمل في وجهه أكثر، صعدت الفرقة، حيّتنا، صفّقنا، ثم انهمر الصخب..

أغنية من تراث الأورومو كان تصدح بها مطربة بدينة، بدانتها كانت النشاز الأوحد على المسرح المنسجم، عزفاً وغناءً ورقصاً، ثم توالى عرض الفسيفساء الفنية لهذا البلد المسكون بأدواء القوميّات، لكنهم بارعون أيضاً في إظهاره متناغماً..

توقف الرقص والغناء لبرهة، نُحّيَ كل شيء جانباً ووُسّطت طاولة عيد الميلاد أعلى المسرح، وفجأةً حدث ما لم يخطر ببالي أبداً..

صعد وجه أعرفه جيداً ويعرفني، وتبعه وجه آخر أعرفه أيضاً،

يقود طفلاً ذا خمسة أو ستة أعوام حتى صعد به إلى الأعلى ثم وضعاه بينهما وصفق الجميع، ولم أصفق من هول المفاجأة..

أمسك الشاب بالميكروفون وبدأ يتحدث حديثاً طويلاً بالأمهرية لم أفهم منه إلا القليل..

- نحتفل اليوم بعيد ميلاد ابننا الوحيد سلمون، وبخروجه معافىً بعد إجراء العملية، نشكركم أنا وأمه لأنكم تفرحون من أجلنا، أمسغينالو..

صفّقوا مرةً أخرى، ولم أصفق أيضاً، نقل إليها الميكروفون، ومثله أيضاً..

- أشكر الرّب أنه منّ على ابني بالشفاء بعد أن يئسْت، وأشكر لكم حضوركم وصلاتكم من أجله ومن أجلي، بيطام أمسغينالو..

قالت، بصوتها الطفولي الذي قتلني منذ اليوم الأول وغمرني بالحنو الأبوي الذي لم أعرفه في حياتي، وكان الدمع ينهمر من عينيها حتى فتح أخدوداً على طبقة الماكياج فوق وجهها، ثم انكفأت على ابنها تقبله وعلى زوجها تحتضنه وتوزع ابتساماتها التائهة وقبلاتها على الحضور حتى وقعت عيناها في عيني مباشرةً..

تسمّرت برهة في مكانها، ثم ارتبكت، لم تعرف ماذا تفعل أو كيف! ظلّت تتنقل بين الولد والكعكة والأب وأنا، تفعل أشياء لا معنى لها بيدين مرتعشتين، سقطت من يدها سكين، ملعقة، وكسرت طبقاً، ثم انهارت تبكي وجهها بين كفيها وفوقها زوجها يحاول أن يفهم والكل يصفق، انتهزتُها فرصة لنهرب من المكان، سحبتُ المرّي من يده لنخرج..

- ماذا جرى؟

- لا شيء، سأشرح لك لاحقاً..

رذاذ لطيف في الخارج ولسعة برد، وندرة في سيارات التاكسي على الطريق المكتظ بالمارة وفتيات الليل والساهرين في عطلة نهاية الأسبوع، لجأنا إلى مظلةٍ صغيرة مظلمة في محطة باص، نحتمي من قطرات المطر التي بدأت تزداد شيئاً فشيئاً، ومن بيتي!

سمعناها تنادي باسمي، كانت تقف في منتصف الطريق، تتلفت، تصرخ، ثم انضمّ إليها زوجها وبعض صديقاتها، محاولين إعادتها إلى الحفل..

- ماذا يجري؟

- ما أضيق الدنيا، هذه بيتي التي حدثتك عنها، وذاك أيضاً زوجها جيمي، هما من سرقاني، هل تذكر؟

هزّ المرّي رأسه وهو ينظر إليهما من جديد، كانت تتلفت في الطريق الخالية بعصبية، كادت تصدمها سيارة تاكسي انحرف سائقها بمهارة في الوقت الذي جذبها جيمي إليه، خرجنا إليه سريعاً وأوقفناه ليقلّنا إلى الفندق..

أفلتتْ من حضن زوجها بصعوبة حين رأتنا، وانطلقت تجري نحونا، في اللحظة الأخيرة أمسكتْ بمقبض باب السيارة وهي تتوسل إلينا -بهستيريا- كي نعود..

- يِكِيرْتا، يِكيرْتا، أكمل معنا هذه الليلة وسأشرح لك كل شيء، أرجوك..

- شيقّر يَلَّمْ بيتي، عودي واستمتعي مع زوجك (كنت أنظر إليه في عينيه) وابنك، لقد انتهى هذا الأمر..

أطرق جيمي إلى الأرض خجلاً، وهي لا تزال تتوسل..

- إيباكو[1].. إيباكو..

التفتُّ نحو المرّي، فهمتُ من نظراته أنه يدعوني لأستجيب، فعُدنا برفقة العائلة المحتفلة وسط دهشة الحاضرين وتركيزهم علينا مجدداً..

احتفلنا معهم وكأن شيئاً لم يكن، حملتُ الطفل بين يدي، قبلته وداعبته، حاولت قدر المستطاع ألّا أفسد فرحتهما أكثر من ذلك، حاولت أن أخفف قدر ما أستطيع من عقدة الذنب التي كانت تربك تصرفاتهما إلى أن انتهى الحفل وبقينا وحدنا..

- كان من أجل سلمون، أجريت له عملية تبديل صمام ميترالي، ولم أجد بدّاً من فعل ذلك لأجله، أنا آسفة..

لم أرد، أشرتُ إليها بيدي لتتوقف عن الكلام، لكنها لم تفعل..

- كنتُ أود أن أتصل بك لأشرح لك الأمر وأعتذر منك، والآن مستعدة للعودة والعمل دون أجر حتى تستقطع كل ما أخذت..

- لا داعي لذلك الآن، لقد انتهى كل شيء، على الأقل من أجل سلمون..

داعبته بقرصةٍ في خده، فضحك وضحكوا، ثم حمحم جيمي ليعتذر..

---

(1) إيباكو: أرجوك.

- نحن آسفان حقاً، كان رغماً عنا، ولم يسعفني الوقت لأخبرك بشيء على الرغم من لقاءاتنا العديدة في دبي..

ضربتُ على كتفه..

- لا عليك..

نادت بيتي على النادلة وأصرّت أن تضيّفنا من جديد، لكننا اعتذرنا، ثم دعتنا إلى الغداء نهار الغد..

- الغداء عندنا، وقبل ذلك أود أن أريكما شيئاً..

- ...؟

- دارُ أطفال جميلة، قضى فيها سلمون وغيره بعض أيامهم، وبعض أثمان غربتنا..

- لا بأس..

- إذن سنمرّ عليكما في الفندق في حوالي العاشرة صباحاً..

- إشي

- إشي

ودعناهما وانطلقنا..

(7)

ذهبنا باكراً إلى مكتب الخطوط وحجزنا مقاعدنا في رحلة اليوم التالي إلى دبي، لكن لم تزل الغصّة في حلق المرّي تصعد وتهبط حتى سدّت حلقه عن الكلام، ثم عدنا إلى الفندق ننتظر بيتي وزوجها في البهو. .

- منذ أن توقفتُ عن تناول الترامادول ليلة البارحة أشعر بالراحة، لقد أنهكني. .

- هذا جيّد، لا أعرف ماذا يفعل، لكن الصيدلاني حذرني منه. .

هزّ رأسه. .

- لا تشغل بالك بذلك، أتمنى أن تتحسن حالتي فعلاً، أن يكون يومنا الأخير في هذا البلد أفضل من سابقه، لقد تعبتُ يا صديقي. .

- تفاءل خيراً. .

زفر قليلاً وهو ينظر ناحية باب الفندق. .

- أنا خائف، حدسي يُقلقني. .

ربّتُّ على كتفه، جاء جيمي وبيتي واعتذرا عن التأخير بلطف، ثم انطلقنا جميعاً بسيارة تاكسي، جلس زوجها إلى جوار السائق وجلسَتْ هي معنا في المقعد الخلفي، على يميني..

- هل أستطيع أن أطلب شيئاً صغيراً..

قلتُ بصوتٍ خفيض، وكان العطر الذي تسبح فيه يذكّرني بأنوثتها وبخطل فكرة الأبوة التي لبستُ عباءتها من أول يوم، عندما أعطتني أذنها، ودغدغَتْ وجهي بخصلات شعرها، وجسدها المخملي يفعل ما لا يخطر بالبال، أدركتُ كم كنتُ ساذجاً..

- هذا مؤكد..

فقلتُ بصوتٍ لم يكن لي..

- نبحث عن واحدة اسمها سلام، كانت تعمل في دبي وعادت إلى أديس أبابا قبل عشرة أعوام، لديها ابنةٌ لشقيقتها اسمها سارا، هذا كل ما نعرفه عنها..

هرب المرّي إلى النافذة وكأنه لا يود أن يسمع، ضيّقت عينيها قليلاً كما لو كانت تحاول أن تتذكّر..

- سلام اسم شائع هنا، وقد تجد الآلاف من الفتيات بهذه المواصفات التي ذكرتها، لكن أعدك أن أحاول..

تنهّد المرّي دون أن ينظر إلينا، أما هي فنقلت عينيها الطفوليتين، مني إلى النافذة المزدحمة بالصور والمارة، فمددتُ يدي خلف ظهرها وأمسكتُ بإطار النافذة، نظرت إليّ وابتسمت، كنا نسير تقريباً في الطريق ذاته الذي سلكناه من قبل إلى ميركاتو، فتذكرتُ أستير..

- هل تعرفين أستير؟

- . . . ؟

- كانت نادلةً عند سارا في مقهى الزمن بفريج المُرر. .

- نعم، أعرفها، وأعتقد أني رأيتها هنا . .

كاد قلبي أن يقفز من صدري، ضممتها إليّ دون أن أشعر، فسَرَتْ فيّ رعشة انتبه لها المرّي بخبث. .

- ويش فيك إنت؟

- لا شيء، أحببتُ أن أرى أستير، هل تذكرها؟

- أي أستير؟ فتاة المقهى؟

- نعم، هي. .

ضحك من قلبه. .

- والله أنت خبيث يا زول، كل هذا الوقت ولم تقل شيئاً؟

- ليس بيني وبينها شيء صدقني، فقط أحببت أن أراها، البنت طيبة وتستحق. .

- تستحق، ها؟

وظلّ يضحك ويردِّد هذه الكلمة، وضحكت بيتي وضحك جيمي، ثم انفجروا جميعاً بقهقهة مرحة، وقال المري. .

- كل هذا الوقت وأنا مخدوع؟ سنجد سلام، سنجد سارا، وأنت تبحث عن هذه الصومالية!

- ليست صومالية يا صديقي، تحمل جوازاً صومالياً فقط. .

- كله عند العرب صابون. .

- أي صابون؟

قالت بيتي ببراءة، فضحكنا جميعاً، لم ننتبه إلى أننا وصلنا، إلّا حين توقفت السيارة أمام فيلا صغيرة، تهيّأنا للنزول بينما كان المرّي لا يزال يقهقه، وهذا وحده أكثر ما أسعدني في الأمر، أخيراً غادرته الكآبة..

اقتربت مني بيتي وهي تهمس، لامسَتْ شفتاها وأنفاسها أذني فارتعشْتُ، كيف تفعل ذلك وزوجها موجود؟ ما أغرب هؤلاء الرجال!

- نفرغ من هنا ثم نذهب للغداء في البيت، وبعد ذلك إلى ميركاتو لنسأل عن أستير..

قالت لي بيتي بصوتٍ خفيض..

أومأت برأسي إيجاباً، ثم نظرت ناحية مدخل الفيلا، لوحة مضيئة صغيرة على الباب كان مكتوباً عليها شيء بالأمهرية، فدلفنا إلى الداخل..

ثمة أطفال يتصايحون في الحديقة الصغيرة، وبعضهم في الممرات، وضجيجهم يصدر من غرفٍ على اليمين واليسار، أخذتنا بيتي خلال كل ذلك، إلى أن دخلنا على سيدة أربعينية في مكتبٍ أنيق..

- هذه راحيل، يسمونها هنا بأم الأجيال، هي المالكة والمديرة لهذه الدار..

سلمنا عليها واحداً بعد الآخر، قصيرة، بدينة بعض الشيء، لكن رأسها صغير كرأس عصفور، تضع نظارةً أنيقةً مستديرةً على وجهها، أثر الزمن بائنٌ على وجهها وظهر كفيها ومنابت شعرها

الأمامية التي خالطها البياض، قامت من مكتبها ودعتنا للجلوس على طقم الصوفا الوثير أمام المكتب، ثم نادت على عاملةٍ في المكتب لتضيّفنا . .

عشرات الصور والأوسمة تزين الحوائط، صور أطفال في مناسبات مختلفة وهي تتوسطهم، صورٌ لها وهي تصافح مسؤولين، شهادات مختلفة مؤطرة، من منظمات دولية ومحلية، وصورة عملاقة لها خلف مكتبها مباشرةً، في ملامح أصغر وأجمل، لكن بمريلة مطبخ، رأسها معصوب بمنديلٍ ملون وفي يدها مكنسة، وخلفها - على الحائط- صورة لعمر كرامي، لفتت نظري . .

قمتُ من مكاني ووقفتُ أتأملها، فبدأت حديثها مباشرةً من هذه الصورة وكأنما تردّ على ما يدور في ذهني . .

- فكرة هذه الدار نبعت في تلك الأيام، كنتُ أعمل خادمة لدى عائلة بيروتية في لبنان، وكان حولي مئات الفتيات الأثيوبيات اللائي خلّفن وراءهنّ أطفالاً مجهولي المصير وخائبي الآباء . .

شرق جيمي بالماء، فوضع الكوب على الطاولة وهو يسعل، وعدتُ إلى مقعدي لأستمع . .

- كنّ يُرسلن نصف دخولهنّ إلى أولئك الأطفال، لكن معظمه لم يكن ليصل إليهم، فخطرت لي فكرة إنشاء هذه الدار، اتفقتُ مع ما يقرب من عشرين فتاة لأبدأ معهنّ هذا المشروع على أن يُرسلن نصف ما كنّ ينفقن على أبنائهنّ في السابق باسم هذه الدار، مقابل طعام الأطفال ودراستهم وكسوتهم وعلاجهم والاهتمام بهم، وكذلك مصروف تشغيل الدار . .

جيء بالشاي والقهوة، وبينما انشغلت بيتي بضيافتنا قامت راحيل من مكانها إلى المكتب، أخرجت ملفاً أزرق قديماً ونثرت محتوياته على الطاولة..

- هذه قائمة بأسماء أول دفعة في هذه الدار وهذه صورهم، كانوا خمسةً وعشرين، وكان ذلك قبل نحو عشرين عاماً، واليوم بعضهم نجوم رياضة وفن ومجتمع، ويدينون بالفضل لهذه الدار..

أغلقت الملف بعد أن عرضت علينا مجموعة من المقابلات الصحفية وشهادات التقدير العديدة التي نالتها في السنة الأولى لافتتاح الدار، خلعت نظارتها الصغيرة وضمّتها في كفها المجعّد، اتكأتْ على الصوفا مجدداً، ووضعتْ رجلاً على أخرى بزهو..

- اليوم لدي ثلاثة مراكز مشابهة في أديس أبابا وحدها، تضم ما يقرب من ألف طفل في مختلف المستويات، أمهاتهنّ في كل مكان، من لبنان إلى الخليج إلى السودان إلى أوروبا وأميركا، وأنا فخورة بهذا النجاح ومدينة لأمثال بيتي أنهنّ منحنني فرصة أن أكون أماً لهذا العدد الهائل، بعد أن فقدتُ الأمل في ذلك في حياتي الخاصة..

جملتها الأخيرة أحدثت وخزاً مؤلماً في صدر صديقي المرّي، شعرتُ به وحدي، تململ قليلاً ثم قام وطلب بلطف أن تسمح له بجولة صغيرة في أرجاء الدار، فأشارت بيدها مرحبة..

خرج المرّي وبقينا نتجاذب أطراف الحديث حول أوضاع الأثيوبيات اللائي يعملن في ظروف إنسانية غاية في السوء خارج بلادهنّ، وحول دور الحكومة ومنظمات المجتمع في حمايتهنّ ومتابعة حقوقهنّ المهدورة على أكثر من صعيد..

ثم علمنا منها أن زوجها محامٍ وقد أنشأ حديثاً منظمةً تهتم بهذا المجال لتكتمل جهودهما مع منظماتٍ أخرى تنامى لدى أفرادها مثل هذا الوعي، وباتت تمارس ضغوطاً مختلفة على الحكومة لتقوم بأدوارها في حمايتهنّ، شكرناها ووقفنا نتهيّأ للخروج، مالت بيتي على راحيل وهي تشير إليَّ..

- الطيب، مدير المكتب الذي كنتُ أعمل فيه، وهو الذي دفع كلفة عملية سلمون وعلاجه، وأحببتُ أن يزور هذا المكان لأننا فخورون به!

فاجأتني بهذا الجميل الذي لم أحسب له حساباً، ففتحتُ فمي لأقول شيئاً، لكنها ضغطت على كفي بيدها البضّة، فألجمتني..

- ليت كل أرباب الأعمال يكونون مثلك، سلمون طفل نابه وقد أسديتَ له معروفاً لن ينساه لك طوال حياته..

قالت راحيل، فشكرتها بخجل، ثم خرجنا، وخرجَتْ معنا لتودعنا إلى باب الدار، ما أن فتحت الباب حتى سمعنا نشيجاً، شهيقاً حاداً، هرولنا سريعاً إلى مصدر الصوت، في الممر التالي من جهة اليمين، فإذا المرّي يحتضن طفلةً وهو يبكي..

- سارا، سارا..

مع وصولنا، أمسك بوجهها بين كفيه، وهو يداعبه بحنو عظيم..

- ييني أبّاتيش[1] سارا، ذلك الذي كان يتصل بك كل يومٍ من دبي، هل تذكرين؟

---

(1) أبّاتيش: أبوك.

لم تكن تتكلم، كانت مذعورة، إلى أن خلّصتها راحيل بصعوبة من بين يديه، وقد تكدَّر مزاجها..

- كيف تفعل هذا بها؟

لم يستطع الكلام، فجذبتُ راحيل بعيداً وشرحتُ لها ما جرى، لكنها فاجأتني..

- ومن قال له إن اسمها سارا؟

صرخ المرّي..

- هي سارا، أقسمُ أنها هي..

امتعضت راحيل، ثم قالت موجهةً حديثها إلى الطفلة..

- سيميش ميناو[1]؟

- فيرتونا!

قالت الطفلة بصوتٍ مرتعش، دفعت بها راحيل إلى امرأةٍ كانت في الجوار لتأخذها إلى فصلها، فرفع المرّي عقيرته بالبكاء، لم أدر ما أصنع، جذبتُ راحيل بعيداً واعتذرت منها..

كان المرّي في حالةٍ سيئة، جئته بالماء وشرب قليلاً ثم مشى متثاقلاً نحو بوابة الدار دون أن يستأذن أحداً، وقف هناك يداه في جيبيه وذهنه شارد..

خرجَتْ سارا من حياة المرّي وإلى الأبد، وخرج معها من روحه المعذّبة، المشققة حلمُ عمره الذي خاتله طويلاً وانتهى إلى العدم..

---

(1) سميش ميناو: ما اسمك؟

خرجنا جميعاً، أوصلناه إلى غرفته في الفندق، ثم انطلقنا باتجاه البيت، طوال الطريق لم يكن يتكلّم، وحتى بعدها . .

وإلى الأبد . .

(8)

كان بيتاً متواضعاً، بل جزءاً مقتطعاً من بيتٍ آخر لعله بيت العائلة، لكنه مفصولٌ تماماً ويفتح في اتجاهٍ معاكس، غرفة واحدة ملحقٌ بها صالون صغير، بالكاد يتسع لأربعة مقاعد وطاولة متوسطة، وحامل تلفاز، حوائطه عارية، إلا من ستارتين خفيفتين على النافذة والباب، مسقوفٌ بالزنك المموّج مع حوشٍ صغير كان مرتعاً لسلمون ومعزتين..

تبادلنا قليلاً من الحديث ثم جيء بالغداء، طبقٌ واسع من الإِنْجيرا المفروشة وفوقها صالونة زغني حارة، التهمناها فشعرنا بالدفء، ثم جاء أفراد عائلة بيتي من الجانب الآخر وسلّموا عليّ وتبادلت معهم القليل الذي أعرفه من اللغة الأمهرية، وكانت أمها تضحك واضعةً يدها على فمها كلما قلت شيئاً بلساني المعوج الذي أفسد جرس هذه اللغة العذبة، كانوا جميعاً وقوفاً إلى أن استأذنوا بانحناءةٍ خفيفة وودّعوني بأدبهم الجم الذي لم أره في شعبٍ من الشعوب قبل هذا..

كانت القهوة على النار، وبيتي في لباس الزوريا الأبيض الفضفاض إلى جوار الموقد، أعدّت طبقاً سريعاً من الفوشار المقرمش، ثم أتبعته بالقهوة وبدأت الأنخاب..

- أهلاً بك في دارك..

قال جيمي من المقعد المقابل، وهو أول ما قال منذ الصباح عدا كلماتٍ مقتضبةٍ قليلة..

- شكراً على الضيافة الرائعة..

وضع فنجانه على الطاولة بعد أن ارتشفه..

- أنا خجلٌ من نفسي، طوال الوقت لم أستطع أن أفعل ما ينبغي على الرجال فعله..

- لا عليك، لقد مضى ذلك..

تنهّد قليلاً، أشعل سيجارةً واعتدل ليواجهني ويضع عينيه في عينيّ لأول مرة..

- بلادنا المنهكة لم تتح للآلاف منا، بل الملايين أن يكونوا كغيرهم، وكذلك فتياتنا، لكن أعترف لك الآن أنهنّ أكثر جرأةً منا وكذلك رغبةً في تغيير هذا الواقع، بغض النظر عن الطرائق..

كانت بيتي تنظر إليه أغلب الوقت، وإليّ أحياناً، لكنها كانت نظرة تقول أشياء كثيرة كلما التفتُّ نحوي لتضع فنجان القهوة أمامي على الطاولة، بينما جيمي يتحدث وكأنه قد قرر أن يقول كل شيء..

- لعلك رأيْتَ بنفسك في تلك الدار التي زرناها في الصباح، كيف يهرب الرجال من مصائرهم، فتتصدى لها النساء، هذه واحدة من أعاجيبنا التي لا تفسير لها..

- ...؟

- صحيح أننا نعامل الجنسين على السواء، لكننا في غمرة

زهونا بهذه المساواة المائلة ننسى أدوارنا أيضاً، ولو أننا نتذكر لكانت بلادنا الآن غير ما رأيت..

جيّد أنه جاء على سيرة هذا، منذ أن عرفت هؤلاء الأحباش وأنا لا أفهم هذا الغموض المحيّر الذي يمور في وجوه رجالهم، ذلك الانطواء الذي يناقض طبيعة نسائهم تناقض الماء والنار، نظراتهم، سلامهم، حديثهم، شيء مختلف تماماً، فاقدٌ للود بالمرة، كلما جاءت فرصة للسؤال عن هذا كنت أستحي..

- كأنكما وجهان لشعبين مختلفين، من يرى نساءكم لا يصدق أنهنّ من أصلابكم!

- قد يكون محض انطباع، أنت ترانا من الخارج فقط، أما في دواخلنا نشعر بالتخمة منذ وقتٍ بعيد، رغم عشرات المجاعات والحروب والأوبئة التي ألمّت بنا في تاريخنا الحديث ولم تُنقص أعدادنا، بل زادتها، إلى أن اقتربنا الآن من تسعين مليون نسمة، ترى لو لم يحدث لنا كل ذلك كم كانت ستكون أعدادنا اليوم أو غداً؟

- أي تخمة؟ أنا أسأل عن شيء آخر.

- لا فرق، في الماضي كنا غيرنا الآن، في زمن الأباطرة، النقوس الذين سمعت بهم أو قرأت عنهم قطعاً، كنا محاربين أشداء نأتي باللقمة من فم الأسد، نحكم باسم المسيح المخلّص كل الأرض الممتدة بين النيل والبحر والمحيط، نقاتل في السهل والبحر والجبل من أجل صاع شعير رفض أحدهم أن يؤديه إلينا، أما اليوم صارت حتى لقمة العيش عصيةً، هذا أكثر الأجيال خيبة في تاريخ الحبشة!

صمت قليلاً، ارتشف ما بقي في فنجانه دفعةً واحدة ثم وضعه على الطاولة..

- ما تراه ليس تناقضاً إنما انسجام، توازن أزمنة، نحن وجه ذلك الماضي وهنّ ما ترى!

ضحكت بيتي بسخرية، ثم لملمت أدوات القهوة وذهبت إلى غرفتها الوحيدة مع ابنها سلمون، وتركتنا وحدنا..

- لا أفهم حتى الآن سبباً مقنعاً لكل هذا، أثيوبيا الحالية بلد كبير أيضاً وغنيٌّ كذلك بموارد لا حصر لها، وشعب له تاريخ وحضارة قديمة راسخة، ألم يفلح كل ذلك في تحفيزكم؟

اعتدل مجدداً..

- منذ زمنٍ طويل ونحن نبحث عن فردوسٍ مفقود لا وجود له، حين يغيب عن خيالنا سيكون كل شيء ممكناً!

جاءت بيتي وابنها وقد استعدوا للخروج، وقفتُ لأقول شيئاً، لكن جيمي سبقني..

- كنتُ وعدتُ سلمون بهدية، وعليّ الآن أن أفيَ بوعدي، وستأخذك بيتي إلى ميركاتو لترى أستير كما قالت لي، إذا كنتُ محظوظاً سألتقيك بعد ذلك، وإلا فالوداع..

عانقني وهو لا يزال يعتذر عما جرى..

- أنا آسفٌ حقاً، أتمنى أن يأتي اليوم الذي أستطيع أن أرد فيه الجميل..

- لا تقل هذا، لقد أصبحنا إخوة، أتمنى أن أراك قريباً..

- على أي حال، حديثنا انقطع، لكنه لم يكتمل، حتماً سنلتقي يوماً ما، لنقول أشياء كثيرة..

صمت قليلاً ويدي لا تزال بين يديه..

- أعترف لك، لقد اقتربْتَ منا كثيراً، لكنك أيضاً لم تعرف عنا كل شيء، بعض طبائعنا تبدو غير مستساغةٍ للآخرين، ولو كنتَ منا ربما لعذرتنا، لكنّ العزاء في أنك تتفهّم وأننا لا نكترث كثيراً، أراك بخير!

خرجنا جميعاً، وعلى أول الطريق استقل جيمي وسلمون أول حافلة ولوّحا بالوداع، بينما سرتُ وبيتي على أقدامنا في شارع ترابي عريض عبرناه إلى الجانب الآخر، ثم انعطفنا إلى ساحةٍ واسعة تحدّها تلة صغيرة من أحد اتجاهاتها..

- خلف تلك التلة يقع ميركاتو، سندور نصف دورةٍ حولها ونكون في عين المكان..

قالت، وهي خلفي بخطوة، طوتها في لمح البصر ثم شعرت بنتوء صدرها على ظهري، ومع كل خطوة أخرى كان يضغط ويشعل إحساسي بأنوثتها أكثر، ثمة نظرة يتيمة إلى الخلف حانت مني، لكن نظرتها الطويلة التي لم تنقطع كانت شبقة، جريئة، ولا يزال نهدها سادراً في غيِّه يصعد ويهبط فوق ظهري، ما عساني أفعل؟

- جيمي شاب جيّد لم تُفلح ظروفه في أن يكون زوجاً جيداً، ساعديه لكي يفعل..

لم ترد، بل كأنها لم تسمع..

نظراتها، صوتها، ضغطُها على كفي بكفها كلما سنحت لها

الفرصة، لم يترك فيّ نفساً واحداً أقاوم به هذا المدّ الغامر، سحبتُ يدي من يدها بهدوء..

أكملنا دورتنا حول التلة وانبسط ميركاتو أمامنا تماماً، فوجدتُها فرصة حين رأيت ثلاث فتيات يلغُطن في منتصف الطريق..

- اسألي هؤلاء إن كنتِ لا تعرفين بيت أستير..

مِلْنا نحوهنّ فانتبهن إلى مجيئنا ووجهي الغريب، فسألتهنّ بيتي..

- الاسم شائع، أي أستير؟

نظرت بيتي إلي، فقلت..

- أستير قيرما تيزارا..

لمعت عينا إحداهنّ ثم أشارت في اتجاه الشرق..

- أظنه يفتح على المدرسة، لكن لو لم تخنّي ذاكرتي كان لديها «لاغْسُو[1]» قبل أسبوعين..

- من مات لها؟

قلت بفزع، ففزعت البنت أكثر..

- ألّاوْغِم، ألّاوْغِم[2]!

بعد خطواتٍ لاهثة وسؤال شخصين آخرين حول المكان وجدنا البيت، كان من الخارج عادياً مثل معظم البيوت التي رأيتها، حائطٌ قصير من الطوب العاري، باب من الخشب أخضر اللون، كانت تبين

(1) لاغسو: مأتم.
(2) ألّاوغيم: لا أعرف.

من داخلة غرفة طويلة مسقوفةٌ بالزنك المموج ذاته وغرفةٌ أخرى مخروطية الشكل مسقوفة بالقش والحصير، لا بد أنه كوخ الشاويش، والدها المفترض. .

طرقنا الباب، لم يرد أحد، وطرقنا مرةً وثانية وثالثة حتى خرجت امرأة من البيت المجاور، دلقت ماءً ثم صرخت فينا. .

- بعد وفاة السيدة «ألَمْ» لم يعد أحدٌ في هذا البيت، لا تزعجونا لو سمحتم. .

- وأين أستير؟

قالت بيتي. .

- أخذت أغراضها وغادرت!

- إلى أين؟

- وهل تُسأل فتيات هذا الزمن إلى أين؟

ثم أغلقت بابها بعنف، تملّكني إحباطٌ عظيم، وقفتُ برهةً أتأمل المكان، أحاول أن أستدعي رائحتها من ذاكرةٍ بعيدة، كلماتها عن هذا الحي، آثار خطواتها التي لم تعد موجودةً فوق هذا الرمل، آلامها التي كانت تتضخم في هذا المكان دون أن يراها أو يحس بها أحد. .

كانت الكنيسة تربض فوق التلة مثل سفينة قديمة، أبوابها موصدة وأجراسها صامتة، ثمة طيور تحوم فوقها، تحطّ وتطير وهي تودع النهار وتتهيّأ لزخة مطرٍ جديد كانت نذره تقترب. .

المدرسة أيضاً صامتة مغلقة، مِعزاتٌ صغيرةٌ تتقافز حول

أسوارها وأطفال يلعبون في التراب أمام بابها الموصد المائل، تركتُ بيتي واقفةً في مكانها ثم اتجهتُ نحو بوابتها. .

فصول قديمة متراصة في شكل حدوة حصان، تتوسطها مصطبةٌ دائرية صغيرة بدرجات وفوقها سارية يرفرف عليها عَلَمٌ مهترئ، وكانت تتناهى إلى أذنيّ جلبة سوق ميركاتو من خلف أسوار المدرسة، التفتُّ ناحية البيت والبيوت الأخرى حيث كانت بيتي تنتظر، لا شيء فيه حياة، سوى السماء التي كانت تهدر بالرعود وتنذر بمطرٍ في الأفق. .

عُدتُ إلى صديقتي بخطواتٍ يائسة، ووجهٍ يتلفّتُ في فراغ، لأودِّعها وأمضي. .

- شكراً على كلّ ما فعلتِه من أجلي، سأبحث عن سيارة أجرة وأنطلق قبل هطول المطر، سلامي لجيمي وسلمون. .

قالت بفزع. .

- لا ليس الآن!

ثم استدركَتْ. .

- لن تجد سيارة أجرةٍ هنا، هذا أولاً، وثانياً لا بدّ أن نعود إلى البيت لأن جيمي حريص على أن يراك، ثم أودّ أن أريك شيئاً وأودعك. .

كانت مخاتلةً بائنة، لكنّ طاقة المقاومة في داخلي لأي شيء كانت في حدّها الأدنى، وافقتُ على مضض وسرتُ إلى جوارها مثل أسيرٍ لا يملك من أمره شيئاً. .

ما أن تقدّمنا خطوتين حتى سمعتُ صريراً لباب الكنيسة،

التفتُّ، كان قسيساً في ثياب بيضاء، يحمل صليباً خشبياً في يده اليسرى وآخر على صدره، يتلفح في صدره وكتفيه بقابي ثقيلٍ من الصوف، بلحية سوداء زحف عليها بعض الشيب وعينين حادّتين كعيني صقر، وقف برهةً ينظر إلينا نظرةً فاحصة، ثم نثر بعض الحَبّ للطيور المحلّقة حول المكان وعيناه معنا إلى أن انعطف بنا الشارع من حيث جئنا. .

أسرعنا أكثر هذه المرة، فقد بدأ المطر يتساقط والبرد يلسع، إلى أن تحول ذلك إلى هرولةٍ ثم جرْيٍ بأقصى نَفَس، يدي في يدها مثل طفليْن مرحيْن حتى دخلنا البيت، كان دافئاً، مظلماً، جلستُ على مقعدي ذاته أرتعدُ من البرد وملابسي مبتلة. .

غابت قليلاً ثم جاءتني بموقدٍ عملاق يطقطقُ جمره الملتهب لأستدفئ، ثم في جرأةٍ عجيبة نزعت عني قميصي المبتل، عصرَتْه بين يديها حتى نزّ عنه الماء ثم وضعته قرب النار كي يجف وقد بدّلت هي الأخرى ملابسها لتضجّ بالإغواء. .

جاءتني بقابي من الصوف كالذي كان يرتديه القسيس، اقتربتْ مني أكثر لتضعه فوق ظهري وهي واقفة، حشرت رأسي مباشرةً بين نهديها تحت كنزتها الفضفاضة، يجول بين هذا وذاك كلما تحرّكَتْ ذات اليمين وذات الشمال، ثم جاءت بمقعدٍ صغير وجلست أمامي والموقد بيننا، والشيطان. .

كل شيء فيها كان يقول هَيْتَ لك، لكنني لا أقوى حتى على الكلام. .

استدارت فجأةً في جلستها، ثم نزعت كنزتها الوردية الخفيفة

إلى الأعلى لتريني شيئاً على ظهرها العاري، آثار كدمات، خدوش، جروح قديمة مثل أثر السياط..

- ما هذا؟

قلت، استدارت مرةً أخرى وقد أصبحت الكنزة فوق كتفها تماماً، ويا لهول ما رأيت، ابتلعتُ ريقي ولم أنبس ببنت شفة، أشارت إلى أثر جرحين قديمين في حجم حبتي بُندق تحت نهديها النافرين..

- كما ترى، لقد أطفأ سيجارتين على صدري قبل هذا، ولا تكاد تمرّ ليلة إلا وضربني فيها، ذلك الذي كان يحدثك عن صنائع الرجال، الذي يستفرد بامرأةٍ ضعيفة هل يكون رجلاً؟

- لكن لماذا؟

لم يكن جيمي معنياً كثيراً بهذا السؤال، لكنها أجابت بلهفة دون أن تميّز..

- في الأغلب من أجل المال، وأحياناً من أجل لا شيء!

- لم لا تبلغين الشرطة؟ أو تحدثي أهلك؟

- كل هذا لا يجدي، عندما يستيقظ في الصباح يعتذر ويقسم ألا يكررها، ثم يأتي المساء فيفعلها ثانية، أصبر على كل ذلك من أجل سلمون..

ثم انفجرت تبكي، وظلّت هكذا لما يقربُ من ساعة، وكانت كلما شهقتْ اقتربت اللحظة التي بقيتُ خائفاً منها، اللحظة التي يجتمع فيها الحزن بالشيطان، ثم يشعلان النار في الأجساد، اقتربت

مني وجلست إلى جواري تنتحب، فتحتُ طرف القابي الذي أستدفئ به وأدخلتها تحت جناحي. .

- بالمناسبة هو الذي أجبرني على فعل ما فعلتُ في دبي، كان دائماً ما يحذرني من أن أخبرك بعلاقتي به، ربما كان يخطط لذلك. .

لم يكن يعنيني أبداً في هذه اللحظة، كانت يدي تصعد وتهبط فوق ظهرها العاري، المليء بالندوب، أنفي مدفونٌ في شعرها، وكانت رائحته مثل حقول الشياطين، تفوح بالوساوس. .

- لا أود العيش هنا مجدداً، هل ستساعدني؟

كان صوتها قد بدأ يتهدّج، ويدي تمسكُ بخصرها، ويدي الأخرى تزيح القابي الذي يغطينا إلى المقعد الآخر. .

ثم اعتلتني، تطفىء ندوبها، وجرى ما جرى. .

الفصلُ الثامن

الخُــــروج

«الناسُ في العادة يعطون الأماكن سَمْتَها، لكنّ فريج المُرر حالة فريدة، هو الذي يصبغ على ناسه شيئاً مثل الهوية الخاصة»

- حمد المرّي -

(1)

كَكُل البدايات التي لا تقف على رجليها إلا بجهدٍ عظيم، بدأتُ، واستغرقني العمل الجديد إلى الحد الذي لم أعد أميّز فيه بين ما ينبغي أن أوفّره لحياتي أو أهبه لعملي، وكحال فريج المُرر اختلطت الأشياء ببعضها، وتداخلت الأزمنة أيضاً . .

شغلي وبيتي أصبحا في مكانٍ واحد، الشقة ذاتها هي مكتبي في الصباح ثم سكني في الليل، حتى أكلي وشربي ونومي وراحتي، لم يكن من أجلي، بل كان من أجل العمل الذي بدأ من الذروة لا السفح . .

- هو مكتبٌ عقاري صغير سيدير هذه البناية التي اشتريتُها من أبو سلطان كما تعرف، بالإضافة إلى أخريَيْن في منطقة البراحة وبعض المحلات الصغيرة الأخرى في فريج المُرر وسوق نايف . .

قال مرزوق، بنبرةٍ بدا لي فيها نوع من الاستغفال لاحقاً . .

- لا بأس، أرجو أن أكون عند حسن ظنك . .

- أنا واثق أنك خير من يحمل عني هذا العبء . .

وقد كان عبئاً فعلاً، لم يخفف من وطأته حماسي الزائد ريثما يستوي على سوقه، ملفات لا تنتهي (تجديدات العقود، الرخص

الحكومية، أعمال الصيانة، تصفية الحسابات، متابعة شؤون المستأجرين، فواتير الماء والكهرباء، المحاكم، وهلم جرا)..

نسيتُ في غمرة هذا الطوفان أن أمرّ على مواقعي القديمة التي غادرتها، وكأني بِتُّ زاهداً فيها منذ أن عُدتُ من تلك الرحلة إلى أرض البُن والنساء، أثيوبيا..

شيء ما في داخلي بدأ يتغيّر، وكأنه حالة انسجام، تناغم مع هذه الفوضى التي تشبه فوضى صالات الترانزيت، كل شيء طارئ، مؤقت، وعليك أن تنتبه له انتباهاً طارئاً أيضاً، فقد لا تراه أو تجتمع به مرةً أخرى، وللأبد..

تذكّرت حديثاً قديماً لصديقي المرّي الذي لم يعد يتكلم الآن..

- الناس في العادة يعطون الأماكن سمْتَها الذي نحب، لكن فريج المُرر حالة فريدة، هو الذي يصبغ على ناسه شيئاً مثل الهوية الخاصة ثم لا تنفصل عنهم طول العمر..

إيلسا أيضاً قالت لي شيئاً من ذلك فيما مضى، لكن الأمكنة من غير ناسها كالصفحة البيضاء، الخالية، التي لا تحمل أيّ مضمونٍ، أيّ معنى، أي هدف..

منذ أن عُدتُ من أديس أبابا، بدا لي فريج المُرر مختلفاً، كما لو كان جداراً شاهقاً بين الناس وماضيهم، أماناً منه، من يدخله ينبغي أن يخلع تاريخه، ذاكرته، وينفض -على عتباته- نعليْه من غبار أيامه السّالفة..

عوالمه التي تجتهد في أن تبقى محايدة دائماً إزاء كل شيء، التاريخ، الجغرافيا، المستقبل، الأجناس والأحلام، كما لو كانت مركز جذبٍ هائل، يغرّر كل يوم بضحيةٍ جديدة..

هنا تجد البدونيّ، المواطن، الوافد من كل مكان، يجتمعون على صعيد لا يميّزهم إلا بجيوبهم، الجيب وحده هنا له الكلمة الفصل، حيث يكون فإنه الحاضر الوسيم الذي لا شبيه له. .

كلُّ يوم في فريج المُرر يبدأ من الصفر، كأنْ لا صلة له بالأمس أو الغد، ألهذا ربما قرر المرّي، مجنون ليلى، أستير، بيتي، إيلسا، ربما كلّهم، أن يهربوا إلى هذا الثقب الأسود الذي ابتلع ماضيهم، ذكرياتهم، وحتى مصائرهم من بعد؟

أنا أيضاً، قطعاً لم أختر أن أكون في هذا المكان بالذات، دون دبي الأخرى، دبي الباذخة، الشاهقة، لكن المصادفة التي جمعتني بسائق التاكسي الباكستاني، بعباس، ربما كانت القدر الذي لا مهرب منه، هنا صار يومي يبدأ وينتهي دون أن تكون له صلةٌ بما مضى أو ما سيأتي، مثلهم تماماً. .

حتى مقهى الزمن ابتعد به الزمن، أصبح فجأةً من الماضي، لم يخرج عن مألوف هذا السوق، حيث تتبدل الأشياء فجأة، تقوم كالعاصفة، كالإعصار ثم تختفي. .

كُنتُ كلما خاطرتني القهوة -مع ضيق الوقت- أنزل إلى مقهىً عربي موجود في أسفل البناية، أرتشف قهوة سوداء، ليس فيها من طعم القهوة الحبشية ومذاق أيامها شيء، المهم قهوة والسلام، حتى فاجأتني سارا باتصالٍ ذات يوم. .

- لَمْ تعد تأتي إلى المقهى؟

- ظروف الحياة، شغلتني عن أمورٍ كثيرة. .

- أحتاجك في أمر، اشرَب قهوةً عندي. .

ذهبتُ يوم الجمعة، كان المقهى خالياً تماماً، طفتُ بنظراتي على كلّ شبرٍ فيه، من ذلك الركن الأثير لصديقي المرّي إلى الركن المقابل حيث المسجلة التي صارت الآن مثله، بلا صوت، بلا حياة، من بابه الكبير إلى باب مطبخه في الداخل، حيث كانت أباريق القهوة تخرج في أيدي النادلات بين وقتٍ وآخر مثل شربات الأفراح، إلى أنوار الزينة التي خبتْ، والمقاعد التي تئنّ من البرد والوحدة، تذكّرتُ ضجيجه، تذكّرتُ وجوهاً عديدة كانت تصطخبُ بين جنباته، تذكّرتُ أستير، المرّي، فاستبدّ بي شجنٌ مفاجئ، كدتُ أبكي لولا أنها جاءت بإبريق القهوة..

- طالت غيبتك؟

- صحيح، مشاغل الدنيا..

جاءتني بماءٍ وعصيرٍ وقهوةٍ وفوشار، دون أن تحسب حساباً لشيء..

- أفكّر في بيع هذا المقهى..

أسطورةٌ أخرى من أساطير فريج المُرر ستنتهي، لكنني لم أقل شيئاً..

- لم يعد مجدياً، أغلب الزبائن هجروه، أفكّر في شراء صالون تجميل، هو الشيء الوحيد الذي يجلب المال هذه الأيام..

كانت تفرك يديها كما لو كان يعتمل في جوفها سرٌّ عظيم، كانت كريمةً على غير العادة، وقلقةً أيضاً، تردّدت كثيراً قبل أن تتكلّم..

- ما شأن أستير؟

- ...؟

- تعرف ما أقصد، من هي بحق السماء؟

- أنتِ من ينبغي أن يجيب عن هذا السؤال لا أنا، لقد عرفتها هنا؟

لم تكلّمني، إلى أن جرّعتني كلّ ما في إبريق القهوة، فنجاناً تلو الآخر دون أن تنتبه إلى أنها كانت تفعل ذلك بشكل ميكانيكي، مضطرب، تلفّتت قليلاً، اقتربت مني أكثر وهي تهمس..

- قبل ثلاثة أشهرٍ تقريباً جاء أحدهم إلى هنا، ثم ظلّ يتردد على المقهى بشكل يومي أثار استغرابي، لم يكن وجهه أو هيئته يشبه هذا المكان البتة، غربته، غموضه، ابتساماته الباهتة كانت شيئاً لافتاً، وكنتُ حذرةً معه إلى أن عرَّف بنفسه بعد أيام، قال إنه يعمل في سفارتنا هنا، وذكر لي منصباً فيها لا أذكر الآن ماذا كان بالضبط..

قال في البداية إنه يود معرفة أحوال وأوضاع الفتيات في هذا السوق وأنهم كحكومة مهتمون لما يجري فيه، قلتُ مرحباً وحدثته بما أعرف حسبما كان يسأل..

وبعد أيامٍ من ذلك قال إنه يرغب في رؤية أستير والتعرف عليها، فاجأني الأمر، واستغربته أيضاً، ظننتُ في البداية أنه يسأل عنها كأنثى لا أكثر، فأخبرته أنني لا أعرف عنها شيئاً منذ أسابيع، وربما تعود وربما لا..

المهم، قال إنه يرغب في معرفة بعض المعلومات عنها، وعندما سألته لماذا؟ حاول أن يراوغ، لكن حين شعر بأن تلك الطريقة لن توصله إلى ما يريد أصبح أكثر صراحة..

بلّتْ ريقها ببعض الماء، بينما أخذتُ رشفةً من فنجاني السابع أو العاشر لا أذكر، تململتْ في مقعدها ومدّت رأسها في كل اتجاه، تتأكد من أنْ لا أحد يسمع ما تقوله..

- المهم، قال في نهاية الأمر إنه هنا لحمايتها، وإن في وجودها هنا خطراً كبيراً على حياتها، ولا بدّ أن أساعدهم لتعود إلى أثيوبيا بأية طريقة، وينبغي إبلاغه -بشكل شخصي- في حال عودتها أو رؤيتها، لأن في ذلك مصلحة وطنية عليا، هكذا قال..

أعطاني بطاقة عناوينه وهواتفه وأخذ رقم هاتفي ومضى، ولم أره أو أكلمه بعد ذلك..

قامت من مكانها تستعد لإغلاق المقهى، أطفأت أنواره، وكذلك ستائره ونوافذه، غابت قليلاً في المطبخ ثم عادت إلي بمظروفٍ أبيض مغلق عليه اسمي، قلّبته وجهاً وظهراً فلم أفهم شيئاً..

- هذا من أستير، أرسلت إليّ رسالةً قبل أسبوعين ومعها هذا المظروف، قالت لي إنه لك، لا أعرف ما فيه، لكن ذكرت لي في رسالتها أنك تعرف كل شيء، وأنت حر إذا رغبتَ في الكلام..

- أين هي الآن؟

لم أرد، نظرتُ إليها ثم إلى المظروف وقلّبته بين يديّ مرةً أخرى، بينما كانت نظراتها مركزةً في وجهي، مشحونة بمزيج من الذعر والفضول، نظرتُ إليها مجدداً فارتبكَتْ قليلاً، لملمت ما كان أمامي من آنية القهوة ثم قالت بنبرةٍ متوسلة..

- أنت الوحيد الذي يفهم ما يجري، لن تكذب عليّ طبعاً..

لم أقل شيئاً، فبدأت تستعطفني. .

- الذي لا تعرفه أن مثل هذا الأمر يؤثر على حياتي وحياة أهلي هناك إن كانت هذه الأستير مطلوبةً أو ملاحقة، ولم أتعاون مع هؤلاء الناس كما يرغبون، أنت لا تعرف كيف تفكر حكوماتنا!

وضعتُ المظروف في جيبي برفق وهممتُ بالمغادرة، ظلّت جالسةً في مكانها بينما تبعتني عيناها إلى أن وصلتُ باب المقهى، فصاحت كما لو قررت أن تجرب طريقةً أخرى. .

- هم عاجلاً أم آجلاً سيعرفون بكل شيء، حتى هذه الرسالة التي في جيبك، دعنا نفكر سوياً. .

لم يغب عني خبثها، تحسستُ الرسالة في جيبي وأنا أغادر. .

- لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام، وسأقول لك في الوقت المناسب. .

لم أكن واثقاً مما قلت، وهي لم يكن ينقصها الخبث. .

- ربما لن تجد هذا المقهى في المرة المقبلة. .

(2)

كاد شتاء دبي أن ينقضي، وكانت الطيور فوق سمائها تهاجر أسراباً باتجاه البحر

كنتُ أسير على كورنيش «الممزر» الطويل، ثمة فيلاتٍ أنيقة على يميني تقابل أبنيةً شاهقة على الجانب الآخر في إمارة الشارقة، تصطف حول بحيرةٍ دائرية ضخمة، تفصل بين الإمارتين المختلفتين في كل شيء، كما لو كانتا بلدين متجاورين، لعلّه توازن الأزمنة الذي حدثني جيمي بشأنه في أديس أبابا..

زرتُ المرّي في بيته اليوم لأطمئنّ على حاله، وليتني لم أفعل، الرّجل المرح، الحيّ، المتفائل كان كومةً من بقايا ذلك، شبحاً مصفرّاً لأسطورة حب هزمتها الأيام، لقلبٍ تعب من الحب، حب أحلام، حب سلام، حب سارا، وفوق كل ذلك حب فريج المُرر، انتقم منه ذلك الحب، تلك اللعنة التي ذهبت بأريحيته وصوته الذي صار الآن لا يخرجُ من حلقه..

- أنا بخيرٍ الحمد لله..

كانت عيناه مطفأتيْن بحُمرةٍ سقيمةٍ كالدم، وكانت أحلام إلى جانبه تبكي كما لو كانت تجلس على رأس قبر..

- نحمدُ الله على كلّ حال..

لم أحتمل، خرجتُ من عندهما شرِقاً بدمعي، بغصةٍ لن تبارح حلقي، برغبةٍ في الصمت سأوسع لها صدري قبل أن يقتلني الكلام..

وصلت نهاية الممشى الطويل على حافة الشاطئ قرب الشارقة ثم قفلتُ عائداً، لتصبح البحيرة عن يميني، وفيلات الممزر الأنيقة عن يساري، كانت أسراب الطيور لا تزال ترسم في السماء أشكالاً مرحة، وهي تطير ناحية الشرق..

عشرات المشاة والمهرولين والدرّاجين حولي في الاتجاهين، نساء، شيوخ، شباب يودّعون يومهم بممارسة الرياضة، والتي لم تخطر بذهني مطلقاً رغم إغراءاتها العديدة في هذا البلد، كنتُ كالسائح الغريب بين هؤلاء الغرباء..

فتاتان سمراوان، إحداهما تسير متحاملةً على كتف الأخرى وعلى عُكّازٍ تحت إبطها الأيسر، كما لو كانت رجلها اليسرى معطوبة، تغيبان بين الوجوه الهادرة على الممشى الأحمر الطويل ثم تبينان للمحة قصيرة، كانتا في مرمى نظري تماماً، أجول فيما حولي ثم أعود إليهما مرةً بعد أخرى دون أن تغيبا عني رغم المسافة التي تفصلنا، وربما كانتا تلاحظان ذلك..

طويْنا المسافة بيننا على مهل، ثم اقتربنا من بعضنا أكثر حتى صرنا متقابلين تماماً ليس بيننا أكثر من ذراع..

وكأني أعرف صاحبة الوجه، التي تسير على عُكّاز، نظرَتْ إليّ لبرهة، ابتسمَتْ ابتسامةً باهتة ثم مضت، ومضيت..

بعد خطوتين التفتُّ والتفتتْ، ابتسمتْ مرةً أخرى، ومضتْ تتوكأ على عُكّازها حتى ابتعدت. .

يا إلهي، أعرف هذا الوجه العاري ذا الحنك المشقوق، هو الآن بلا مساحيق، أنحف بكثير مما كان عليه في السابق، الشعر الكثيف الملفوف لم يبق منه سوى شعثٍ قليل، والجسد الفارع البضّ صار الآن مثل النخلة اليابسة، إلا أنني أعرفه، فصحتُ. .

- إيلسااا! . .

التفتَتْ سريعاً كما لو فاجأها النداء، ترنّحَتْ فوق ساقها الثالثة، ثم سقطتْ على الأرض، خفّتْ نحوها رفيقتها وامرأتان أخريان لمساعدتها، جئتُ وجاء آخرون حتى نهضَتْ. .

كان رمل البحر قريباً، وقد غادر أغلب من فيه مع قرب مغيب الشمس، إلا من عائلاتٍ قليلة كانت تسبحُ قريبةً من الشط، تحاملَتْ إيلسا علينا حتى توسّطنا المسافة بين البحر والرصيف، وجلسنا. .

لا أعرف كم مضى من الوقت، لكن حين خفّ نحيبُها كان الشفق قد نثر رداءً أحمر في الأفق، خالط أضواء المدينتين في معركةٍ صامتةٍ على صفحة البحر. .

- ماذا جرى؟

قلتُ، لكنها لم ترد، دخلت في نوبة نشيجٍ أخرى، كان الرّمل بارداً، خلعتُ حذائي وتمدّدتُ على ظهري، وجهي نحو السماء، لكنّ جانباً من وجهها كان في مرمى نظري، ثم قلتُ من مكاني معتذراً. .

- أنا آسفٌ لما جرى، تلك الليلة كنتُ قريباً جداً، ولم يكن

بوسعي فعل شيء، ثم علمتُ، لكن الوصول إليك كان صعباً..

أعطتني انتباهاً صامتاً لبرهة، لكنها لم ترد أيضاً، قالت لها رفيقتها شيئاً بالأمهرية، بصوتٍ خفيض فلم أتبيّن ما قالت، ردّت بصوتٍ من طرف فمها يفيد الاستياء..

خرجَتْ عائلة مرحة من الماء، كانت عائلةً عربيةً من أمٍ وأبٍ وصبيّتين أظنهما توأماً، تمدّدوا جميعاً على الرّمل إلى مقربةٍ منا، موجاتٌ من الضحك والمرح كانت تتسع وتتصاعد مع هدوء المكان، حتى انتبهَتْ لها إيلسا، بل استغرقتْها، توقفَتْ عن النشيج، التفتتْ نحوي لتقول شيئاً، لكن إحدى الصبيّتين صرخت فجأةً..

- ماما، انظري إيلسا!

التفتت العائلة كلها نحونا، وصرخت الصبية الأخرى..

- إنها هي، هذه إيلسا يا بابا..

ثم جرت الصبيتان ناحية إيلسا التي استقبلتهما بذراعين مفتوحتين، حضنتهما طويلاً وقبّلتهما مثلما تفعل الأمهات ودموعها تهمي، من بعيد تهلّل وجه الأم وفرِحتْ لفرح ابنتيها، وابتسمَتْ إيلسا أيضاً..

- تعالي يا إيلسا، سلمي على «أبو سمر»..

ولم تستجب إيلسا إلا نحيباً انتبهت له أم الصبيّتين، وإلى الساق المعدنية الملقاة فوق الرمل، فجاءت مذعورة..

- ماذا جرى إيلسا؟

ثم بدا لي أن الأب لم يكن سعيداً بهذه المصادفة، لوّح لها بيده

من بعيد، ثم وضع عليه ملابسه حاثاً عائلته على المغادرة..

- كان حادثاً..

قالت إيلسا، تعانقتا طويلاً، ثم انتهى كل شيء بغتةً كما بدأ..

- هاتفي عندك، لا ترددي في الاتصال بي إذا احتجتِ إلى أي شيء..

لم ترد إيلسا، لملم الرجل عائلته وانصرف من المكان على عجل، بينما كانت نظراتها تتابعه خلسة حتى غابت سيارته السوداء في الظلام..

- هذا هو، أليس كذلك؟

قلتُ، تنهّدت وهي تنظر إلى الظلام..

- الرجال كالمرايا، ذاكرتهم مسطحة، فارغة، ما أن تنزلق عنها الوجوه حتى تبحث عن أخرى..

مسحت دموعها برفق، ومشت تزحف على يديها ومؤخرتها فوق الرمل الكثيف ريثما بلغت شط البحر بصعوبة، انكفأت عليه تغسل وجهها، ثم زحفت قليلاً حتى جلست في الماء وغاب نصفها السفلي فيه..

كُنتُ جالساً، ركبتاي على صدري ويداي تحيطان بساقي، تأملتها بعض الوقت ثم عُدتُ إلى رقدتي وإلى منظر السماء الملوثة بالأضواء والدخان، ثمة نجيمات باهتة في البعيد، طائرات قريبة تومض برتابة بين وقتٍ وآخر، بينما كُنتُ أسمع من مكاني أصوات الموجودين على الشطّ من حولنا، أصوات آخرين كان الماء يأتي بها

من الشط الآخر، صوت صديقتها تكلمها بالأمهرية كلاماً متقطعاً بين لحظة وأخرى، وصوت إيلسا في الماء مثل رقرقة الجدول..

إيلسا التي تخرجت من جامعة فريج المُرر بساقٍ معطوبة، بأحلامٍ هاربة، بجسدٍ شاحبٍ، وذاكرةٍ مليئةٍ بالندوب، ترى لو عاد بها الزمن إلى الوراء هل كانت ستختار ما اختارت؟ هل كانت تدرك ما وراء اللحظة التالية التي تعقب هذا الثقب الأسود؟..

ربما، لكن لم يكن بوسعها أن تقاوم، لعنة هذا السوق لا خلاص منها، أصابت أستير فلم تشفَ، ثم انتهت بها إلى العدم، اختفت، انتحرت، هربت، الله أعلم، لكنها قرّرت واختارت، قبل أن يختار لها فريج المُرر المصير الذي يناسبه، فريج المُرر ليس ثقباً أسود، إنما مغارة، يسكنها إبليس، الخارج منها كالملعون، لا يتذكر من لحظاتها الصاخبة إلا قهقهةً حاقدةً، ساخرةً تتردد ملء أذنيه، لقد كان مجنون ليلى صادقاً، كان محقاً بشأن هذا المكان، لكن خانته فطنته هو الآخر، لكن ماذا عني؟ كيف سأخرج الآن؟

لا، لن أفعل، سأؤخر هذا الأمر، فريج المُرر لا ينتبه إلى الداخلين، بل إلى أولئك الذين على حافة الخروج، ليختار لهم، يمكنني الآن ألّا أخرج، ألّا أكمل حكايتي، يمكنني أن أعود إلى النقطة التي تبدأ منها الدائرة، إلى قوافل القادمين من جديد، آلاف الوجوه يمكنني أن ألتقيها إذا عُدتُ، لأسمع حكاياتها المتشابهة دون أن أروي لها حكايتي، ما فات على كل هؤلاء أن كلمة السر في هذا المكان، هي الصمت، والصمتُ وحده، الحكيُ يجلب اللعنة، ينتهي بالمأساة..

انتبهتُ فجأة على صراخ صديقة إيلسا، صراخ آخرين حولها، فزِعتُ على أصواتهم واستغاثة إيلسا في البعيد تطلب النجدة، ودون إرادةٍ مني وجدتني في الماء، إلى حيث كانت تصعد وتهبط قبل أن تغيب، وتصمت إلى الأبد..

لا أعرف كيف قفزتُ من مكاني، أو عبرت الأمتار القليلة التي تفصلني عن البحر، شعرتُ فجأةً بالماء يحيطني من فوقي ومن أسفل مني، بارداً، مخيفاً، ابتلع ضوضاء المدينة وأضواءها في أحشائه ثم حوّلها إلى صمتٍ ثقيل، إلى موتٍ يتربص بالأنفاس، إلى كُتلٍ من الظلام والحقد، لا تترك أثراً لسابحٍ أو أملاً لغريق..

خرجتُ من الماء والعتمة قرب منتصف الليل، خالياً منها، خائر القوى، لأجد الشط مشتعلاً بأضواء سيارات الإسعاف والشرطة، ونحيب صديقتها الذي لم يتوقف، فوقفتُ إلى جوارها كما طلبوا مني، ليأخذوا أقوالنا..

ثم خرجَتْ من الماء جثةً محمولةً على أيدي فريقٍ منهم، إلى سيارة إسعافٍ في الجوار، فصعدت صديقتها المكلومة إلى جانب جثتها الباردة، دوّى صفير السيارات واصطفّت لتنطلق..

سلمني الشرطيّ ورقة استدعاءٍ لأدلي بشهادتي أمام النيابة، ثم خلا الشاطئ من كل شيء إلا مني، وتلك الساق المعدنية الملعونة، وتذكرت شيئاً..

رسالة أستير في جيبي، تحسّستُها بيدٍ مرتعشة، أخرجْتُها بأصابع مرتجفة، يا إلهي لقد مُحيت تماماً، بل تحوّلت إلى عجينةٍ مكوّرةٍ من الورق لا معنى لها، لا معنى لبقائها في جيبي، نظرتُ إليها برهةً ثم

عصرتُها في كفّي بحنق ورميتُها في الماء بأقصى قوتي، تابعتها إلى أن ابتلعتها ظلمة البحر والمكان، آخر أثر كان يمكن أن يقودني إلى أستير حلّت به اللعنة هو الآخر..

حملتُ بعضي وحملتُ ساق إيلسا على كتفي عائداً، سلكتُ شارع الخليج المحاذي للبحر في طريقي إلى المغارة، إلى فريج المُرر مرةً أخرى، وقف لي سائق تاكسي باكستاني..

- وين روح سير؟

قال وهو ينظر إلى هيئتي المبتلة، إلى الساق الغريبة على كتفي، بخليطٍ من الخوف والاشمئزاز..

- فريج المُرر..

- أوكي، سوّي صبر..

نزل من مقعده إلى حقيبة السيارة، أخرج منها بطانيةً قديمة، وضعها حيث ينبغي أن أجلس كي لا تبتلّ مقاعد سيارته الوثيرة، ثم انطلق حتى وقف بي في التقاطع المكتظ أمام فندق سان ماركو داخل فريج المُرر..

نزلتُ، سائراً بخطىً وئيدة بين الأزقة التي تأخذني إلى بيتي، كانت المحلّات، المقاهي، البقالات، تغلق أبوابها وأضواءها ليغرق المكان في ظلامٍ تدريجي، كان يأخذني بهدوء إلى قلب الثقب، حيث بدأت كل الحكايات ثم انتهت إلى مآسٍ مرة..

أصواتٌ متقطعة في الأعلى، في شقق المقيمين، صرير أبواب، مواء قطط، إلى أن دخلتُ الشارع الذي أمضيتُ فيه معظم لحظات

وجودي في هذا المكان، حين اقتربتُ كان بعض العمال ينزلون لافتة المقهى، مقهى الزمن، وكانت تتكئ على الحائط لافتة أخرى مضيئة «مطعم النيلين» ستُرفعُ مكان الأولى..

على بعد خطوات كانت حافلة للشرطة تقف أمام مطعم مجدي، وسط جمهرة من الفضوليين، وقفتُ بعيداً فوق الرصيف، أنظر..

كان شرطيون في ملابس مدنية يقتادون فتيات المطعم نحو الحافلة، ثم آخران يقتادان إليها مجدي في بذلته السوداء الأنيقة وعطره الصاخب الذي كان يتناهى -مع الريح- إلى حيث أقف، كان يتلفّت، لا أعرف عمّ كان يبحث، حتى وقعت عينُه في عيني، فابتسم، وابتسمت..

أغلقت الشرطة باب المطعم بالشمع الأحمر ثم مضت، وتفرق المتطفلون من حيث أتوا، وذهبتُ أنا أيضاً لأُشهد ما بقي من هذه القيامة ..

بين الأزقة، كانت تختبيء حافلاتٌ أخرى، يُقتاد إليها، شباب وفتيات من أجناس مختلفة، ما أن مررتُ بجوار أحدها حتى استوقفني الشرطي يسأل عن هويتي، لعلّ هيئتي الغريبة، بعضيَ المبتل، شيئاً ما فيَّ كان مُريباً..

نظر إليها مليّاً ثم هاتَفَ شخصاً على الجانب الآخر..

- سوداني، رقم جوازه ... وساطة عقارية..

انتظر قليلاً ثم سلّمني بطاقتي وأعتقني دون أن أفلت من نظراته المرتابة، الفاحصة..

انطلقت الحافلات بحصيلة ليلتها، ببعض حكاياتٍ لم تُروَ، عادت إلى منابعها وعاد الصمتُ إلى فريج المُرر، كأنه مقبرة، غداً سيُبعث، ليبدأ يوماً جديداً بوجوهٍ جديدة، بحكاياتٍ أخرى، سأنتظرها، لأسمع، وأسمع فقط..

حتى صديقي حسن لن أقول له كل شيء..

- انتهت -

الدوحة، تشرين الثاني/ نوفمبر 2013م

للتواصل مع الكاتب

hamidalnazir@gmail.com

حامد الناظر

فَريجُ المُرَر

شيء ما في داخلي بدأ يتغيّر، وكأنه حالة انسجام، تناغم مع هذه الفوضى التي تشبه فوضى صالات الترانزيت، كل شيء طارئ، مؤقت، وعليك أن تنتبه له انتباهاً طارئاً أيضاً، فقد لا تراه أو تجتمع به مرةً أخرى، وللأبد..

تذكّرت حديثاً قديماً لصديقي المرّي الذي لم يعد يتكلم الآن..

- الناس في العادة يعطون الأماكن سمْتَها الذي نحب، لكن فريج المُرر حالة فريدة، هو الذي يصبغ على ناسه شيئاً مثل الهوية الخاصة ثم لا تنفصل عنهم طول العمر..

إيلسا أيضاً قالت لي شيئاً من ذلك فيما مضى، لكن الأمكنة من غير ناسها كالصفحة البيضاء، الخالية، التي لا تحمل أيّ مضمونٍ، أيّ معنى، أي هدف..

منذ أن عُدتُ من أديس أبابا، بدا لي فريج المُرر مختلفاً، كما لو كان جداراً شاهقاً بين الناس وماضيهم، أماناً منه، من يدخله ينبغي أن يخلع تاريخه، ذاكرته، وينفض -على عتباته- نعليْه من غبار أيامه السّالفة..

عوالمه التي تجتهد في أن تبقى محايدة دائماً إزاء كل شيء، التاريخ، الجغرافيا، المستقبل، الأجناس والأحلام، كما لو كانت مركز جذبٍ هائل، يغرّر كل يوم بضحيةٍ جديدة..

❖ ❖ ❖